عصير الكتب
نسخة خاصة بعصير الكتب
fb.com/groups/book.juice

لو كانت

(رواية)

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية. إدارة الشئون الفنية

الجمل؛ نسمة
لوكانت: رواية/ نسمة الجمل. - القاهرة: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع/ ط ١/ القاهرة: ٢٠١٦م.
٣٤٨ص؛ ١٤×٢٠سم
تدمـــــك:
رقم الإيداع:

دار النشـــــر:	دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع
عنـــوان الكتـــاب:	لوكانت
الـــكـــاتـــب	نسمة الجمل
رقـــم الطبعـــة:	الأولى
تـــاريـــخ الطبـــع:	٢٠١٦
تصميـم الـغـلاف:	محمد مجاهد؛ إسلام مجاهد
إشـــــراف عـــام:	محمد المصري

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

ويحذر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع

ت: 01149811100 - 02 335864650

dar.elrasm.blklemat

عصير الكتب

لو كانت

(رواية)

نسمة الجمل

2016

نسخة خاصة بعصير الكتب
fb.com/groups/book.juice

«القشة الرابطة بين الخيال والواقع
تُسافر بك من المستحيل إلى الممكن»

عصير الكتب

إهداء

إلى من حمل سطوري وعلم أنني أخاطب الجزء المظلم به..

إليك وحدك أسرد همساتي،

ليتها تصل إلى صميم قلبك.

عصير الكتب

شكر خاص

شكرًا لله الذي منّ عليّ بهذه الموهبة، وأتمنى أن أُحسن تناولها

■ ■ ■

إلى.. أمي العطوفة الرقيقة المُحِبّة.

إلى.. أبي الغائب الحاضر.

إلى.. أشقاء ظلوا بجانبي.. أشقاء أنتم أم آباء؟!

إلى.. زوجي الذي يرى عيوبي ميزات.. حمدًا لله عليك.

إلى.. أبنائي.. حاولتُ أن أفعل كل شيء، وأجتهد من أجل افتخاركم بي يومًا ما.

إلى.. كل من لجأت إليهم، ولم يغلقوا أبواب الإفادة في وجهي، بحثوا واجتهدوا وشاركوني العمل، وكأنه نجاحهم.

الشكر كل الشكر إلى قلوب صادقة تساعد دون انتظار مقابل.

شكرًا لأصدقاء السند، ولقُرّاء كانوا عونًا لي دومًا، وبفضلهم -بعد الله- سطرت هذه السطور.

شكر خاصّ من صميم قلبي لمدير دار الرسم بالكلمات/ محمد المصري.

شكرًا؛ بوجودكم أصبحتُ أنا.

نسمة

❐❐❐

في أثناء كتابتي لهذه الرواية.. كان هناك وصفٌ لا أستطيع التعبير عنه بحروف، لكنه شعور يطغى على حواسي يجعلني أفقد زمام نفسي، كلما حاولت تفسيره.. تُصاب مشاعري بالثورة وتشتدّ أعصابي وتحتدّ، حتى إنني لم أستطع أن أجد اسمًا مناسبًا لروايتي هذه، وكان الاسم من اختيار إحدى الصديقات عبر صفحتي على فيس بوك.

أتمنى أن تنال سطوري استحسان البعض، وحنق الآخرين.

❐❐❐

عصير الكتب

❐❐❐

حين يكون الحديث صامتًا، مجرد عيونٍ تتألم، تُعرِب عن ذرف الدموع الغزيرة ليلًا، وآخر نفسٍ نُنازع به البقاء، مُحاولين من خلاله تأكيد كوننا بحالة جيدة، هل يمكن إدراك أن خلف بسمات البعض ولهوِهم غمًّا يملأ قلوبهم؟ ونستنبط أن القلب ليس صريحًا حتى مع الذات؟! فقلوب البعض تتألم في الغالب رغم بَشاشة وجوههم.

عادةً عند بداية كتابتي لرواية.. لا أستغرق وقتًا طويلًا للتهيؤ لسردها، دائمًا أكتب بتعجُّل، وأنتهي برشاقة، حتى إنني لا أقوم بمراجعة حرف قد كُتب، لأكونَ دقيقةً.. لقد بدأت الكتابة لمجرد سرد قصصٍ تكون على هيئة نصائح أو مشاركة لأوجاع البعض، ممن لا يعلمون أن هناك من يشعر بهم ويقدر معاناتهم بهذا العالم.

ولكن هذه الرواية -تحديدًا- كلما خطرت ببالي.. أضنتني ولا أعلم لماذا.

على الرغم من أنني كتبت الكثير من الشجى.. فإن هذه الرواية خصوصًا.. ألمُها عندي يبرزُ من أعماقي حتى يتحول إلى حنقٍ شديد على وجهي وغصة علقة بحلقي، ترددت كثيرًا أن أسردها؛ توجسًا من شعوري بها وبالألم الكامن داخلي تجاهها، ولكن...

وجدت أنه لا إدبار من وصب السرد.. أخذتني سطوري داخل حياةٍ شعرت لوقتٍ ما أني عاصرتها أو يحاكيني أصحابها، وأقوم بنقل ما عشته داخلها، وللحظات أخرى أشعر أنهم بمكانٍ يهتفون ويهللون كي أتوه معهم ومع خور

مشاعرهم، وعندما أتغيب عنهم أجد داخلي اشتياقًا شديدًا إلى محادثتهم عبر سطوري وتقمص أدوارهم ومحاولة الطواف معهم خلال كتابتي وإشباع اشتياقي إليهم.

❐❐❐

مصطفى، سمر، أمير، هاجر، في كلٍّ منا
ما يشبههم، رغم المسافة بيننا وبينهم.

عصير الكتب

مقدمة..

ظننْتَ.. فحكمْتَ.. فظلمْتَ!

عصير الكتب

(1)

«سراديب الماضي مليئة بالخيبات»

(سيناء)

على صوت زقزقة العصافير المصرحة بالعطش الشديد وسخونة يوم جديد بسيناء، استفاقت هاجر والكسل يُطل من بين عينيها.. عادة هي لا تفعل بدنياها أكثر من النوم، ما بين الحقيقة والحلم أصغت إلى صوت باب المنزل يطرق، فنهضت واستوت في وسط الفراش بضجر، وما هي إلا ثوانٍ.. حتى لمحت والدتها وهي تطل عليها خفية من وراء باب الغرفة لترى هل نهضت أم ما زالت نائمة. تلاقت عيونهما الآن.. فشلت محاولة هاجر في العودة مرة أخرى إلى النوم، لن تنفعها أي أعذار مهما بلغت عظمتها، طلبت منها والدتها الانضمام إليها في غرفة الطعام لإعداد وجبة الغداء، فكفاها نومًا إلى الآن!

قطبت جبينَها، وأغلقت عينيها محاولةً إرغام عقلها على التفاؤل بيوم جديد، و إيجاد ضحكة داخلها ترتسم على وجهها، فهي لم تعُد تُجيد التمثيل بالآونة الأخيرة، راجية ألا يصبح مجرد يوم جديد آخر مقيت تُجبَر على خوضه، يوم آخر مكرهة أن تعيش كما يريدون، ولسان حالها يُصر بجَهَامة على خرق عقلها الذي لا حول له ولا قوة بسؤل:

عصير الكتب

- ماذا هناك بحياة الآخرين؟ ما الرائع بالحياة الأُخرى خارج ذلك البلد وخارج هذه الشرنقة التي أجبرت على الالتزام بخيوطها؟! هل الخروج برفقة الأصدقاء والأماكن المزدحمة التي تراها بالأخبار والتليفزيون باهرة كما أظن؟! وكيف شعور دق القلب عند رؤية الحبيب؟ هل تكون صداقة الأولاد والجلوس بالمقاهي مُبهجة؟

كُل هذه التخيُّلات لا تذهب عن خيالها المحدود، ولم تكن يومًا شيئًا ملومًا، رغم تديُّنها الشديد.

ولكن سرعان ما بترت أسئلتها.. حين علا صوت والدها القريب من أذنيها، وكأنه بذات الطابق الذي تقبع به غرفتها، صوته دقيق على مسمعها، تنصَّتت وهو يرحب بشقيقه الأصغر ويقول:

- عُدنا من جديد إلى وقف الحال، انتقم يا رب العالمين منهم!

بادرَت بالخروج من الغرفة بحذر، خشية أن تراه، اطمأنَّت حين وجدته بالطابق السفليّ، نظرت بحذر من خلف السور، رأت والدها أمامها مباشرةً، سكنتْ مع خفقان قلبها والذعر يرتسم على وجهها، لم تتمنَّ أن يبدأ صباحها به، وصوتٌ من خلفه يؤكد حزنًا شديدًا، أصغت كي تفقه ما يحدث، ولماذا يحمل صوت والدها وعمِّها هذا الحزن الغريب على ما يحدث بسيناء؟!

اعتدلت أنفاسها من جديد، وهي ترى شقيق والدها ووالد صديقتها الوحيدة شروق يصاحب والدها، فتسللت إلى نفسها مصالَحة وقتية تشبه طيبة قلبه، تحبه كثيرًا وكم تمنت أن تكون ابنته هو، لا ابنة هذا الرجل المتحجر الجاف منذ الصغر! وهي تتساءل كيف أن الاثنين شقيقانِ ويحملان نفس الدماء بعروقهما؟!

عصير الكتب

فعمّها هذا شخص ليّن عطوف، رؤوف بأسرته، حتى بها وبشقيقها، كم تمنّت أن تنال والدتها بعضَ رحمته وعطفه، وتساءلت طيلة سنوات عمرها: لِمَ لا يملك والدها تلك المحبة، ويعلم أن الرفق إنسانية وسلام وكرم؟! لماذا يرى الرفق في التعامل ضعفًا وسذاجةً؟!

لِمَ أصبحَت هي ابنةً لهذا الرجل، من بين أربعة أشقاء يملكون جميعهم الرأفة والطيبة داخل قلوبهم، إلا هذا الشقيق الأكبر الذي تحكمه قسوته وخشونة تعامله؟!

انتبهت من إجفالها على شكوى والدها، وضاق صدرها بما تسمع، يبدو أن هناك حادثةً أخرى ومجندين جددًا، حقًّا مأساة! استرقت السمع بإصغاء لوالدها وهو يتابع حديثه مع شقيقه:

- ما ذنب هؤلاء المجندين ليُقتلوا هكذا؟!

أضاف، وبصوته بعض من الألم الخفي الذي لم تصدقه لوهلة، وهي تستمع لهم من أعلى، باعتناء:

- أكثر ما يؤلمني حقًّا.. أرواح هؤلاء الشباب وقلوب والديهم، وأيضًا هذا البلد، وما صار عليه من نزاع.

ارتجفت لخبر الموت ذاك، لثوانٍ، لكن سرعان ما تلاشى انقباض صدرها، ومرّ مرور الكرام مثل كل مرّة، فهذه الأنباء قد تعودوها، تمنَّت لهم الرحمة والغفران، وصوت أقدام والدها وعمها يبتعد إلى أن اختفيا عن مرماها، تملَّكتها الحيرة من حديث والدها عن الحزن والتعاطف، فلأول مرة تجده حنونًا هكذا، فلم تشهد منه تلك المشاعر من قبلُ.

وتسللت إلى نفسها بسمةٌ عذبة حين تذكرت عزيزها، أمير، وأنه سوف يأتي

عصير الكتب

بعد قليل، عزيزها من يستطيع استنباط ما يؤلمها دون أن تلفظ بكلمة، فلقد مرَّ أسبوع ولم تلمحه.. تفتقده.. لا تلومُهُ على أنه بعيد ويحيا حياة سعيدة، ولكنها تلوم الظروف التي أبعدت الشخص الوحيد الذي يستطيع فهمها بكل سعة، يستخلص ما تحمله عيناها من شجى، يتبين ما تريد قوله دون التفوه بكلمة، فالحمد لله أنَّ عزيزها على وشك الوصول، سوف ينقذها من مشقّة الأيام الماضية، فوالدها قد أكد ليلة البارحة أنه يجب عليه حضور هذا الاجتماع، فلقد سمعته وهو يحدث شقيقه متَّفقَين على موعد اجتماعهم، فلا يمكنه تفويت الاجتماع الهام، يكفية الغط في العسل إلى الآن!

وهل مثلهم يغطُّون في العسل؟!

هل عرفت عائلة مثل عائلتهم معنى تلك الكلمة قط؟!

اتجهت إلى غرفتها وتركت بابها على مصراعيه وأسرعت إلى حاسوبها تضيِّع الوقت، حتى يأتي أمير.

❐❐❐

اعتاد النظر إليها كل صباح، فمع كل شروق تزداد سمر فتنة ونضارة، يحدق إلى وجهها البريء شاكرًا ربه على عطاياه، فمنذ ولادته.. والأيام تمضي عليه وعلى عائلته دون أن يعلموا شيئًا عن السعادة.

في الفترة الأخيرة تعَرَّفَ أمير معنى الحياة، وهو الذي بقي وحيدًا طيلة سنين عُمره، لم يعرف أصدقاء ولا معارف خارج نطاق العائلة والعمل، لم يختبر الرفقة المقربة، حتى أصبح يدمن وحدته.

ثم أصبح الوضع مُغايرًا تمامًا حين وقعت عيناه على سمر، بالليله التي ذهبوا ليتقدَّم إليها بناء على رغبة والده ويطلبها للزواج، ورغم ذهابه وقتها على

مضض فإنه مع الوهلة الأولى لرؤيتها.. سحرته، فُتِن بجاذبيتها، عَلِم ما يعني خفقان القلب ودقاته التي يكاد يسمعها المحيطون به، وكأن قلبه سينقلع من جذوره.

وبعد أن كان يطلبها إرضاءً لوالده أصبح يرجو المولى أن تصبح رفيقة دربه لباقي العمر، لم يمتنع يومًا عن التفكير بها، وتمنى من الله أن تكون له، وأن تمر الأيام سريعة ليكونا معًا، وألا يفرِّق بينهما شيءٌ، حتى أصبحا تحت سقفٍ واحدٍ، وها هي الآن تغفو داخل أحضانه، يستطيع ضمها وقتما يشاء، والأهم أنه يستمد روح الحياة من روحها المرحة.

أدام النظر إليها حتى تنبَّه لجفونها تتحرك، ابتسم وقبّل جبينها، وانتفض قلبه شوقًا، متمتمًا:

- افتحي عينيكِ كي تنسكب منهما سعادةُ يومي، عزيزتي.

استيقظت سمر وعيناها الناعستان عليه، لتجد أمير كعادة كل صباح يقبلها بشراهة، بصورة دائمة تجد بعينيه معنًى رائعًا للغرام، معنًى لا يعرفه أحد أكثر منها، الشغف، ومن يفقه تلك اللوعة مثلها؟! فلقد كانت هي أيضًا تحملها لأحدهم يومًا من الأيام. ابتسمت إليه بدورها مقبِّلة وجنته، وبثّت إليه ما تشعر به من حُبٍّ كبير داخل قلبها، الفعل الذي جعله يحملها بين يديه مُحتفظًا بها داخل أحضانه:

- أتمنى أن أظل هكذا باقي العُمر.

ضغطت بيديها على ظهره آملة عدم رحيله.. فالمنزل بدونه لا يُحتمل، لكنها مجرد أمنيات فيجب عليه الذهاب، تعلم جيدًا أنه لا يمكنه مخالفة أوامر والده، وقد أصدَر فرمانه أنّ زواجهما قد أخذ وقته من السعادة، وما السعادة بالنسبة

عصير الكتب

إليه؟! ألم يرسل إليه مرات كثيرة وجعله يترك سمر ويجتمع بهم رغم زواجهما الذي كان منذ فترة وجيزة؟!

لم يأبه لرغبته ورغبتها بالبقاء معًا أطول فترة ممكنة ثم أمر بنزوله إلى العمل على أرض الواقع والاجتماعات العائلية من جديد، وعزيزها أمير وعد والده البارحة أن يكون أول الحاضرين، فتساءلت بتمنٍّ:

- أمير..

- نعم يا قِطعتي من الجنة.

هذه جملته إليها، منذ أن تمَّت زيجتهم، أمير لا يرى أجمل أو أفضل منها، فقط يرى بسمر كل ما يتمناه إنسانٌ في أنثى، أنثى تشبه رائحة الفاكهة، خدَّاها كثمرة تفاح، عيناها بلون العسل الصافي، صغيرة الحجم كالدمية، لونها كلون الشتاء الهائج، تريد الاختباء داخله ومنه، أنثى تستحق اللقلب بجدارة (قطعة من الجنة).

تأمَّلته وهي تُبعد شعرها الذهبي عن وجهها الملائكي البريء، محاولة النظر إلى عينيه دون أن يفصل بينهما ما يحجب رؤيتها له بوضوح، وأردفت:

- لمَ تحبني هكذا؟

قبَّل جبينها، وهو يُعرب عن امتنانه بوجودها، مؤكدًا أنْ ليسَ هناك امرأةٌ تحمل كل صفاتها، وتكون بهذا الاقتراب من الكمال، فلولا إيمانه العظيم برب العالمين، وبأنَّ الكمال لله وحده.. لوصفها به من وجهة نظرة، فأردف:

- وهل يسألون: لمَ تحب الجنة؟

ما إن لفظ جملته هذه.. شعرت برجفةٍ تسري في جسدها، تهادى إلى قلبها شعور قوي ينبئها أنَّ سعادتها تلك لن تدوم طويلًا، يجب أن تُسلب ككل

ما انتزع سابقًا، ولكنها هذه المرة لن تسمح أن يكون المسلوب أمير، فهي ترى الحياة من خلال عينيه، تعيش موصولة بدقات قلبه، فتساءلت بتوتر:

- أمير..

تطلع إليها شغوفًا، متسائلًا:

- نعم.

تهدَّج صوتها ونظرت بعينيه مباشرة لتفحص ردة فعله، وتابعت:

- لِمَ لمْ تسألني عن حياتي قبل الارتباط بك؟!

رد بثبات، وهو يحنو عليها:

- لأنني لا أهتم.

وعندما وجد عينيها تضيقان حزنًا وكثير من العَبَرات تملأهما، تابع قائلًا:

- أعني أنه لا يهمني معرفة ما سبقني من حياتك، وهذا ليس عدم تقدير من قِبَلي، فأنا حقًّا أعشق كل تفصيلة تعنيكِ، ولكن ما مضى لا يخُصّني، أنا رجل أؤمن أن ما تُحاسب عليه الزوجة.. هو ما بعد علمها بزوجها، هنا يبدأ الحساب والعقاب، أما قبل ذلك.. فلها حياة تملكها، كما يملك الرجل حياته قبل الزواج ولا يحبِّذ أن تسأله زوجته، فأرى أنه من حقها هي الأخرى أن لا تُسأل، فهمتِ أيتها المتسرعة؟!

❐❐❐

تحاول سُها أن لا تفكر بعمرو، أخيرًا عادت إلى لوطن، الآن -وبعد هذا الوقت القصير زمنيًّا الطويل جدًّا نفسيًّا- حصلت على حريتها من...

لم تجد ما يصف ما تعانيه، كل ما تتمناه أن تتناسى تلك الفترة من حياتها، تنظر إلى الجدران الأربعة حولها، إلى ستائرها الوردية المليئة بالأتربة، سريرها الصغير، ومكتبها (يحمل جهاز كمبيوتر) عاشت معه أكثر مما اجتمعتْ بعائلتها، ومكتبتها المليئة بالروايات الرومانسية، ورغبتها منذ الصغر في أن تعيش قصة حب مثل ما في تلك الروايات من أجمل وأمتع الحكايا، ولكن يبدو أن شدة تمنيها الحصول على قصة حُب رائعة.. جعلتها تقع فريسة لاحتياجها، وضعفها حين قابلت عمرو ورسمت له ومعه حياة وردية.. جعلها لا ترى سوى الجزء الذي رسمه عقلها به، أما الحقيقة فكانت بعيدة عنها كُل البعد.

فتحت حقيبتها وبدلت ثيابها، خارجة من غرفتها بأبهى صورة، وجدت والدتها تضع الطعام على الطاولة ويبدو عليها الانزعاج، وشقيقتها وشقيقها يطالبان بإسراع الطعام، اقتربت وهي تودعهم بثبات قائلة:

- سوف أخرج قليلًا.

تطلعت الوالدة إليها بفزع، متسائلة:

- لا، لن تذهبي، يجب أن أعلم ماذا حدث معكِ، ولم عدتِ بهذا الشكل ليلة البارحة، وأين زوجك؟

الغضب الذي اعترى وجه والدتها وعينيها الحمراوين، جلعها تتيقن أن والدتها تنوي افتعال مشادة بينهما ولكنها لم تكن -مهما يحدث- لتقبل أن تقص ما في قلبها، ولا تنوي أن تفعل أبدًا، ماذا يمكنها أن تقول...؟! وعندما تعللت والدتها بسؤال والدها عند قدومه:

- بماذا سأخبر والدك؟

- أخبريه أنني ذهبتُ إلى سمر، وعندما أعود سوف أتحدث معكم، ولكنني أشتاق إلى حياتي هنا، أشتاق إلى نسيان ما مررت بهِ هناك.

تجهم وجه والدتها وعلمت أنه لا يمكنها ردع سها عن الخروج، فلم يكُن من العسير.. الفطنة إلى انفصالها عن عمرو! اللغز واضح وليس بحاجة إلى فك شفرة.

أُجبرت الوالدة على السماح لها بالمغادرة حتى عودة الوالد، وعدم افتعال مُنَازَعة تجعل المحيطين بهم يتسَاءلون، ويبدؤون بالثرثرة حولهم، فأردفت:

- ولكن ماذا سيقول الناس عند رؤيتك بالخارج، وقتها ستبدأ طرح الأسئلة، بماذا سأجيب؟

ابتسمت حين وجدت هدوءًا بنبرة والدتها وعلمت كعادة كل مرة أنها الفائزة، وثقتها أن والدتها ستخشى أن تعلم صديقاتها المقربات، أن هناك بَلْبَلَة بحياتها. وإدراك أن هناك خِلافًا مع أَحد أبنائها، فيجب دومًا أن يكون هذا المنزل وسَيِّدتُه مثاليَّين، فارتفع صوت سها وهي تودعها.

- وداعًا.

تأملتها والدتها وهي تبتعد وقالت بشيء من الخوف والسكون خشية أن يصغى إليها جيرانها:

- سوف أخبر والدك أن ابنته الكبرى قد جُنت.

- ليته فعل وأخذني مني.

- من هذا؟

- الجنون.

❐❐❐

شعور بالفخر يلامس قلب سمر.. كلما تفوَّه أميرها بكلمة، شعور بالرجولة لم تعهده إلا بقربه، لم تعاصره مع والدها ولا شقيقها، لا أحد كان يشبهه، كلٌّ منهم كان يرسم جمود شخصية تغلفه فلا يمكن لأحد رؤية أبعد مما يظهرونه، فأثنت عليه:

- هل تدرك مدى ما تجسّد من الرجولة؟

نظر إليها بحب، وأبعد بيده خصلة الشعر التي تعود كل قليل على وجهها، وأرجعها إلى الخلف بنعومة:

- هل تدركين أنتِ كم تبلغ سمر من الجمال؟

ابتسمت ككل مرة يجيب سؤالها بسؤال آخر، حين يشعر بالحرج وعدم استطاعته الإجابة، اقتربت لتقبِّله، ولكن قاطع لحظتهم الحالمة صوت رنين الهاتف المنزلي، نظر أمير إلى الهاتف الموجود على طاولة صغيرة تتوسط مقعدين صغيرين بركن خاص، جانب باب الشُّرفة!

ونظر إلى سمر، ووجهها متورد خجلًا، وقام بأخذ قبلة سريعة منها، قائلًا:

- دعينا نتفق.. أيًّا كان المتصل.. لن أتحرك من المنزل.

ابتسمت بمرح، قائلة:

- لكنك وعدت.

- ممم، معكِ حق، ولكن أتمنى أن يكونوا قد نسوا أمري.

رفع سماعة الهاتف، وقلبهُ يدعو ألا يكون المتصل هو من يخشى، عَبَسَتْ ملامحه حين سمع صوت المتحدث:

- نعم، حاضر، حسنًا، لن أتأخر، صعد عمي؟! حاضر.. مع السلامة.

نظر أمير إلى سمر، تُلهبهُ نظرتها المتهللة، ورداؤها اللَّبنيُّ اللون الذي طالما ناسبها. وعبست ملامحه، وتحولت نظراته إلى لهفةٍ وأسى في آنٍ واحد، ثم قال:

- كيف، كيف أترك فنجان قهوتي الذي يدفئ جسدي بليلة باردة؟! أخبريني!

- هل تعني أنني أشبه القهوة؟

قلب شفتيه السفليين واستطرد:

- تسخرين مني؟! وأنا أتألم لذهابي وتركك!

- لا، حقًّا لا أفعل، ولكني أردت أن أضحاكك!

وتساءلت مازحة: هل كان المتصل والدك كما توقعت؟! أطرق أمير رأسه في إيجاب وامتعض في غضب وهو يؤكد أنه لا يريد الذهاب وتركها! كيف يمكنه ذلك؟!

قالت بحس من الشماتة:

- سأخلد إلى النوم قليلًا إذًا.

نظر إليها حزينًا، وتابع وهو يقترب منها ببطء:

- يبدو أن هناك من تسعد لأنني سأتركها وأرحل. ولكنني لا أريد، أتمنى أن أظل دائمًا هنا.

- هنا أين؟!

دنا منها وهو يضع يده تحت رأسها ويشير بيده الأخرى إلى قلبها:

- هنا.

تمسك يده الممدودة إليها، وتقول بمودة:

- دومًا ستظل هنا، ولن يسكن أحدٌ غيرك هنا أبدًا.

أخذت تسحب يدها بين خصلات شعره المتوسط، وتتأمل عينيه السوداوين العميقتين، ووجهه العريض، باغيةً أن لا تُحرم تلك السعادة أبدًا.

لمح أمير بنظراتها حُبًّا كبيرًا داخل قلبها، فلم يحتجْ أن تتفوه بكلمة، فكان أمير محظوظًا بالفوز بحبها، غنمه عن جدارة.

وربتت سمر على رأسه وهو يغفو على قدميها، وأخذت تقول وهي تحنو بيدها على رأسه:

- تعلم.. لو أن أحدًا أخبرني عن هذا الحب الذي أشعر به معك.. لوصفته بالجنون، لكن أتيت أنتَ لتؤكد أن الحُب جنون، جنون يأخذك منك، يأخذك من روحك، يجعلك غير قادر على التفكير تجد داخلك استسلامًا له فقط، تخشى التفكير فيكون حلمًا رائعًا، وتفيق فتجده سرابًا.

داعبها بطفولة وهو يضرب رأسه بكف يده باندهاش:

- يا الله على جمال هذه الأنثى! كيف أنتِ هكذا؟! أخبريني!

تورَّدَت وجنتاها خجلًا، وأردفت:

- هيا اذهب.

- سوف أعود سريعًا، انتظريني.

ابتسمت ببلاهةٍ وقامت بالاقتراب منه مداعبة، طالبة منه أن يسمح لها بعد انصرافه أن تأخذ حمامًا وتبدل ملابسها وتعود مرة أخرى إلى الغرفة لتنتظره، وافقها على مضض وهو يطلب منها شيئًا ويثق بأنه من المستحيل أن تقبل، اقترب من وجنتها وقبلها برفق ويقول: بشرط الإفطار.

- موافقة.

غمرها بذراعيه بليونة، ثم ذهب إلى الحمام الملتحق بالغرفة آخِذًا ثيابه معه،

وعلى وجهه ابتسامة رضا، فهو يعلم أن سمر لا تحب وجبة الصباح، خصوصًا أنها تنام لوقت متأخر، وأنها تفعل لمجرد إرضائه، يطمئنه هذا إلى كمّ الحب الذي يملأ فؤادها من أجله.

❐❐❐

منذ أن ذهب أمير.. وسمر تصطدم بكل شيء حولها بفوضوية عارمة، تبحث بذعر شديد واضح عن ملامحها، تنظر.. عساها تجد ما تبحث عنه، ولكن يبدو أنه قد اندثر، كيف يمكن أن يُفقد منها شيء بهذه القيمة عندها؟ فضلًا عن كونه باهظ الثمن، فهو كل ما يربُطها بماضيها. ظلت تبحث باضطراب عساها تجده.. ولكن دون جدوى، مَن يمكنه أن يقوم بسرقة شيء عزيز كهذا؟! لمع بمخيلتها احتمال أن يكون لأمير شأن باختفائها، برزت عيناها وتصبب جبينها عرقًا لمُجرد احتمال كهذا!

فلا يمكن لاحتمالٍ كهذا أن يحدُث، أميرُها لا يمكن لقلبه الرقيق أن يخدش، فهي تعلم أنه مجرد ماضٍ، لا يمكن لوقت سَالِف أن يبقى في الحاضر، ويظن أمير بها ظنًّا غير صائب، ويفقدها هَنَاءها معه.

أخذت تتنفس بهدوء، فهذا يستحيل أن يحدث، وعلا صوتها قليلًا بشيء من الطمأنينة:

- لو عثر أمير عليها.. لكان واجهني، فرجولته لن تقبل أن يتغاضى عن شيء خطير كهذا، يا لغبائي! ليتني تخلصت منها منذ زمن بعيد! ولكن يجب أن أهدأ، فبالتأكيد هي هنا بمكانٍ ما، فلن أتوتر لأعثر عليها.

قالتها لنفسها، وتابعت البحث بخزانة الملابس وكل أدراج الغرفة.

❐❐❐

يجلس أمير في حَضرة أبيه، وشقيق والده، يتشاورون فيما بينهم بأمُور عدة، يبدو على أمير شرود فكره، فزع حين وجد يدًا تتأبط ذراعه خفية، فنظر برجفه سرت داخل جسده وهو ينظر إلى شقيقته هاجر، بادلته النظرات بعينيها الواسعتين السوداوين وشعرها الحريري الأسود المطل بعضه من تحت الوشاح الذي ترتديه احترامًا لشقيق والدها، وعقدت جبينها وهي تسحب يدها من يد شقيقها حين وجدت من نظراته السكون والعبوس.

اضطراب يعلو وجهه جعلها تنكمش في مجلسها، هامسةً بصوت خفيض:

- هل أنت بخير؟

وضح على وجهه أنه مُرتاب وكأن هناك ما فُقد منه، يدان ترتعشان بشدة، عينان مضطربتان، لو وضعت يدها على صدره لوجدت هياجًا في دقاته، وعلى الرغم من كل ما يشعر به.. رسم نظرة جامدة على وجهه، وتلفّظ -بعد حربٍ مع ذاته- بكلمات عدة:

- بخير عزيزتي، لا تقلقي.

احْتدَم غيْظًا صوت الوالد، يقطع خلوتهما:

- هاجر، اذهبي وأشرفي على الطعام واتركي أخاكِ ينتبه للعمل.

خُلع قلبها حين أصغت لصوت والدها، حقًّا مهما زادت سُنون عُمرها.. فخوفها من ذلك الأب الناقم يزداد يومًا بعد يوم، هناك أشياء داخل قلبها لا يمكنها البوح بها إلا لأمير، ولكن أين أمير؟! أين الشقيق العطوف؟! يجلس أمامها تملأ عينيه الحيرة والقلق، تُرى ما الذي أوصله إلى تلك الحالة؟! هل من الممكن أن تكون زوجته؟! ولكن كيف؟! الجميع يعلم ما تعنيه له، وتحوله إلى طفل

صغير عند حضورها! لا، بالتأكيد شيء أكبر حدث، هناك ما يشتت انتباهه، ربما العمل، أو أمور العائلة!

ذهبت بهدوء نحو غرفة الطعام، حيث والدتها والخدم.

تابع والد أمير حديثة، قائلًا:

- أريد أن تبحث لنا يا أمير عن موضوع استصلاح بعض الأراضي لزراعة الزيتون.

فتحدث الشقيق، مضيفًا:

- بالفعل، أنا أرى أن العائلة لم تعد تهتم بهذا الأمر منذ أجدادنا، أتمنى لو نستطيع زراعة الزيتون مرة أخرى، فأنا أعلم أن إسبانيا تستورده من بعض العاملين هنا.

- أجل، أجريت دراسات على هذا الموضوع ومن أجل هذا أخبرتك أن نعود إلى زراعته من جديد، بجانب مشاريعنا المعمارية، وهذا المشروع مربح كثيرًا.

- لا بد أن يكون مربحًا مباركًا، وكيف لا، وقد ذكر الله تعالى سيناء في كتابه العزيز: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴾ [المؤمنون: 20] كما أقسمَ بها: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ [التين: 2-1] وقد تجلى جل جلاله بها، حيث كلَّمَ موسى عليه السلام. لقد بحثت بالأمر كثيرًا، وأتمنى أن نعيد من جديد استثماره.

- حسنًا، فليعثر أمير على الأرض ويخبرنا إذًا، حسنًا أمير.

هز أمير رأسه بالإيجاب، على الرغم من أنه لم يكن معهم فيما يتشاورون.

❐❐❐

قرع الباب الخارجي لمنزل سمر وأمير، أسرعت الخادمة فايزة بفتح الباب

بهدوء، وسمر تتأمل من الدور العلوي بوجه يعتريه الفزع، ترى من يأتيهم الآن، فهي ليست بحالة تسمح لها برؤية أحد، يجب عليها العثور على ما فُقد منها بأسرع وقت ممكن، قبل عودة أمير.

صوت يأتي وملامح تظهر والبصيرة تتضح كلما اقترب الزائر من الداخل، صرخت حين اتضحت الرؤية:

- سها، عزيزتي.

أخذت تعدو نازلةً الدرج، وهي تركض نحوها فرِحةً، حتى اقتربت من صديقة طفولتها وضمتها داخل أحضانها بقوة، كيف دار الزمن بينهما حتى تلاقيا وكأن العُمر وقف منذ الافتراق!

يقاس العُمر بطول السعادة، فإنه إنْ حُسب بلحظات الحزن أو الفراق لكان طويلًا مؤلمًا، وشعرت بأن حياتك رتيبة لا تمر.

لا تجعل الزمان يقف بك داخل بؤرة الشجن، خذه أنت واغدُ به لتنال فرصتك من الحياة.

لحظات طويلة تجمع بين الصديقتين، لحظات الحزن والفرح، التفاؤل والتعاسة، لكل منهما ما يملأ فؤاده، ولكل منهما حسابات خفية وراء تلك الضمة الصادقة الكاذبة.

❐❐❐

تترقب هاجر مجلس والدها وشقيقها راجية الوُلوُج، ولا يمكنها خوفًا مما ستجده من والدها مما يخدش مشاعرها، هذه الفترة تحديدًا لا يمكنها تحمل التجريح منه، لابتعاد أمير وبقائها بمفردها، سمعت صوت والدتها يِرْتَفع بأن تُخبر والدها أن الطعام قد أُعِدَّ وأُحضِرَ على المائدة.

اقتربت بخطى بطيئة من باب الغرفة، يبدو على الجميع الانشغال كثيرًا بالحديث، قالت بصوت خَفيض:

- الطعام حاضر.

نهض الوالد من مجلسه وطلب من شقيقه وأمير الانضمام إليه لتناول بعض الطعام معه:

- تفضلوا وسنكمل حديثنا بعد الطعام.

ذهب الوالد وشقيقه خلفه إلى الغرفة الأخرى، وظل أمير ساكنًا، وكأنه لم يصغِ إلى نداء والده، لم يفطن أحد إلى تغيره سوى هاجر، مَن غيرها يحس النبض الحارق الذي يسري بعروقه، من أكثر منها عاصر بهجته وهمومه، حتى الغالية سمر لم تستنبط بعدُ، كلَّ ما تعلمه هي عن أمير، فهاجر وليدة البارحة اتخذت منه وليدها طيلة سنوات عمرها الماضية، تنظر إليه هاجر بلهفة استوطنت عينيها وقلبها، فكم مَرَّ عليهم ولم تشاهده على تلك الحال مطلقًا، ولكن يا تُرى ماذا به؟! الكُل يعلم عن أمير أنه غامض، ولكنه إنسان آخر عند حضورها، فكلاهما مكملٌ للآخر، ليسا مجرد شقيقين، ولكنهما صديقا طفولة، وبينهما حكايات عُمْرٍ، وثقة بخبايا نفسيهما، الاثنان فقط يستطيع كلٌّ منهما التعري من آلامه وأفكاره أمام الآخر، عرجت نحوه، ضاغطة بيدها كتفَه، قائلةً:

- ماذا بك يا أمير؟!

رغم غياب أمير عنها.. فإن عينيه المحدقتين إليها كأنه بعالم آخر، تجعلانها تُصرُّ على معرفة ما بِه! ليتها تستطيع التحدث مع عينيه، لكانت حصلت على أجوبة تهدئ من قلقها، بدلًا من هذا الجماد الواجم أمامها، تفوهت شفتاه ببلادة:

عصير الكتب

- إنني بخير، لا تقلقي...!

وتطلع حوله مندهشًا في تساؤل:

- أين والدي وعمي؟

أنَّب نفسه على تأثر حالته، وفقد انتباهه في أثناء العمل، فلو لاحظ والده.. لما سَلِم من توبيخه، أدام النظر بعيني هاجر وليته ما فعل، كم استفهام تحمل تلك العيون العطوفة! فذعرها عليه كان يغزو عينيها، حاول أن يتدبر أمرًا يفعله كي ينجو من إجابة لا يستطيع المصارحة بها.

وضعت يدها على يده برفق وحنو، وتساءلت للمرة الثانية:

- حقًّا بخير؟

- أجل، اتركيني وشأني يا هاجر.

لانت ملامحها رغم قسوة حديثه، لأنها تعلم أنه ليس بحالة صالحة للمجادلة، فقالت بشيء من الفلسفة متقمصةً صوت خشن النبرة قليلًا:

- إحم.. أحيانًا توجد أمور داخلنا، من الأفضل أن تظل دَفينة، وإلا سيجرح منها غيرنا، ونحن لن نحتمل أوجاعهم، فنجور على أنفسنا، ونكتم آلامنا داخل قلوبنا، حتى لا نوجد بهم ذرة من الألم.

رمقها بألم، هي تحفظ كلماته عن ظهر قلب، فاسْتَطرد وهو يتأملها بضعف:

- تهزمينني بكلماتي؟!

- وهل لي أن أفعل؟!

- لا.

- رفقًا بقلبي الذي يتألم من أجلك، أخبرني، ماذا بك؟!

- بخير عزيزتي لا تقلقي، اتركيني الآن لأذهب حتى لا يغضب والدنا، وهناك بعض الأخبار عن عمك جاسم بألمانيا أريد إطلاع والدنا عليها.

ضَاقَ صدرها بسماع اسم ألمانيا وما تحمله من بغض داخل قلبها، أذنت له في الذهاب للانضمام لوالدهما، فهو محقٌّ لقد أعاقَته كثيرًا، وقبل السماح له بالذهاب جعلته يعدها أن يحادثها قبل أن يذهب.

❐❐❐

في بيت آخر، وبشكل أدق مدينة أخرى «الزقازيق» يودع مصطفى عائلته..

منزل مصطفى رحيبٌ أنيق. إنهم مترفون اجتماعيًّا رغم ما أَلَمَّ بهم، لم يحتاجوا يومًا شيئًا من أحد، فوالده ابن عائلة تملك الكثير من الأراضي، امتلك بعضًا منها حين حصوله على تَرِكَته، وعائلة والدته من أكبر وأهم الشخصيات بمدينة الزقازيق.

يرتدي ثيابه وسط الدموع، تأوه من أجل ألمهم الكاسي وجوههم، حزم حقيبته ونظر إلى والدته وشقيقتيه وأسرع إلى الاختباء بين أذرُعِهم، أخذ يواسيهم، وصوت والدته «سعاد» يقول:

- لنا الله، لمَ يُبعدونك عني بنيَّ، وأنت كل ما لنا؟!

الموقف مؤلم للجميع، يضغط مصطفى بيده على يد المقعد جانبه، وقال وهو يرسم البشاشة على وجهه:

- تشعرينني بأنني ذاهبٌ دون رجعةٍ يا أمي.

عنفته سعاد على مزحه، وطلبت منه أن لا يعاود تكرار هذا الحديث مرة أخرى، ولو لمجرد الهزل، داعيةً الله أن يعيده إليهم سريعًا، فلا يمكنهم الحياة بدونه.

مصطفى الابن الأوسط لتلك العائلة، تَحمل عبء كل فرد فيها منذ أكثر من ثلاث سنوات، ليضيف إلى عمره عمرًا رغم صِغر سنه.

فيا للسخرية! لو أن أحدًا بصم على أن يصير مصطفى هذا الرجل المسؤول عن عائلته منذ سنين قليلة مضت.. لنعتوه بالأخرق.

ولكن ها هو يتحول من شاب مستهتر يُحبّ نَفسه حُبًّا مُفرِطًا ولا يُفكِر في غيرِهِ، إلى شاب يقدس حياة العائلة قبل حياة الفرد.

شخص تنازل عن كل ترف الدنيا في سبيل راحة من حوله، ولكن هل ستكون الحياة لئيمة معهم، وتحرمهم إياه بعد أن ذاقوا معه راحة البال والطمأنينة؟!

هل تصاحبه دعوات والدته ووالده الماضية حين كان يقسو عليهم، و يطلبون من الله سلبهم شخصيته الحقودة، تطلعت الوالدة للسماء راجيةً أن لا يستمع الله لهم، اليوم يخشون أن يمس هذا الابن بسوء.

تأملت اجتهاده الملحوظ بعينيه ومحاولته تغليف حزنه بابتسامة باهتة على وجهه، فيمكن للعين أن تخطئ ولكن هل يمكن أيضًا للدم الرابط بينهم أن يفعل؟

قائلة:

- سامحهم الله.

رمق مصطفى شقيقه الأصغر وهو يبكي ودموعه تذرف بكثرة وعفوية و براءة، وقام بمعانقته كي يهدئ من روعه، مخادعٌ، إذ كان في الأصل يعانق خوفه هو و يهدئ من حرقة قلبه.

اضطجع وهو يحاول التحدث بصلابة وقوة حتى يستقوا قوتهم منه:

- محمود.. صغيري، تماسك وكفاك بكاءً، هل الرجال يبكون؟! من سيهتم بالعائلة وأنا بعيد؟

انتحب الصغير وهو يضم بذراعيه الصغيرتين مصطفى وقال ببراءة:

- أنا.

اختبأ محمود بين ذراعي مصطفى، وهو يجهش بالبكاء، فرغم عدم إدراكه ما الجيش! محمود ذو الثماني سنوات لا يستطيع استيعاب -بعدُ- ما المقصود بالخدمه العكسرية! وما سر الخوف منها، كل ما يدركه أن والدته وشقيقاته يبكين وهو يفعل مثلهن!

فمنذ مرض والدهم المزمن، والذي جعله طريح الفراش ما يقرب من ثلاث سنوات، وهو لا يرى عائلًا غير مصطفى، هو من قام بتربيته وتعليمه، هو في الواقع الشقيق والصديق والوالد أحيانًا كثيرة، لا يملك الجميع بهذا المنزل إلا مصطفى، لكن الآن.. ماذا؟!

هذا الصديق سوف يذهب بعيدًا للمرة الثانية سيتغيب عن المنزل مثلما فعل في أثناء التدريب، وانقطعت أخباره عنهم لمدة خمسة وأربعين يومًا، من جديد سوف يبتعد، وخوف الأم وشقيقتاه مضاعف لأنها سيناء دون غيرها، سيناء التي تبتلع يوميًّا الأبناء وكأنها تستبيح دماءهم، سيناء التي لا مفر من الموت ما دمُت تملك الجنسية المصرية، سيناء تلك الأرض التي استرددناها لكي نقتل بها ولها، سيناء مقر الموت، تستبيح دماء أبناءها فقط لأنهم يحبونها ويحاولون الحفاظ عليها!

اختلس نظرات سريعة إلى المنزل، بعيون مودعة، اليوم سيذهب إلى مكانٍ مُبهم، مكان في الفترة الأخيرة وصفه الكثير بالشؤم، اليوم سوف يودع عائلته ويتمنى من الله ان يرده من جديد إليهم، ليس حبًّا في الحياة ولكن خوفًا من تركهم دون حمايته.

أخذته قدماه سريعًا لغرفة والده حيث كانت عيناه تتابعه بلهفة وشوق.

دنا مصطفى من يد والده وطبع قبله حانية عليها، تسارعت دموعه الحارة لتلامس يد الوالد بأسى، والد مصطفى لا يستطيع تحريك يديه ولا قدميه، مجازًا لا يستطيع تحريك شيء سوى عينيه، منذ ثلاث سنوات وهذا الأب بتلك الحالة يضنى، ويألمهم جميعًا بنظراته اللائمة على إعاقته، ولكن ما ذنبه؟ وما ذنبهم أيضًا أن شاب متهور صدمه ليموت، وتركه وراءه يتعذب؟! ليته سلب روحه معه ووافته المنية، فأفضل له من أن يعيش حملًا على صغيره مصطفى!

قَبّل مصطفى جبين والده وهو يقول:

- والدي الحبيب ستأتي الإجازة الأولى سريعًا وأعود، فلا تحزن.

مسترسلًا مازحًا قبل أن تغلبه العبرات:

- أتمنى عند عودتي أن أسمع صوتك يملأ هذا المنزل، وكل من به يشكون من كثرة حديثك.

وحنَّ صوته بصدق وهو يؤكد:

- أتمنى من كل قلبي يا أبي أن تعود إلينا كما كنت لأشعر بالراحة والاطمئنان.

وتبسَّم وهو يتأمل نظرًا إلى عيني والده، وتمنى أن يبقى السكون داخلهما إلى الأبد، وطمأنتاه أن كل شيء سيكون بخير، ولكن كيف له أن يفعل، قائلًا بصوت يتحامل كي يبث الصلابة في قلوب الجميع حوله:

- سوف أفتقدك.

عانقت عينا الوالد مصطفى بكل حُبٍّ، فَعل والده وشعر مصطفى جيدًا بحضنٍ دافئ احتواه بكل عطف وطمأن قلبه قليلًا من شعوره بالقلق عليهم.

❐❐❐

عصير الكتب

(2)

«ليس كل ما يتراءى لنا هو الحقيقة.. أحيانًا تكمن الحقيقة في باطن الكذب»

لم تشعر سمر بحضن سها العميق، ولن تشعر بِه أبدًا لو استمرت على حالتها تلك، تراها دومًا الشقيقة العطوفة، كلمة الصديقة لم تكُن يومًا تجدها لائقة لتطلقها عليها، ابتعدت سها وهي تنظر إلى المنزل حّولها وكأنها تتفقده وجدت البيت هادئًا منمقًا، رائحتة ذكية تشبه رائحة الفاكهة، وقالت بلهفة فاضحة بصوتها:

- أين أمير؟

توردت وجنتا سمر وخفق قلبها بشدة، متذكرة ما فُقد منها، وخوفها أن يكون أمير عثر عليه، وشعرت باضطراب دقات قلبها.

أطلعت سمرُ سها على ما يجرى معها، وكيف تخشى أن يعثر أمير حقًّا على ما غاب عنها، فيظن بها السوء، ولكن رد فعل سها كان غامضًا، ابتسمت ابتسامة هادئة ولمعت عيناها، ارتسمت ابتسامة صادقة على شفتيها وجلست على المقعد أمامها واضعة قدمًا فوق الأخرى بكل ثبات، وقالت:

عصير الكتب

- تمزحين؟! هل رغم زواجك من أمير لم تنسي، ألم تخبريني يوم خطوبتكم أنك أحببته وتتمنين قضاء باقي عمرك معه.

شردت سمر، كمن تجتهد لتذهب بمخيلتها إلى مكانٍ آخر، فرغم كل ما حدث.. هي ممتنة لما صار معها، فـأولًا وأخيرًا ما حدث لها جعلها تقدر الحياة مع أمير، فلولا ما مرت به.. ما قبلت بأمير زوجًا، وما قدرت حُبه العظيم لها. ثم أفاقت من شرودها وقامت متحركة خلف الكرسي الذي تجلس عليه سها، وتطلعت إليها من الخلف قائلة:

- نحن عزيزتي.. لا يخفق قلبنا -حين يخفق- لأن محبوبه أجمل شخص، ولا ننجذب إليه لرقته، إنما نقع أسرى للعشق، نُحب لأننا نحب! ولن نكره لأننا نريد أن نفعل، فهذا القلب ليس أداةً يمكنك توجيهها نحو ما ترغبين فيه، إنه هو من يرغمك لا العكس، ليتها بتلك البساطة عزيزتي!

قاطعتها سها بمكر وهي تقوم من مكانها، وتقف أمامها كي ترى تعبيرات وجهها. وتساءلت وعيناها تتابع عينَي سمر:

- غريب أمرك، كُنت أظن أن أمير أنساكِ الدنيا وما عليها.

نظرت إليها سمر ووضعت يديها على قلبها، وابتسمت بحب وأشارت إلى قلبها قائلة:

- هل ترين هذا القلب؟ إنه لا ينبض سوى لأمير، فمجرد أن يُذكر اسمه أو أسمع صوته.. أشعر به حولي أرتجف من عمقي إلى ظاهري، أتبدل وكأن قلبي يُقلع ويذهب، ليصاحب نبض قلبه، فأعيش من جديد بحياةٍ أخرى، حياةٍ موصولةٍ بدقات قلبه، أنا أعيش به وأحيا لأجله، ولن يقوم قلبي بفعل شيء طيلة سنوات خفقانه سوى حبه، فهو لا يستحق سوى الامتنان والتضرع إلى الله داعية له على كرمه وعطاياه لي التي تمثلت في وجوده، فكل ما مضى من

حياتي ماضٍ، ولأنه مؤلم سوف يستمر لكي أشكر يوميًّا رب العالمين على الحياة الكريمة التي نلتها، أما أمير فحاضري ومستقبلي.

ضغط حديثُ سمر بقسوة على مشاعر دفينة داخل سها تؤلمها، صمتت...

لاحظت سمر غياب سها، فتساءلت عن السبب وهي تمسك يديها بعطف، ولكن سها التزمت الصمت والشرود.

تساءلت سمر من جديد:

- كيف أتيتِ عزيزتي، ومتى أصبحتِ بسيناء، وأين عمرو، أريد معرفة كل شيء أخبريني!

لم تجد سمر من سها غير السكون، مما بعث القلق في قلبها، بوضوح الرؤية أمامها وهدوء عاصفة حبها ووصفها لأمير، تبين لها أن سها ليست سعيدة، ملامحها تؤكد ذلك، فرددت سؤالها مرة أخرى مُصرة عليه:

- سها هل تسمعينني، أخبريني أين عمرو؟

أخذت سها بتنهيدة طويلة وأردفت:

- لم يعد يجمعنا شيء، لقد انتهى ما بيننا.

تجمدت سمر مكانها من هول الصدمة، لم تتفوه بكلمة، لم تستطع استيعاب ما قالته سها، فقصة حبها هي وعمرو قد شهد الجميع لها، قالت:

- نعم؟!

حدقت سها إليها وهي تراها بحالة صدمة بالغة، حملت عينا سمر الكثير من العبارات، حاولت سها حينها تجنب وابل الأسئلة التي ستطرحها سمر الآن، واقتربت من لوحة معلقة على الحائط تحمل صورة لسمر ويحملها أمير ليلة زفافهما، وقالت وعلى شفتيها ابتسامة:

عصير الكتب

- أتذكر جيدًا ليلة عرسك أنتِ وأمير، أتذكرها وكأنها البارحة، أتذكرها رغم البؤس الذي تجرعته تلك الليلة.

لم تفق سمر بعدُ من حديث سها عن انفصالها هي وعمرو والآن تقول إن يوم زفافها هي وأمير كان يوم بؤس بالنسبة إليها، أين كانت من حياة صديقتها بتلك الفترة وشعرت بالخزي من نفسها، فكيف لعزيزتها سها أن تعيش الألم ولم تعلم هي عنه شيئًا، يبدو أنها لم تكن صديقة حقيقية، فسألت:

- بؤس؟!

فطنت سها لما انبثق عنها، وحاولت سريعًا إبعاد ما تبينته سمر فقالت بابتسامة عريضة أضحت بالأونة الأخيرة تتقنها، حتى باتت تصدق نفسها:

- أجل، بؤس، فأنتِ صديقتي الوحيدة وكنتِ تتزوجين وأنا كنت على وشك السفر سريعًا بعد زواجك، هل هذا يسمى بؤس أم ماذا؟! وأنا وصديقة طفولتي الوحيدة سوف يبتعد كلانا عن الآخر، ولا نعلم متى سترى إحدانا الأخرى من جديد.

لم تشكك سمر لوهلة في حديث سها، ومنذ متى تجادلت معها، سها توقن جيدًا قيمتها داخل قلب صديقتها سمر، وأيضًا لم تكن تملك من الخبث والدهاء شيئًا، فسمر ممزوج اللطافة والطيبة صنع لأجلها، ابتسمت سها محاولة تغيير الموضوع:

- أخبريني الآن ماذا بكِ، أشعر أن هناك شيئًا يقلقك غير ما اختفى، هيا أخبريني!

حاولت سمر قمع أسئلتها الكثيرة، وتذكرت صديقتها وكرم الضيافة، وأيضًا المفقود منها فيجب أن تعثر عليه قبل عودة أمير إلى المنزل مهما كلفها الأمر من

عصير الكتب

جهد ومشقة، اعتذرت إلى سها أن تغيب عنها لبعض الوقت، وبأنها بخير، لا داعي للقلق من جديد، فهي لم تعش بحياتها أفضل من الآن، وانصرفت وهي تطلب من الخادمة، إعداد أشهى المأكولات لصديقتها، واستأذنتها كي تُبدل ثيابها والانضمام إليها بعد قليل.

❐❐❐

استند مصطفى إلى زجاج السيارة، الشجن يمزق قلبه ليس خوفًا من الموت، لا يشغله القتل والدمار ولا أخبار قتل الفتيان الأبرياء كالفئران، وهم مُكبلون على الأرض فتلك الحادثة بالأخص قريبة جدًا، لكن ما يؤلمه منظر عائلته ووداعهم.

وأكثرهم إيلامًا لقلبه.. محمود.

كيف له أن يستوعب أن شقيقه سيبتعد بعد أن عاهده أنه لن يتركه وحيدًا ويبتعد عنه مطلقًا، تفوه بصوت خفيض لا يسمعه غيره، تحدث والمرارة تملأ كلماته:

- عذرًا يا صديقي، رغمًا عني، سامحني.

تحامل أكثر برأسه على الزجاج، محاولًا كبت التساؤلات داخل رأسه لم يعرف قلب مصطفى الخوف سوى مرة واحدة بحياته يوم حادثة والده، اليوم يعيش هذا الإحساس البشع من جديد ولكن تلك المرة يصاحبه الذعر، وداع عائلته وفزعه عليهم، يمزع أوصاله.

- الفراق مؤلم، وإن كان وقتيًّا، كروح تترك الجسد وترفض البقاء، يا رب الصبر.

بُعثت هذه الجملة من بين شفتيه كمن يحاول إيجاد الراحة ويعلم أن الراحة

تصاحب مناداته ربه دائمًا، لم يطرأ بمخيلة مصطفى أن ما سيراه هناك سيجعله يعيد حساباته في أقواله تلك.

□□□

ابتعدت هاجر بضع خطوات عن غرفة الطعام، تمعن الرؤية في غرفة والدها، ولا تجد أمير، مما جعلها تغزو الغرفة بتطفل، غير مدركة عواقب ما تفعل، للحظة تناست والدها وردة فعله بموقف كهذا، تشوش عقلها حين لم تجد شقيقها ولم تحرز ما تفعل، وتساءلت بشيءٍ من القلق:

- أين ذهب أمير؟

حين هاجمت هاجر خلوة والدها بهذه الطريقة أثارت الاستياء داخله وبدا على وجهه الانزعاج الشديد وتفحص الغرفة حوله بسخرية ورفع عينيه محدقًا إليها بنظرات غاضبة، وقال محتدمًا:

- هل ترين أمير هنا؟!

وهو يشير إلى الغرفة حوله بيديه ثائرًا.

خفق قلب هاجر جزعًا من خشونة والدها، وأيقنت أن لا مفر اليوم من تأنيب وحديث لاذع، لم تبتغ أن تكر بهذه الطريقة، ولكن لهفتها على أمير أنستها طبيعة والدها.

اعتذرت باستحياء، والفزع يملأ قلبها من نظرات والدها الحادة، وتركتهما وابتعدت، حاولت التبسيط من اضطرابها متذكرة أمير وقلقها عليه، فرحيل أمير هذه المرة على غير عادته، دون وداعها ورغم علمه أنها تريده، يؤكد أنه عزم على الفرار منها، وتأكيد ظنونها أن شقيقها بهِ شيء، قلبها ينبئها، وعيناه المليئتان بالغموض تؤكدان على ذلك.

أخذت هاجر بعين الاعتبار وجود سمر، من الممكن أن يكون الأمر متعلق بها، فأمير لم يعد هو الشقيق الأكبر الذي تحبه وتعامله كأنه وليدها رغم أنها تصغُره، فهو الآن يملك حياته الخاصة التي لا يُحب أن يطلع عليها أحد، فيجب عليها أن تحجب تطفلها هذا، أمير السابق لم يعد موجودًا، آلمتها تلك الكلمات المردد عقلها لها، أمير كان شط ترسو عليه حين تشتد الحمم، والآن قد أصبحت وحيدة هي وأبوها المتسلط ووالدتها التي لا حول لها ولا قوة، وذلك المدعو «كريم».. كم تبغضه!

وجدت والدتها تأتي حاملةً أواني الغداء، طالبة منها المساعدة بتنظيف مائدة الطعام:

- لقد أُنهكْت، ساعديني يا هاجر.

لم يكن ينقصها سوى هذا الأمر، تجاهلت والدتها وأخذت تتسلق درجات السلم الداخلي، متجهة إلى غرفتها، قائلة:

- اطلبي من العاملين معكِ يا أمي، لقد أُرهقْت.

دلفت إلى داخل غرفتها، وتناست تمامًا طبيعة والدها وحرصه على أن تفعل والدتها كل شيء بالمنزل، ويمنع أن يكون للخدم دور بالطعام أو لوازمه، لكن غضبها لم يجعلها تفكر، حاولت تشتيت انتباهها عن التفكير بأمير.

أخذت جهاز اللاب توب الخاص بها.

تصفحت بعض المجموعات والصفحات بمنتهى الملل، لا شيء يستطيع انتزاعها من التفكير به، فهي ساخطة كثيرًا عليه، وحين كانت على وشك إغلاق حاسوبها جذبتها إحدى المقتطفات التي تحتوي على كلمة سيناء بإحدى المجموعات الخاصة بالمحافظة، يبدو أن أحدهم قام بكتابة تعليق، حتى يظهر بأول المجموعة.

عصير الكتب

المقتطفة تحتوي على بضع كلمات مؤلمة بشدة، شعرت بالوخز حين وجدت بكلماته ذلك الخوف والحزن والأسى:

«المنشور»

بتاريخ يوم 17 أغسطس 2013

«أعلم جيدًا أن هذه المجموعة تتناول حوادث سيناء وكل جديد يخص تلك المحافظة، ولأنني كلفت بالتجنيد على أرضها، أردت أن أقص عليكم بعضًا من سطوري ولا أعلم لماذا، ولعل هذا الأمر جيد لأشعر ببعض السلام. أنا أخوكم مصطفى حاصل على بكالوريوس تجارة، من مدينة الزقازيق، أنهيت تدريبي منذ أربع وعشرين ساعة وعدت لاستعد لتسليم نفسي بسيناء حيث تم تحديد خدمتي، عندما علمت أنني سأخدم هناك شعرت بالأسى، لأن لي عائلة، ليس لها سواي، منذ فترة ونحن نسمع عن الحوادث التي تحدث شبه أسبوعيًّا!

لا تتسرع بالحكم.. فأنا لست جبانًا، ولكنني أخشى عليهم، أخشى وحدتهم من دوني، أخشى احتياجهم وأنا بعيدٌ عنهم، لا أعلم ما هذه الدراما التي أعيشها منذ فترة طويلة! يبدو أن حرارة الجو أثرت في عقلي هههههه!

حقًّا منذ عزل الرئيس السابق محمد مرسي، وأنا أرى أن الحوادث تزيد والتفجيرات تكثر، اعذروني لجهلي وعدم إلمامي بالجزء السياسي جيدًا.

لكن أشعر أنني ذاهب إلى الهلاك لا محالة، فيوميًّا يقتلون المجندين بدم بارد كأنهم يقتلون فئرانًا، أقسم بالله أنني لست جبانًا، أنا خائف على عائلتيً التي لا تملك سواي، فالدم بالعروق أصبح باردًا، ماذا ننتظر بعد أن يترك الابن والده في أشد أوقات حاجته إليه دون أن يؤنبه ضميره ولو للحظة، أو تؤلمه أرحامه من اغتصاب حقوقهم عليه!

عصير الكتب

ماذا سيفعل معه أهل الدنيا الأغراب عنه، إذ يحملون أسلحة العداء، أنا مؤمن بالله وأعلم أنني لا أملك من المقدر والمكتوب شيئًا، وأن القدر سيحدث وكل شيء بيد الله، لكنني أشعر بالارتياع عليهم، أبتغي البقاء جوارهم، أفعل مثلما يفعل كل ابن وشقيق مخلص مع عائلته، هل تدعون لي؟! أريد دعوة صادقة من قلوب نقية ولكم مثل ما تمنيتم لي.. شكرًا لكم».

جذبها براءة كلماته، رأت تاريخ المنشور، رأت التعليقات، منهم من ذمَّه، ومن تطاول عليه، ومن طمأنه، وأيضًا شجعه، وكثير من الأدعية إلى الله أن يرده إلى أهله ويحفظه من كل سوء، ومن قال له أنْ يترك كل شيء لله تعالى ويطمئن، تتابع ردوده عليهم، وفتنها رقي جوابه، رغمًا عنها ضغطت اسمه، تسللت إلى صفحته، تأملت بعضًا من منشورات قليلة يراها العامة، وعلى فترات متباعدة جدًا، وجميعها في الغالب أدعية، وأحاديث ومواعظ، ضغطت صورته، ملامحه جميلة وأيضًا مريحة، عيناه سوداوان جذابتان، أهدابه طويلة، جبينه عريض وبه بعض المنحنيات التي تدل على شخصية حازمة، أنفه مستقيم، ذقن خفيفة، ابتسامة هادئة تضفي على ملامحه براءة طفولية، تناقض غريب بوجهه، جعلها تبحث بفضول داخل صفحته.

أخذها تطفلها، حتى أرسلت إليه طلب صداقة، دون إدراك ما تفعل! وهكذا يكون الشاب الأول بقائمة أصدقائها، غير أهلها وأقربائها المقربين.

وبعد دقيقة وجدت رسالة تأتيها.

❐❐❐

عصير الكتب

(3)

«حديث يشبه الظلمة، وصمت يشبه الجنة»

فليس كل الحديث مُحْيِيًا، كما أن ليس كل الصمت قَاتِلًا.

بعد أكثر من ساعتين سار خلالهما داخل أزقة البلد، لا يريد العودة إلى المنزل، ركن سيارته في فناء المنزل الفسيح وذهب إلى الداخل حيث سمر..

عندما خطا أمير إلى الداخل، صاح بصوت متكدر على الخادمة «فايزة» لأول مرة بعهد هذا المنزل يسمع جدرانه هذه النبرة من أمير:

- خذي تلك الأشياء.

وسريعًا ما بتر كلماته حين تطلع جيدًا إلى الداخل، ووجد أمامه سها وعيناها تحدق إليه، وتتأمل ملامحه ببشاشة، تنير وجهها، تواجهت عيونهما ووجدها تتجه إليه وبادرت بيدها للسلام عليه:

- أمير، كيف حالك؟!

تبدلت ملامحه للوهلة الأولى، وأمعن النظر إليها متسائلًا: «ماذا أتى بها الآن؟! حاول الحد من اقتضاب ملامحه، وصافحها مصافحة سريعة، يكاد يحق القول إنه ترك يده تلامس يدها فقط، وقال بحنق:

- بخير، متى أتيتِ؟

عصير الكتب

كانت تنتقل ما بين شفتيه وعينيه، تتأمل بِنْيته المعتدلة وأناقته المعهودة، وأمسكت مضطربة بطرف ردائها الأعلى، تعرق وجهها وهي تجيبه:

- البارحة، أول ما فعلته أتيت لرؤيتك، اضطربت حين وجدت بملامحه الدهشة، فأردفت: أنت وسمر.

برز من عيني أمير السخط، وقال وهو يشاهد المكان وكأنه يبحث عن شيء:

- حسنًا، أين سمر؟

- فايزة تحضر الأكل، و... سمر -قالتها بتثاقل- تُغير ثيابها وسوف تنضم إلينا بعد قليل.

أدام النظر إليها و إلى تحدثها عمَّن بالمنزل وكأنها تعيش معهم، وجودها يضايقه وهذا يبدو واضحًا على وجهه، زفر في ضيق، وانصرف بهدوء للصعود لتبديل ملابسه.

سها لم تقبل أن يذهب هكذا، والأسئلة تملأ عينيها فتساءلت بلهفة، هل سيكون لها الحظ الجيد بالغداء معه وهي تتمنى من قلبها أن يقبل ذلك:

- سنتناول الطعام معًا؟

رمقها بامتعاض، مما جعلها تضطرب، وحاولت أن تبحث عن كلمات تنجدها من هذا الموقف، قائلة:

- أشتاق إليكما.

مع ابتسامة هادئة تصاحب كلماتها.

قطع حديثها البليد، ذاهبًا بعيدًا عنها متسلقًا الدرج، وشعور الاختناق يجتاحه كلما اقترب من غرفة نومه، وجود سها بالمنزل يحبط من عزيمته وما يحمله من

حزن داخل قلبه كفيل أن يجعله يصرفها من منزلهما دون أن تطرف له عين، يدنو من غرفته، حيث سمر.

وعيون سها تحدق إليه إلى أن اختفى وسؤال يطرق بقوة داخل رأسها، هل هذا أمير؟! كيف ومتى أصبح غليظًا هكذا؟! ماذا يا تُرى حدث له، حوله بهذا الشكل؟!

❐❐❐

قرع أمير باب الحجرة بروية كما اعتاد ولم ينتظر إذنًا بالدخول، شعر بالحماقة لطرقه قبل الدخول، ما هذا التقليد السخيف الذي نشأ عليه، فليس الجميع يستحق الاحترام هناك من يجب أن يعاملوا بفظاظة عن استحقاق، اعتلى وجهه عندما وجد سمر تبحث عن شيء بعبث، ويبدو عليها الإرهاق وكأنها تبحث منذ ساعات دون كلل.

الغرفة ليست جيدة، وأمير يحب أن يكون كل شيء مرتب ومنمق، اغتاظ عندما وجد كل شيء مبعثر، سار نحوها بعد أن استقر بداخل الحجرة وأغلق الباب خلفه، مما جعلها تفزع محدقة إليه:

- أمير!

وضح على سمر الاضطراب وتورد وجهها بالحمرة، أخذت تبحث عن كلمات، ولكنها لم تفلح فوجوده شل عقلها وألجم لسانها.

لكن أمير تساءل بعينيه قبل أن يحرك شفتيه:

- عمَّ تبحثين، جعلكِ تدمرين الغرفة هكذا؟!

تشوش عقلها، شعرت وكأن أحدًا أمسك برأسها وزلزله شمالًا وجنوبًا وغربًا وشرقًا.

فلا تجد ما تبرر به ما تفعل ولكن مع إصرار عينيه على طلب الإجابة، كان عقلها يدبر الكذبة وقالت بصوت مرتبك:

- مـمم... لا شيء، فقط أحد قرطي أذني قد خسرته.

نظر إلى أذنيها وبالفعل لا ترتدى شيء بهما، ولكن منذ متى تبحث عن شيء بذاتها، لما لم تطلب من فايزة البحث عنه، تبدو غريبة ولكن سرعان ما تغاضى عن الأمر حين تذكر سها، أخذ ملابس جديدة بعد تعثره بضع مرات بالأشياء المبعثرة بالغرفة، واتجه إلى دورة المياه الملحقة بالغرفة، وعاد يحملق إلى سمر المتوترة من جديد:

- ماذا تفعل سها هنا؟

وجوده معها بالغرفة بهذا الوقت لم يجعل سمر تشعر بتغير أمير وعدم تقبيله لها حين دخوله، وأيضًا عدم إدراكها للجمود والحقد اللذين يملآن عينيه، لم تنتبه أنه لم ينادِها بقطعتي من الجنة، لم تلحظ تغيره، تحملق إليه بعينين ممتلئتين بالارتباك، حاولت إخماد توترها وتلفظت بالكلمات بصعوبة، قائلة:

- لقد انفصلت هي وعمرو.

كبح جماحه وامتلأت عيناه بالعبرات، ووقف وانتصب مكانه وتجمدت يده على موصد الباب، ونظر مرة أخرى إلى سمر بدهشة:

- انفصلت؟! لماذا؟! هل خانته؟!

فزعت سمر من شدة كلمته، من الذي يتلفظ بتلك الكلمة؟! أمير؟!

غير صحيح من المستحيل لفظ كهذا يصدر عنه، فهو أكثر الناس علمًا بأخلاق سها، ويعلم تمام العلم أنها أحبت عمرو حبًّا جنونيًّا.

نظرت إليه وهو يحمل ثيابه، وعيناه البنيّتان غامضتان بما يملأهما من ألغاز، وقد أدركت ما غاب عنها منذ عودته، رأت ما لم يسمح توترها برؤيته.

لم تر هاتين العينين يومًا هكذا، لأول مرة لا ترى بعينيه تسامحه، طيبته! أين ذهبت براءة عينيه؟! أين أمير؟! أين عناقه الحار حين يعود من الخارج وقبلته الحانية؟! أين كلمته الطيبة وحديثه المعسول؟! هل هذا أمير نفسه الذي طلب منها أن تنتظره بلهفة وحب في الصباح؟! ماذا حدث وجعله يتغير بهذا الشكل في تلك الساعات القليلة؟! تكهنت أن يكون حدث له شيءٌ في منزل والده عكّر صفو يومه وحوله هكذا! ولكن منذ متى يسمح لأحد بالضغط عليه فيصل إلى درجة أن يبدله؟! أمير يُعرف عنه عندما يكون مع سمر أنه شخصٌ لا يعرفه أحد ولا يتوقعه أيضًا بشر.

وحين وجدته يحدق إليها بنظرته الجامدة تلك، قالت بضيق:

- لا يا أمير، سها لا تخون.

فقال بشيء من الفلسفة، ونبرة تملأها السخرية:

- بالفعل، فالأرض ملاذ للبشر الأتقياء، فدائمًا هم صادقون، كيف لها أن تحمل على سطحها أناسًا خائنين؟!

فاحتدمت نبرة صوتها وقالت:

- أسلوبك حاد؟!

- سآخذ حمامًا.

- دلف إلى الداخل وأوصد الباب خلفه دون ترقب ردٍّ منها.

ظلت تنظر إلى باب غرفة المرحاض، متسائلة يا تُرى ماذا حدث لأمير، فمنذ تعرفت إليه لم تبصره يتحدث هكذا إطلاقًا، نظرت إلى الغرفة، تبدو مبعثرة

جدًا، تذكرت المفقود منها، لكن فكرت سريعًا ماذا يمكن أن يحدث قائلة بصوت هامس:

- أمير أخبرني أن حياتي السابقة ليست ملكًا لإحدٍ سواي، لم يتطلب توضيحًا.

وبالفعل هي لن ترهق عقلها بعد الآن، فليذهب حيث يذهب، بأعماقها ما ينبئها أن هذا أفضل، ورسالة من الله لنسيان الماضي، شعور بالامتنان يكسو مشاعرها المضطربة، بأنه لا داعيَ لوجود شيء يذكرها بما حدث سابقًا وما تحياه اليوم وستعيشه غدًا، يكفي عبئًا ومراوغة، من الجيد أنه فُقد يبدو أن قدرها اختار ذلك وهي تفضل دائمًا اختيارات القدر، يجب أن تقوم بترتيب الغرفة من جديد، كي لا تزيد من تساؤلات أمير، وأيضًا لكي تنضم إلى صديقتها.

❐❐❐

بعد أن أخذ حمامًا باردًا.. ارتدى ملابسه النظيفة، وقام بجذب شيء من جيب بنطاله المخلوع متأملًا إياه بثورة، تبدلت ملامحه كمن طُعِنَ بخنجر، ظل ينظر والدموع تملأ عينيه، كيف خيل إليه بأنه ليس هناك أحد أسعد منه بهذا العالم؟! وكيف اغتصبت منه تلك السعادة وهذا الشعور بكل قسوة ممكنة؟! لن يمكنه أبدًا تناسي ما حدث، ما يشعر به الآن لن يسامح أحدًا عليه، لن يتهاون حتى يأخذ حقه ممن جرحه بهذه القسوة وأذاقه تلك المرارة.

ترك ما معه على حوض المرحاض أمامه وخلع ثيابه من جديد بانفعال، وذهب تحت صنبور الماء وكأنه يحد بمائه البارد من سخونة رأسه، محاولًا إطفاء النار المتوهجة داخله، علها تخمد و يشعر بالسلام، ولكن هيهات، لن يعرف السلام قلبه من جديد، إلا إن قام بتلقين من عذَّبه درسًا لن ينساه.

❐❐❐

حضر مصطفى إلى المعسكر، حين دخل باغتته رهبة وطمأنينة في نفس الوقت، استلم فراشًا مكونًا من طابقين، استلم الطابق الأسفل، ودولابًا معدنيًّا صدئًا صغير الحجم، وضع حقيبته بإهمال بجانبه واستلقى على الفراش، وشرد.

نظرات من جانبه تترقبه في هدوء، شاب بمثل عُمر مصطفى، أسمر وجهه نحيف، هزيل جسديًّا، يملك ابتسامة مرحة ومنحنيات بوجهه تدل على بشاشته.

- أهلًا.

وقام بالتعريف بنفسه، قائلًا:

- أنا محمد، من أهل سيناء، أول يوم لي أيضًا بالخدمة، وأتمنى صداقتك ويؤنس كلًّا منا الآخر.

لانَت ملامح مصطفى بدوره وابتسم مجاملًا، ورد التحية في اختزال، فطلب الشاب التعرف إلى مصطفى، تنهد مصطفى واستعان بكلمات لبقة يعرف بها نفسه، شعر براحة في وجه الفتى رغم أنه لم يكن بحاجة لتلك المحادثة على الأقل بالوقت الحالي، بالكاد قال:

- مصطفى من الزقازيق، عسكري.

أراد محمد أن يستوضح أكثر، فوجه محمد لمصطفى سؤالًا:

- لماذا أصبحت عسكريًّا؟ وما مؤهلك الدراسي؟

مصطفى لم يكن يكثر من الحديث، وأسئلة محمد كثيرة لم يكن مصطفى بحاجة إليها، ثم ألح محمد بالسؤال:

- زميلي؟!

مما أجبر مصطفى على الإصغاء إليه، اقتضب مصطفى وهو يخبره:

عصير الكتب

- أنا خريج كلية التجارة.

- أنا أيضًا، خريج كلية الحاسبات والمعلومات، ولكن لماذا إذًا أنت عسكري؟! كان يجب أن تصبح ضابطًا بالجيش!

لم ينتبه مصطفى أن محمد أيضًا مثله في نفس المستوى التعليمي، لم يشغله دهشته في أثناء علمه أنه حاصل على مؤهل جامعي مثله، فلم إذًا اندهش محمد عندما قال إنه عسكري؟! لكن مصطفى كان بعالم مغاير، عقله هناك على بعد أميال بمدينة الزقازيق مع والدته تقدم له الوجبة اللذيذة، وتجبره على إنهائها، لمعت عيناه حين اشتهى وجبة من يديها، فالجوع يقرص أمعاءه.

أراد محمد جر مصطفى بالحديث، عندما وجد منه الشرود، قائلًا:

- كيف أتيت إلى هنا؟!

لكن مصطفى فضل الصمت وعدم التحدث، واعتذر بسبب شعوره بالإجهاد من الساعات الطويلة التي قضاها ليصل إلى سيناء، ومشقة الطريق التي أرهقته.

❐❐❐

بيت أمير وسمر فارهٌ وضخم، دومًا تراه سها منزلًا فاخرًا على سمر، وبأنها لا تستحق مثل تلك الرفاهية منذ ولدت، سها ميسورة الحال، تملك كل ما تطمح إليه فتاة في سنها، ولكنها دومًا ترى الأفضل منها سمر، تحقد على ما تملكه صديقتها ولا يمكنها الحصول عليه، فلماذا منذ ولدت سمر وهي بالقصور؟! أما سها ففي منزل بسيط، حتى إن كان شاسعًا وفاخرًا، فإنه ليس قصرًا مثل قصر سمر!

لماذا دومًا لديها أحدث السيارات وأفضل السائقين، أما هي وعائلتها فجميعهم

يتناوبون على سيارة واحدة؟! ظلت تلوم سمر منذ أن جلست مثلما فعلت طيلة حياتها.. على الرغم من أنها أجمل منها. فهي الأحق بهذا الثراء وليس سمر المعتدلة جمال.

سها بيضاء، رغم اكتسابها سمرة اللون من المناخ الذي عاشت به، عيناها زرقاوان، وجهها مستدير، ذات أنف صغير، شعر أسود، بشرة ناعمة، أنيقة دائمًا، تضيف إلى جمالها رقيًّا من نوعٍ خاصٍّ.

بعد وقت وجيز انضمت سمر إلى سها بغرفة المعيشة، والفضول يملأ عيني سها، وقالت:

- أين أمير؟

أشارت سمر بيديها إلى الدرج، وقالت إنه سينضم إليهما بعد قليل، لم تشعر سها بالراحة، صوبت عينيها إلى الأعلى منتظرة رؤيته، ولكن سمر قامت بسؤالها عن عمرو وما السبب الذي أدى إلى الانفصال، فعلاقتهما كانت جيدة، وترابطهما كان قويًّا مبنيًّا على المحبة منذ سنين الدراسة.

حاولت سها التملص من الإجابة، وجهّزت مبررها للهروب، متسائلة عن ما كانت سمر تبحث عنه:

- هل وجدتِه؟

فأجابتها سمر:

- لا، ولن أعود للبحث عنه مرة أخرى.

متابعةً.. إن أمير عندما تتوتر يشعر بتغيرها، وسوف يتساءل عمّا يحدث معها، وهي ليست ماهرة بالكذب عليه، فدومًا يكشف أمرها، مهما كانت سطحية الأشياء التي تخفيها.

عصير الكتب

توردت وجْنتا سها، وضاقت عيناها باقتضاب، حديث سمر لامس الجزء المتألم بها، شعور بالغيرة يتمكن من قلبها، فقالت بثورة:

- مخطئة يا سمر، كيف تكونين بتلك السذاجة، لماذا تستمرين بالاحتفاظ به؟!

وقالت بشيء من الخِسة:

- ألم يستطع أمير احتواءك بعدُ، أم ماذا؟!

انزعجت سمر من حديث سها، ولمعت عيناها بالعبرات والتأثر:

- أمير؟! وهل في العالم من هو أفضل منه؟!

ثم نهضت من مقعدها ومضت إلى إن وصلت إلى صورة أمير وهو يضمها بليلة زفافهما، ووضعت يدها على صدرها، وتغزلت به، قائلة:

- على العكس.. أمير أفضل ما قد يحدث بحياة المرء، أغلقي عينيكِ وتخيلي أنكِ وسط البحر والليل يخيم عليكِ والموجة قوية، ولا مفر من الغرق، ثم تُبعث لكِ من بعيد لؤلؤةٌ تضيء الظلمة حولك، حتى إنكِ تستطيعين الجزم أن الليل أصبح نهارًا، وبفضل تلك الجوهرة تستطعين الرؤية والنجاة حتى ترسي على الشاطئ، هذا أدق وصف يوصف به عزيزي أمير وتأثيره في حياتي.

وتطلعت مرة أخرى إلى سها وتذكرت ما ضاع منها وبعينيها دمعة تسيل على وجهها، لشعورها بالامتنان لوجود أمير بجانبها، وقالت:

- أما عمّا فُقد، فكما أخبرتك.. كان لمجرد الامتنان لما حصلت عليه مع أمير.

ارتسم على وجه سها بعض من الغيرة، فلم تعد تستطيع إخفاءها بقلبها، لم تَكشف سمر تَغَيُّر سها، و إن فعلت ولاحظتها سوف تبررها كعادتها بأنها مَحبة أو شيء يؤلم قلب سها وتتعاطف معها، وتابعت:

- لا أريد الضغط عليكِ، لكنني قلقة وأريد معرفة ما حدث معكِ أنتِ وعمرو؟

- سوف أخبرك، لكن ليس الآن.

- حسنًا عزيزتي، وقتما تريدين.. ستجدينني مصغية.

وأنصتتا معًا إلى صوت فايزة وهي تناديهما لتناول الطعام، ابتسمت سمر وهي تنظر إلى سها طالبة منها الذهاب إلى المائدة، لكن سها سكنت مكانها وحملت عيناها العبرات، قائلة:

- وأمير؟

قالت سمر ببراءة، وهي تبتسم في هدوء:

- سوف ينضم إلينا بعد قليل.

توجهتا نحو المائدة، وسها تتابع الدرج بتمني أن ينضم إليهما أمير سريعًا.

❐❐❐

انقلبت تعابير وجه هاجر عندما اطلعت على محتوى الرسالة ووجدتها من كريم، غمغمت وهي تردد كلماته: «عزيزتي لقد اشتقت إليكِ، أخبري العائلة أنني سأكون بسيناء بعد شهر من الآن، وسوف نتمم كل شيء، سلامي للجميع، و إن أردتِ شيئًا راسليني، فأنا أتيت إليكِ بأشياء رائعة من هنا، أتلهف أن أراكِ بها».

تجهمت وبدا عليها انفعال شديد، أغلقت الحاسوب حتى كادت تحطمه، وعادت مرة أخرى إلى الأسفل لترى ما يحدث، محاولة عدم التفكير به، ولكن ليتها ما فعلت، فحين ذهبت تبحث عن والدتها، سمعت صوت والدها، وهو يقول:

عصير الكتب

- هـاجر!

تجمدت حيث هي، فكلما سمعت صوته تسلل الذعر إلى قلبها، التفتت بهدوء متسائلة عما يريد، فطلب رؤيتها بحدة، ورجع مرة أخرى إلى غرفة الضيافة، جالسًا على مقعده المُعتاد، ذهبت هاجر وراءه، جسدها يرتجف، جلست على المقعد المقابل له، والوجوم يخيم على الغرفة وبعد دقيقتين صرح قائلًا:

- هل كان ما تريدينه من أمير مهم لدرجة أن تهرولي بتلك الطريقة وتقاطعيني أنا وعمك؟

استنبطت على الفور أن والدها ساخط جدًّا عليها، وأن ما ينتظرها سوف يجرحها ويؤلم قلبها، فهي تعلم أن والدها يتفنن بجرح مشاعرها، كلما سنحت له الفرصة بسبب شيء ليس لها ذنب به.

تحدثت باضطراب، حاولت السيطرة على ارتجافها لكن لم تستطع، فانبثق الكلام مشوشًا، معتذرة مما بدر منها محاولة بتر ما سوف يحدث، ليتها ترتدي طاقية إخفاء وتختفي من أمامه الآن، لو بإمكانها منع هذا الألم الوشيك أو انتشال حاسة الإحساس من داخلها، ولكن اعتذارها لم يكن كافيًا، لم يهدئ من حنق والدها، بل زاد من استهجانه، فاستفسر عن سبب اعتذارها إليه، إذ لم يؤنبْها بعد.

- لماذا تعتذرين، وهل ارتكبتِ خطأً؟

توردت وجنتا هاجر توجسًا، وأيقنت أنه لا مفر من سماع بعض الكلمات المؤلمة، فأضافت بتوسل:

- نعم يا أبي أنا أخطأت بدخولي المفاجئ، سامحني.

- أنتِ لست صغيرة لهذه التصرفات الساذجة الحمقاء، حاولي أن تتعاملي بناءً على ذلك، مثيلاتك الآن معهن من الأولاد اثنان وثلاثة.

عصير الكتب

كانت متيقنة أنه لن يفوّت تلك الفرصة دون تأنيبها، وكأنه ذنبها أنه لا يقبل بزواجها من خارج العائلة!

ما ذنبها أن كُل أفراد العائلة يصغرونها سنًّا، والمناسبون إليها تزوجوا من أخريات؟! ما ذنبها أنه يرهب فكرة أن تتزوج شخصًا من غير العائلة؟! ما ذنبها كي يستمر في جرح مشاعرها كلما تمكن من فتح باب الحديث وتوبيخها؟! ألا يكفيه أنْ قبلت بكريم من أجله، وتجمعت العبرات بعينيها، وقالت:

- حاضر، أنا آسفة.

- أتمنى أن يكون أسفًا حقيقيًّا، ولا تكرري تصرفاتك الطفولية تِلك.

- حاضر، بعد إذنك.

- أحضري لي كوبًا من الشاي.

خرجت مسرعة قبل أن تخضع لذرف الدموع الساكنة بعينيها، وقالت:

- حاضر.

❐❐❐

محمد وهو نائم مقابلًا لمصطفى، لم يعتد أن يصمت طيلة هذه المدة، تأفف حين وجد من مصطفى الحزن والسكون لوقت طويل، نظر إليه وهو يحملق إلى سقف المعسكر، وأفصح قائلًا:

- هل سنخدم اليوم؟

تنهد مصطفى وهو يؤكد لمحمد بكلمات بسيطة:

- بالتأكيد سنفعل، نحن بالخدمة ولسنا برحلة.

عندما وجد محمد من مصطفى التجاوب مع سؤاله حاول أن يجاريه في الحديث

كي لا يصمت من جديد، وأخبره عن الضباط هنا وكيف أنهم يتعاملون على أنهم الأفضل، على الرغم من ذلك فهو لا يندم على خدمته كعسكري، أقصى ما يرجوه الآن أن ينتهي سريعًا من خدمته ويعود إلى حبيبته ويتم عقد قرانهما، ولكن مصطفى لم يجارِهِ بالحديث مما أهبط من عزيمة محمد، وزاد من مللِه، فسكون مصطفى مبالغ به، فتعلل متسائلًا:

- لماذا يا مصطفى أشعر بأن وراءك لغزًا؟

تنهد مصطفى بعمق، وحملق بشرود من جديد إلى الحائط، ليرى والدته وهي تجلس وأيضًا شقيقاته يشاهِدْنَ التلفاز، ومحمود بجانبهن يلعب بلعبة صغيرة على الأرض، ولم يتحدث.

تأمله محمد ولاحظ شروده ولم يحبذ أن يشعره بالضيق، وجنح هو أيضًا بعالم آخر، يفكر بحبيبته، ابنة عمه شروق، ورجاء داخله أن تتم هذه الخدمة على خير.

❐❐❐

عصير الكتب

(4)

«لا يكون الخطأ عقابًا على أفعالنا دومًا فأحيانًا يحدث نتيجةً لما لم نفعله»

رد فعل أمير في أثناء انضمامه إلى سها وسمر على الطعام غريب، فلم يرحب بِسُها، مما أثار استياء سمر، كيف يقلل من صديقتها ووجودها هكذا؟! هذا يعتبر عدم محبة لها، ولكنها لم تقف عند الأمر طويلًا، غموضه كان أكثر ما يشغل تفكيرها الآن.

طلبت سمر من أمير أن يتناول بعضًا من الطعام محاولةً لَفْت انتباهه لوجودها:

- عزيزي.. تناول القليل.

- معذرةً، عزيزتي سمر، لست جائعًا، فهذا وقت الفطور وليس الغداء لنا.

انزعجت سمر من فظاظة أمير التي لم تشهدها يومًا به، لكن وجود سها أرغمها على الاختزال والتغاضي عن الأمر مؤقتًا، وطلبت منها تناول الطعام، في حين ظلت سها تُراقب أمير في سكون، وهو أيضًا يتابع نظراتها، أخذت سمر قطعة من اللحم وقامت بتقطيعها لكنها لم تستطع تناولها، وأخذت من جديد طبق الشربة، وأخذت ترتشف منه، في حين أردف أمير:

عصير الكتب

- آسف يا سها، أردت الانضمام إليكِ على الطعام خصوصًا أننا نراكِ بعد غياب، ولكنني حقًّا لا أستطيع تناول شيء.

ابتسمت سها لكلماته الحانية وتورد وجهها فرحًا، مع ابتسامة رضا اعتلت وجه سمر لحديثه الرقيق، فهذا هو أمير عزيزها، ورسمت ابتسامة هادئة وارتشفت الحساء في هدوء.

حملق أمير إلي سمر ببشاشة، كمن يقصد إزعاجها، وأردف:

- سمر يبدو أنكِ لن تتناولي سوى الشربة، حاولي على الأقل تناول الطعام من أجل صديقتك، أم أنكِ لا تريدين لها تناول الطعام بمنزلك.

تجهم وجه سمر لكلماته، الآن أصبحت متيقنة أنه منزعج من شيء، أمير لم تعرفه فظًّا هكذا، وأيضًا هو أكثر شخص يعلم أنها لا تستطيع تناول الطعام بهذا الوقت المبكر، أفصحت قائلة، في حين كانت سها على وشك التحدث:

- سوف آكل قدر استطاعتي، وسوف أتناول الطعام معك مرة أخرى.

ومزحت كي لا تشعر سها بالحرج، متابعة:

- أنني أعمل على أن أتناول الطعام مرتين عزيزي.

رمقها أمير بابتسامة مؤكدًا لكلامها، مع تتبع عينا سها لهما، ولطريقة تأمل كِلَيهما الآخر، وما لمسته من روح مرحة وثقة داخل سمر لم تحصل هي عليها، وامتلأ قلبها بالبُغض، وأسرعت بالتحدث قائلة:

- كم أنت رائع!

ونظرت لسمر التي تتابعها بنظراتها، وتابعت:

- جمعك الله دائمًا أنت وسمر.

مع إنهاء جملتها بابتسامة رزينة. فأشادت سمر متغاضيةً عن اغتياظها منه:

- شكرًا عزيزتي، فهو أفضل شيء في هذا الكون.

قرَّب أمير يده من يد سمر، وضغط بيديه يديها بهدوء مع ابتسامة طفيفة على شفتيه، مما زاد حنق سها عليهما.

شعرت سمر بالسعادة لتلامس أيديهما، لكن قلبها ما زال يؤكد أن هناك تغيرًا ملحوظًا بعزيزها أمير، وكأن هناك ما أخذ جزءًا منه فحوله إلى شخص آخر، سوف تحاول معرفة ما يحدث، ولكن بعد ذهاب سها.

❐❐❐

التقط محمد هاتفًا صغيرًا قديمًا، من تحت وسادته، وقام ببعث رسالة تحتوي على:

«إنني أفتقدك كثيرًا، أفتقد صوتك، طيبتك، رقتك معي، روحك الدافئة، أفتقد قلبك الذي يحتويني بلهفة وخوف، متى نكون معًا ولا نفترق أبدًا من جديد، أحبك شروق».

أرسل الرسالة، وأعاد مرة أخرى الهاتف مخفيًا إياه تحت وسادته، مختلسًا نظرة على مصطفى المستمر بالنظر إلى الأعلى، وقال:

- صديقي.

لم ينتبه مصطفى له، مما جعل محمد يكرر مناداته، تطلع به مصطفى يستنبئ عما يريد:

- نعم؟

أراد محمد أن يصادقه، تلك الوحدة ستقتله، فسأله عن عائلته، فأوضح مصطفى أنهم بخير ولكنه قلق على والدته وشقيقتيه ولم يطل الحديث أكثر، مما أثار

الريبة داخل محمد، لماذا وأين والده، فأراد أن يسأل ولكن خشي من رد فعل مصطفى، ولكنه لم يستطع بتر أسئلته، فقال بشيء من التردد:

- هل يمكنني أن أسأل أين والدك، دون أن تعُدَّني متطفلًا.

نهض مصطفى وجلس مقابلًا له، وعلم أن محمد لن يتركه لخلوته في البداية أراد أن يخبره أنه لا يحب الاختلاط، وبأنه حقًّا متطفل ويشعر بالضيق منه ومن قطع عزلته كل قليل وبأنه يعشق الوحدة أكثر، ولكن حينما أدام النظر إليه لم يستطع جرح مشاعره، فيبدو عليه الطيبة وعينيه تبعث براءة نادرة لم يشاهدها منذ كان طفل صغير، فلم يشعر سوى بنفسه وهو يتحدث، وتنهد بأنين يمزق روحه، لو للروح أن تحدث صوت، لهلع محمد من هول التأوه الذي تصدره الروح داخل جسد مصطفى، وصوب النظر إلى عيني محمد، وأردف قائلًا:

- والدي موجود، ولكن مجرد روح وجسد، أكثر من سنتين ووالدي ملازم الفراش، بسبب حادثة لشاب متهور مات الشاب وبقى أبي ينازع البقاء، كانت الإصابة أولًا بالعمود الفقري وشلل بجسده كاملًا، وبالتدريج، ولحزن والدي على حالته فُقد النطق أيضًا.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، أنا آسف.

عاد مصطفى مرة أخرى ينظر إلى الأعلى وتابع:

- لكنني لست آسفًا، حادثة والدي كانت السبب أن أتغير إلى الأفضل، فأنا لم أكن هذا الشاب الذي تراه أمامك الآن، طلباتي كانت كبيرة وكثيرة جدًّا، حالتنا المادية ميسورة جدًّا فكنت أطمع دومًا لنيل مزيد، كُنت أعيش ببذخ ولا يعنيني من حولي، فأنا بالمقدمة ومن بعدي كل شيء، كنت أهتم كثيرًا أن

لا أرتدي نفس الثياب يومين متتاليين، ويجب أن أقود عربية فارهة، أن يحتوي جيبي على مبلغ كبير من المال دومًا، السهر بالخارج مع رفقاء السوء مع الأسف، لم أهتم يومًا بتعب والدي بالعمل ولا كيف يدبر شؤون البيت.. إلا عندما قُمت أنا بتولي كل شيء، وكانت أشد أوقاتي عجزًا عندما تطلب والدي عَمَلَ عمليةٍ كبيرةٍ، ولم يكن يتوافر معنا بالبيت السيولة الكافية.. ولم يكن أ...

توقف مصطفى عن الحديث، وعينا محمد تتابعانه بشغف، وطلب منه أن يتابع، لكن مصطفى شعر بالضيق، ولم يستطع المتابعة!

لهفة محمد لمتابعة مصطفى الحديث كانت ترغمه على المواصلة، ولكنه عندما حاول المتابعة شعر بالاختناق.

فقال محمد: أكمل.

أغمض مصطفى عينيه قبل أن تذرف الدموع، ويظهر ذلك الوهن الذي يمقته، يرفض ما يدور داخله كلما تذكر تلك الأيام، وكيف تحولت شخصيته الصلبة والصارمة، كيف أصبح هزيلًا خائرًا إلى هذه الدرجة؟! يتذكر حين كان الكُل يخشاه ويرهب التحدث معه، ويحترسون من بطشه ومعاملته الخشنة، وقلبه الذي لم يكن يهاب شيئًا ولا يفرق معه أحد، هل الخوف على أعزائنا يحولنا بهذا الشكل؟!

محمد وجد مصطفى يغمض عينيه ويغفو في سلام، خشي أن يسأل مرة أخرى أو يطلب منه أن يستمر بالحديث ثانيةً، خوفًا أن يشعرَه بالضيق، فاستسلم بدوره للارتخاء على فراشه بعد أن خطف نظرة سريعة على هاتفه ليرى هل بعثت إليه شروق ردًّا على رسالته أم لا.

❐❐❐

بالطابق الثاني بمنزل هاجر توجد شقة عمها وعائلته الصغيرة المكونة من شروق ووالدتها وعمها، وفي غرفة بالطابق السفلي من الشقة، تنام شروق على أريكة الجلوس وهي تتناول كتاب بيدها منغمسة بالقراءة مع انسياب يدها اليسرى بين خصلات شعرها.

سمعت شروق صوت الهاتف يعلن عن استلام رسالة جديدة، وفي ذات اللحظة صوت باب المنزل يُطرق، أسرعت نحو الباب لترى من بالخارج، وحين وجدت والدها، ابتسمت قائلة:

- كالعادة، أضعت مفتاحك، أليس كذلك؟

وضع يده على كتفها، ومزح معها بأن هذا الطبع به، ولن يتغير مهما حاولوا، قالت مازحة:

- هاهاها، أعلم جيدًا أنك لن تتغير وأمي أيضًا مثلك، أما أنا.. -ورفعت ذراعيها إلى أعلى- يجب أن آخُذ جائزة أفضل واعية.

نظر إليها والتعب يأخذ من جهده، وأردف أنه ليس بقادر على مزحها اليوم، فعمها كفّى ووفّى من مراجعات وحسابات، ودراسة للمشروع الجديد، واستعلم عن والدتها، فأخبرته أنها تُعد الطعام لهم، فقال:

- لكنني تناولت الطعام، حسنًا على كُل حال أخبريها أنني عُدت وسوف أرتاح بغرفتي قليلًا، واطلبي منها أن لا ترهق نفسها وتترك الخدم يعملون، فهي ترهق نفسها كثيرًا بالمنزل.

فقالت ببشاشة:

- حاضر.

ذهب الوالد إلى غرفته، توجهت شروق إلى هاتفها تتوق إلى أن ترى ما بُعث

من أجلها، وكان مثلما توقعت، رسالة تحتوي على حروف مشتعلة من محبوبها محمد، كعادة كل مرة تقرأ كلماته تلامس حروفها دقات قلبها فتتوهج مع كل حرف تلمح، كيف استطاع محمد أن يستولي على قلبها ببراعة منذ أن تلاقت عيونهما في الصغر ليعلما -سريعًا- أن كليهما قد خلق للآخر، ابتسمت وأخذت هاتفها داخل أحضانها وأسرعت إلى غرفتها بالأعلى، دون إخبار الأم بشيء، فقط أسرعت بالاختباء داخل غرفتها، مستوية داخل فراشها، تقبل هاتفها بكل حُبٍّ، واستوت من جديد جالسة بالمنتصف، وبدأت تكتب حروف تلمس قلبيهما معًا في حين قاطع لحظتها تلك رنين الهاتف بيدها.

❐❐❐

اتصلت هاجر بشروق كي تتلاقيا بالأسفل، داخل حديقتهما الصغيرة، تحتاج إليها ولم تتأخر شروق عنها، بعثت برسالتها إلى محمد ونزلت بدورها سريعًا إلى الأسفل، وحين رأت هاجر تجلس وحيدة والدنيا ظلام أشعلت الضوء، وحين اقتربت من هاجر وجدت بعينيها الدموع، تملأهما، اقتربت بمودة:

- هاجر!

حين سمعت هاجر صوت شروق وشعرت بلمسة يدها على كتفها، أسرعت الدموع تتدفق من عينيها، نهضت هاجر من أجلها وألقت بنفسها داخل أحضان شروق وقالت وهي تنازع الكلمات:

- إلى متى سيعاقبني على شيء لم يكن لي ذنب بِه؟! ألم يكفِ أنني قبلت بكريم رغم فرق السن بيننا ورغم عدم استلطافي له؟! ولكنني على كل حال قبلت، ما ذنبي أن أُلام كُل يوم على شيء لا ذنب لي به سوى أنه يخاف على ثروته؟! يخاف عليها من الضياع أكثر من خوفه علينا -نحن أبناءه-! هل تتذكرين يوم زواج

عصير الكتب

أمير، وكيف كان ينظر إليَّ وكأنني وصمة ألطخ العائلة بوجودي؟! حتى أمير لم يَسلم منه فأجبر على رؤية سمر، ولم يكن له الحق بالاعتراض، ولكن حمدًا لله لقد ساندته رب العالمين ووفق قلبيهما لبعضهما، أما أنا.. فكل يوم يرفض متقدمًا! لماذا؟! لأنه يخشى على ضياع ثروته! هل ثروته أهم من مشاعري وحياتي؟! هل لأنني رضخت وقبلت أن أحيا هذه الحياة المهينة، أن يملك الحق كل يوم بإهانتي و إذلالي؟! ما ذنبي أنني ابنة هذا الرجل؟! أخبريني!

❐❐❐

عضت شروق على شفتها السفلى بأسى، حاولت إيجاد كلمات لتهون على عزيزتها هاجر، حاولت تهدئتها والحد من صوتها، خوفًا أن يستمع إليهما أحد ويعلم العم، فالكل يعلم مدى صعوبة قوانينه، أخذت بيد هاجر وأجلستها على أريكة تحت إحدى الأشجار الصغيرة، وحولهما الورود من كل صوب وحدب، وقالت:

- هل يمكنك الهدوء الآن؟

- لا أستطيع، فلولا إيماني وخوفي من غضب رب العالمين علي.. لكنت انتحرت.

- انتحرتِ؟! وتموتين كافرة؟! هل تعلمين أن من يقتل يبعث على ميتته؟! هل تريدين أن ينظر إليكِ ربك وهو غاضب عليكِ؟! ألا تتحملين آلام الدنيا الصغيرة تِلك، من أجل يوم يراكِ الله؟

تنهدت هاجر بلوعة، فهي تعلم كل ذلك، وهي نادمة على كلمتها تلك، ولكن كيف لها أن تنفث عن غضبها سوى بالكلمات؟! شعرت بالاستياء من ضعفها هذا وقامت بتجفيف عينيها، معلنة عن سكونها.

عندما وجدت شروق من هاجر الهدوء تحدثت عن كريم، قائلة:

- لا أعلم لماذا أشعر أن كريم سيكون المرسى الذي ستجدي بِهِ راحتك ومكافأة رب العالمين لكِ ولصبرك.

لكن هاجر شعرت بالاستياء من حديثها وتهكمت عليه، وأردفت:

- ما كريم؟!

شروق تعلم بأنه تقدم لهاجر نزولًا على رغبة والدها فكل العائلة تعلم أن والد هاجر قام بإجباره على الزواج بها، وقالت باستهزاء:

- طلبني!

أُحرجت شروق من كلمتها، وشعرت أنها لا تفعل شيئًا سوى زيادة آلام هاجر، فجاهدت للخروج من الموضوع والتحدث بشيءٍ آخر كي يغير مسار ما قد سيؤول إليه الحديث، فالتقطت زهرة صغيرة من على الأرض، ونهضت من جديد بالجلوس بجانب هاجر، وقالت:

- الله! لقد تفتحت الزهرة.

أفاقت هاجر على صوت صخب شروق، وتبسمت رغمًا عنها وهي تراها تجلس جانبها، وعلى وجهها ابتسامة الأطفال، وقالت:

- زهرتي، لقد تفتحت فعلًا.

وتناولتها من شروق بمنتهى الفرح:

- رائعة حقًا.

لمحت شروق بعيني هاجر البسمة وحنت على كتفها بحُب، قائلة:

- أرأيتِ، هذه إشارة إليكِ أن حياتك ستصبح بجمال تلك الزهرة، فلنصبر قليلًا عزيزتي، قليلًا فقط.

- هل تظنين؟!

- راجيةً كرم الله، تعشَّمي بهِ خيرًا.

وأشارت شروق إلى قلب هاجر وقالت:

- هذا القلب يجب أن يفرح، هذا أمر لا مفر منه.

مسحت هاجر دموعها، وابتسمت مازحة، وسألت شروق عن أحوال محمد، وكيف أحواله، هل استطاعت الاطمئنان إليه، فتورد وجه شروق ولمعت عيناها، وأخذت نفس متأجج وزفرته بوله، مؤكدة:

- بخير، ولكنني اشتقت إليه، متى يعود؟!

- هاهاها قريبًا ولكنه لم يغب بعد، لقد رحل اليوم فقط.

زادت حمرة وجنتي شروق، وأردفت خجلًا:

- اشتقت إليه وبعثت إليه برسالة ولكن يبدو أنه لم يراها.

علاقة محمد وشروق محببة إلى قلب هاجر، تشعر معهما بالسعادة، تزداد دقات قلبها كلما شعرت بالحب بينهما، تمنت كثيرًا الحصول على حياة مشابهة، وحين مات الأمل عاشت معهما قصة حبهما، صداقتها وحُبها لشروق يجعلها سعيدة لها ومعها.

❐❐❐

تأخر الوقت وسكون الليل أقبل، وسها ما زالت تجلس مع سمر وأمير، نظرات أمير متكلفة وغير صادقة، تلاحظ سمر برودة كلماته، ونظراته الجامدة، وعلى الرغم من اشتياقها إلى سها.. فإنها ابتغت أن تذهب، كي تستوضح ما يحدث معه.

سها وسمر تجلسان معًا تتحدثان بأمور سيناء وآخر حادثة كانت بها تحديدًا، وسها تترقب أمير وهو يجلس على حاسوبه على بعد خطوات منهما.

فجأة أغلق أمير حاسوبه ونهض وهو يتثاءب، وسمعت صوته معتذرًا كي يذهب إلى غرفته وتيركهما معًا لتجلسا في هدوء وتستعيدا أيامهما الماضية.

غضبت سمر من أمير، فهي تريد الجلوس معه هو، وأعانها صوت سها عندما طلبت الرحيل، فشعرت سمر بالارتياح:

- يجب أن أذهب، لقد تأخر الوقت على كل حال.

- ابقي مع سمر.

وخطف نظرة سريعة إلى سمر، التي اعتلى وجهها نظرة غاضبة، وأكمل:

- أكيد يفتقد كلاكما الآخر.

قالت سها:

- هذا حقيقي، ولكنني لم أشعر بالوقت يسرق منا هكذا.

رغبة سمر بذهاب سها لم تجعلها ترى ما هو واضح أمامها، أن وجود سها كان مرتبطًا بوجود أمير، ومع غيابه ستغيب.

عرض أمير بلطف أن يقوم بإيصال سها بسيارته، ففرحت وتورد وجهها، وقالت على عكس ما تتمنى:

- معي سيارتي بالخارج أشكرك.

- حسنًا.

استأذنت سها بعد أن طبعت قبلتين على وجنتي سمر، ومدت يدها لتسلم على أمير، وحين قام بمصافحتها.. شعر برعشة تسري بيدها انتقلت إلى يده، مما

جعله يعمق نظرته بعينيها، حينها قرأ ما شعره عند لمسة يدها، سقط أمير فريسة بين ذلك الإحساس الذي انتابه وبين ذلك التناقض الذي كانت تُبديه، كيف يمكنها أن تفعل ذلك بحبيبته سمر، بدد شروده صوت سمر وهي تودع صديقتها في أثناء ابتعادها عنهما.

ضجيج داخله، هل يمكن أن يكون ما وجده من سها حقيقيًّا؟! هل يمكنها فعل ذلك؟!

استمر تساؤله والوسواس يفتك بعقله، إلى أن جاءت سمر وتشابكت الأيدي برقة والاشتياق إليه يفتك بغضبها منه، قائلة:

- عزيزي!

وعبس وجهها عندما التحمت الأيدي، وبعدت عنه بحنق:

- لا، أنا غاضبة منك، من هذا الشخص الذي رأيته اليوم؟!

نظر إليها مبتسمًا، دومًا شقاوتها تثير مشاعره، قام بحملها على غفلة، مقبلًا وجنتها، وصعد الدرج وهو يردد:

- سوف أراضيكِ.

أحاطت بيديها رقبته، واضعة رأسها على كتفه، وتناست تمامًا جفاءه الذي عاصرته ليوم كامل، وكيف يمكنها الغضب من أمير؟! وبأي حق يمكنها الحنق عليه؟! فهي تتمنى دومًا أن تعيش معه بسعادة، لا تتخيل حياتها للحظة واحدة من دونه ولا تشعر بالوجود إلا حين حضوره.

بعد أن صعد بها ألقاها على «الفراش» مقبلًا إياها بشغف، وابتعد ليبدل ملابسه، قام بخلع قميصه وحين هم ليخلع بنطاله لامست يده ما كان يخبئه في جيب بنطاله!

وفجأة ضاقت عيناه وتحولت نظراته الرقيقة إلى نظرات غاضبة، وقام بالاقتراب من سمر، وقام بخلع ثيابها عنها بكل عنف، ولم يستمع إليها وهي تخبره أنها تتألم، لم يشعر بذراعها التي جرحت بمحبسه، لم ينتبه لتوسلاتها أن ما يفعله يؤلمها، حاولت الفرار منه لكنها لم تستطع، بعد أن أنهى الفتك بجسدها، استلقى جانبها واضعًا رأسه على الوسادة، وشعور بالراحة داخله يصاحبه ابتسامة راضية على وجهه، لكن سريعًا ما تلاشت ابتسامته حين نظر إلى سمر ووجدها باكية، وبعينيها الكثير من اللوم، وقتها أحس بالنار تشعل داخله، لا يعلم كيف فعل ذلك! ما الذي يحدث له، أسرع من جانبها إلى الحمام، لم يستطع أن يرى نظراتها المتسائلة، فقط هرب بعيدًا، وهي نائمة تتساءل: هل ما حدث هذا.. حقًّا حدث من أمير؟! هل هذا الوحش كان أميرها أمير؟! لا هذا كابوس واقعي عاشته، أمير ليس هكذا، أمير.. صنعت الرقة منه، تتعلم منه الطيور كيف تغرد بعذوبة، ما الذي حدث له؟! ماااااذا...؟! أسئلة لن يجيب عنها سواه.

❐❐❐

خرج مصطفى ومحمد كي يتناوبا على مكان خدمتهما، وحين قبعا بالمكان المحدد، تحدث محمد بحنق قائلًا:

- هل علمت بحادثة الأولاد المجندين الذين قتلوهم على الطريق؟

هز مصطفى رأسه بالإيجاب وأضاف إليه:

- أنا لا أقلق من الموت فمن الممكن أن أموت وأنا نائم ولكنني أريد فقط العودة إليهم، أطلب فقط من الله أن يطيل عمري من أجلهم.

أكد محمد أنه لن يحدث شيء، فهو موجود وعائلته أيضًا لن يتركوهم يحدث

عصير الكتب

لهم شيء، فليطمئن، وذهب الاثنان يجلسان أمام إحدى المزارع الخاصة بالجيش لحراستها.

❐❐❐

ظل أمير يتأمل تلك الصورة المطبوعة أمامه على المرآة.. وملامح الأسى والندم بادية على وجهه.. ومتسائلًا عمّا ألمّ به؟! وأين هو؟! تحدث بصوت خفيض متألمًا:

- أين أنا يا انعكاسي؟! مرسوم داخل مرآتي شخص يشبهني، ولكنه ليس أنا! تلك العينان ليستا عينَيَّ، داخلي شجن تمت حياكته مع منحنيات ملامحي، أين ذهبتُ مني، أين أنا يا شبهي، قل لي.. إلى أين أخذتني؟!

ضرب حوض الوجه بعصبية لتصطدم يده بالمياه المنسكبة، وصرخ صرخة مكتومة:

- ماذا يحدث لي؟!

❐❐❐

يقف مصطفى متكئًا على السور الذي يحرسه من الخارج وبجانبه محمد، الجو هادئ وسكون أول الليل يزيده هدوءًا.

يجلس الاثنان كلٌّ منهما يفكر بما يشغله محمد وهو ينظر إلى مصطفى الشارد، قال:

- الجو حار جدًّا.

ابتسم مصطفى وهو يتنفس الهواء الساخن، وقال مازحًا:

- إن كنت لا تستطيع مسايرة هذا الجو ماذا نفعل نحن؟! أمرك عجيب!

عصير الكتب

ابتسم محمد حين وجد ابتسامة مصطفى ومزحه معه، شعر بأنه نجح أخيرًا أن يخرجه عن صمته، وتابع:

- لا، أنت تخطئ الفهم، أنا بمنزلي لا أخرج سوى بالسيارة مبردة الهواء والبيت هكذا، لكن هذا الجو يشبه الجحيم عن حق.

- ربنا كريم يا صديقي...

وبدأ يهون على نفسه و يبث في قلبه الأمل والرضا، مضيفًا:

- هي مجرد أيام ونعود إلى حياتنا، و إلى من نحب، اطمئن.

ابتهج محمد حين سمع كلمات مصطفى، حقًّا من الممكن أن تكون أيام قليلة و يتزوج شروق؟! ولكن فليرها أولًا، لم يلمحها لمدة يوم واحد و يشعر بأنه لم يقابلها قط، تأمل مصطفى الذي بدأت ملامحه تأخذ منحنى الصمت والشرود مرة أخرى، فأسرع بالتفكير كيف ينتزع مصطفى من جديد من بؤرة كربه، فتذكر شروق وحلمه بالزواج بها، فقال في عجلة:

- صحيح، هل لديك حبيبة؟

قال محمد هذه الكلمات بلهفة جعلت مصطفى يلتفت نحوه بشيء من الدهشة، في حين استطرد قائلًا:

- لا، ولن يكون قبل زواج شقيقاتي وانتهاء تعليم شقيقي محمود.

- شقيق، لا أتذكر أنك قلت شقيق.

- محمود هذا ابني ليس شقيقي فقط، هو بالصف الأول الابتدائي.

استعبر محمد وهو ينظر إلى الفضاء أمامه وتذكر حديث مصطفى عن والده وبأنه العائل الوحيد لهم، وألِف الأمر ثم عاد مرة أخرى ونظر إلى مصطفى وقال:

- صحيح، لماذا لم تطلب إعفاء من الجيش ما دُمت العائل الوحيد لعائلتك؟!

صمت مصطفى واعتلى وجهه العبوس والغضب وضغط بقوة يديه، وشعر بالسخط على أيام تذكرها..

لاحظ محمد معاناة بتعابير وجه مصطفى فخفق قلبه خوفًا أن يكون تسبب له بطرق ألم دفين، وألهبه.

واصل حديثه وهو يتأمل وجهه، رغم أنه أراد معرفة ما سيقوله، فإنه قاطعه بالسؤال عن خليلته كي يعفيه من معاناة التحدث بأمر يبدو أنه يؤلمه، وأردف:

- مصطفى لقد قلت لي إنك كنت شابًّا مستهترًا، وتفعل كل شيء يفعله الولد المستهتر، هل بحياتك تلك لم تقابل الحسناء التي تخطف قلبك؟

زفر مصطفى بشعور مصاحب بالراحة، حين تحدث محمد، وقال وهو ينظر إليه:

- بلى، لكنها ذهبت أيضًا، داخل دوامة الأشياء الكثيرة التي ذهبت، لكن أؤكد لك عندما ذهبت.. لم أحزن عليها، فهي لم تتحمل مشقة الماضي، فكيف لها أن تعاصر معي ألم الحاضر؟!

كلما يتحدث مصطفى يشعر محمد بالألم من أجله، فهذا الصديق يحمل الكثير داخل قلبه، يحمل مآسي لم يعاصرها هو، فقط يشاهدها في التلفاز، فلقد نشأ على الرفاهية والحياة الفاخرة، فعائلة محمد من أكبر عائلات سيناء، عائلة لم تحمل سوى الكثير من الثراء لأولادها وأولاد أولادها.

تمنى محمد لو بإمكانه أن يشرب كوبًا من الشاي، وقال:

- ألا يمكننا ارتشاف كوبٍ فقط من الشاي؟!

بش مصطفى ابتسامة هادئة دون أن يضيف شيئًا.

تضايق محمد من صمت مصطفى مرة أخرى وخشي أن يدخل دوامة صمته من جديد فقال سريعًا:

- درش!

عقد مصطفى حاجبيه واعتلى وجهه الضيق، وأردف:

- لا أحب أن يخاطبني أحد باسم مستعار، أعتذر إليك ولكن لا تنادِني بدرش تلك ثانية.

- ولماذا تعتذر؛ فأنا أحترم هذه الصراحة يا درش؟

قهقه مصطفى رغمًا عنه، قائلًا:

- هاهاها، تعلم.. أنا أستغربك كثيرًا، حقًّا أشعر بالتعجب منك، لم يستطع أحد بالفترة الماضية مجرد التحدث معي، ولكن أنت تجذب الكلام مني دون أن أفكر أو أحسبه، حقًّا إنَّ بك شيئًا مميزًا، وأؤكد لك أن وجودك يفرق معي.

تبسم محمد من حديث مصطفى الصادق، ومزح قائلًا:

- أعلم، أعلم أنني رائع، هل سنظل بدون وسائل ترفيه هكذا كثيرًا، فليوفروا لنا تلفازًا على الأقل.

خرق مصطفى دون إدراكٍ لما يفعل، وقال بصوت عالٍ:

- أيُّ ترفيهٍ؟! أنت محطة إذاعية!

عبس وجه محمد بجدية وشعر بالإهانة من سخرية مصطفى وأردف:

- يبدو أنني حقًّا أزعجك، أعتذر إليك.

ضحك مصطفى وشعر بالجدية والحنق بصوت محمد، وقال وهو يتأمله بطيبة:

عصير الكتب

- سامحني حقًّا أنا ممتن لوجودك، هذا صدق، ولكنني أردت أن أمزح معك، أعتذر إن كُنت ضايقتك.

لانَ محمد حين شعر بالصدق بصوت مصطفى، وأيقن أن مصطفى حقًّا لم يقصد ما صدر عنه، وسكن الاثنان بمكانيهما، وأكملا يومهما بأداء خدمتهما العسكرية.

❐❐❐

تتحسس سمر جسدها بألم، لملمت نفسها وأسرعت إلى تبديل ثيابها بحذر فكل جزء بها يؤلمها، كيف استطاع أمير أن يؤلمها بهذا الشكل؟!

رفعت شعرها إلى أعلى، نظرت إلى وجهها بالمرآة، ترى الدموع تتلألأ على وجنتيها، مما زاد من حزنها الشديد على ما بدر من أمير بحقها وكأنه تحول إلى شخص مريض من المستحيل أن يكون هو نفسه أمير حبيبها، مسحت وجنتيها وأسرعت دموع أخرى بالانهمار مصرحة عمّا تحمله نفسها من حزن وذهبت إلى السرير وضعت رأسها بألم على وسادتها، وسمعت صوت باب الحمام، أغمضت عينيها سريعًا كي لا يرى الدموع بهما، فكرامتها تؤلمها بشدة، كيف تواجهه بعد ما حدث.

اقترب أمير من السرير وجدها نائمة وعلى وجهها آثار دموع، ودمعة أخرى تتسرب بهدوء من جانب عينها اليمنى، رق قلبه لها..

كيف فعل ما فعل؟! حتى الآن لا يستطيع فهم ما يحدث، قرب يده من يدها وحين لامست يده يدها انتفض جسد سمر، فسحب يده مرة أخرى ظنًّا منه أنها لا تتحمل وجوده، ولكن ما جعلها تنتفض حقًّا أنه لامس الجرح الذي نتج عن محبسه.

وضع رأسه بهدوء على الوسادة، نظر إليها وهي نائمة أمامه يتمنى أن تلتفت وتصرخ في وجهه فيتحدثان، ولكن إن فعلت.. ماذا سيقول لها؟!

أغمض عينيه محاولًا النوم، في حين كان بكاؤها مستمرًّا ودموع عينيها منسكبة متزايدة كلما شعرت به يتنفس بسلامٍ، وكأنه لم يفعل شيئًا، تسأل نفسها:

هل يستطيع المحب أن يخلد إلى النوم بسلامٍ؟

هل تداعب الراحة عينيه؟

هل يشعر بالسلام وعزيز قلبه بجانبه يتألم؟

إن كان نعم..

فَلِمَ لا تستطيع النوم بلا مبالاة ولا تفكير في الجرح الذي أحدثه داخل قلبها، وتشهد عليه كل ذرة بجسدها؟!

لمَ كُتب عليها أن تظل أسيرة الشجن والجرح طيلة حياتها؟!

كذبت عليها الدنيا حين زيفت الفترةَ الماضيةَ بفرش الورود تحت قدميها، ليتها انتظرت لبعض الوقت، قبل أن تخدعها وتذيقها مرارة الألم الذي يملأ الحلق بتلك السرعة.

مؤكدةً أنه لو كان الفاعل أحدًا آخر غير أمير.. لَما كان الألم بذلك القدر، لَما اهتمَّت ولَذَهبت عنه بسلام، دون أن تتأثر به، أو يضنيها فراقه، ولكن للقلب أوامر أخرى يبعثها داخل الروح، ويأمرها بالبقاء رغمًا عن كل إشارات العقل وحرارة الكبرياء!

□□□

عندما دخلت سها منزلها وجدت والديها يجلسان أمامها والضوء خافت جدًّا، قامت بإنارة الضوء بجانبها، وقالت وهي تبتسم:

- مرحبًا، هل تنتظران أحدًا؟

نظر إليها والدها ونظرات الجمود واللامبالاة تملأ عينيها، فثار داخله شعور الغضب، هل شعورها بالاستخفاف بهما وبمشاعرهما وصل إلى حد عدم إدراكها أنها أخطأت؟! كيف يمكنها الابتسام بهذه السخرية في حين أنهما يتألمان وبشدة من أجلها، ومن أجل ما ينبئهما قلباهما أنه حدث معها؟! بأنها انفصلت نهائيًّا عن عمرو؟! أليس هذا الفتى عمرو من تحدَّتِ الجميع من أجله وأجل العيش معه؟! هل ترى أنه ليس من حقهما أن يعلما ماذا حدث لتعود بتلك السرعة وهي تحمل لقب مطلقة بمجتمع ومحافظة مثل محافظتهم؟! ألم تستطع الصبر عليه وأن تعود به وتجعلهما يشاركان بهذا المصير؟!

تساؤلات كثيرة دارت بعقل والدها وقرأتها سها بحرفية بالغة، مثلما فعلت طيلة حياتها، فوالدها الطيب والعطوف دائمًا كتاب مفتوح يسهل قراءته.

اقتربت منهما ورأت دمعةً تحبس داخل عيني والدتها، وفضولًا يملأ عين والدها. يمكنها إنهاء ما يعانيانه بلحظة، لكنها لا تريد أن تفعل، فقررت اللعب على وتر إشعال قلبيهما، وقالت بهدوء:

- سوف أخلد إلى النوم، في الصباح نتحدث.

هم الوالد ووقف أمامها وقال بحزم:

- الآن ستتحدثين.

- أرجوك يا أبي أنا متعبة، فلنتكلم بالصباح.

- الآن، هل انفصلتما؟!

وجدت أنه لا مفر، على كل حال سوف يعلمان، فقالت:

- هذا جيد لكلينا، وأعتذر إليكما أريد الذهاب للنوم.

عصير الكتب

تركتهما وذهبت دون النظر إليهما.

تطلعا إليها وهي تستهين بهما، وتتركهما غير منتظرة ردًّا على ما قالته، متجهة إلى غرفة نومها، ضرب كفًّا بكف وقال وهو يجلس بخزي:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، هل هذا ما أجنيه بعد هذا العُمر؟!

ذرفت الأم دموعها الحبيسة داخل مقلتيها، وقالت:

- كدت أصفعها على وجهها، يجب أن تتحدثَ معها لا يمكنها تجاهل قلقنا والتقليل منه، لقد ذهبت إلى غرفتها دون أن نأذن لها، ماذا سنقول للناس إن سألونا غدًا؟! ولكن ماذا بأيدينا.. إن ما أوصلنا إلى هنا.. شخصيتك الرقيقة معها، ذلك ما جعلها تقلل من احترامها لك ولي.

نظر إليها جاحظ العينين، فهي تملك كل الحق بحديثها، حقًّا ما أوصلهم إلى تلك المرحلة هو تهاونه دائمًا معها، ولكن هل يتغير بعد كل هذا العُمر؟ هل يذهب الآن إليها ويقوم بصفعها وإجبارها على التحدث؟ لا، لن يفعل ولن يستطيع أبدًا؛ فالعاطفة داخله إن كانت يومًا ستقسو.. كانت فعلت منذ قرار ارتباطها بعمرو وعدم ترحيبه بفكرة ارتباطه بابنته، ولكن حبها الكبير له كان ينهي كل العراقيل!

«مسكين ذلك القلب إن كان حنونًا، فوقعاته تكون كثيرة وزلاته أكثر، حتى إن كانت تلك الزلات يتسبب فيها قسوة أحب الناس إلى القلب».

❐❐❐

عصير الكتب

(5)

«تحولك من سيِّئ إلى أسوأ..
لن يكون إلا نهاية لك، فتحول كما تشاء»

قررت سمر عدم التحدث مع أمير عما حدث بالليلة الماضية، وحاولت إقناع نفسها أن ما حدث نزوة تحدث بين كل المتزوجين حديثًا، فدومًا يتحدثون أن السنين الأولى من الزواج يكون الزوج والزوجة متقلبين بها، فلملمت جروح قلبها وجسدها وقررت الابتسام لأمير، وكأن شيئًا لم يحدث.

نهض من قيلولته المنيعة، فلم يستطع النوم سوى بالصباح، خاصمه النوم مثل كل شيء رائع تخلى عنه منذ صباح الليلة الماضية، شعر بسمر تتحرك جانبه مما يدل على استيقاظها.

كيف سينظر إليها؟! كيف سيواجهها بعد ما فعله البارحة؟! وأحس بيدها تداعب وجهه بنعومة، قائلة:

- حبيبي، هيا بنا للفطور.

نظر إليها جازمًا أن ما يحدث له حلمٌ، من المستحيل أن يكون واقعًا، وما يؤكد عدم صدقه طلبها الإفطار، ولكنه استسلم، فهي سمر بردائها البني، عينيها

عصير الكتب

العميقة، تبتسم ابتسامتها الصباحية الرائعة، تنظر إليه بعطفها المعهود ورقتها الجميلة، حملق إليها، متسائلًا:

- كيف؟!

استقام وسط السرير، والفضول يأكله، وقال:

- سمر، أنا...

وضعت يدها برقة على شفتيه، وقالت:

- توقف يا أمير، ما حدث سوف نتجاهله، سوف يحدث بحياتنا الكثير، وأعلم أنك تحبني ولن تكرر ما حدث ليلة البارحة مرة أخرى، أنا أحبك والحب يتمسك بالغفران كي يظل الأحباء معًا.

ما تفعله وتقوله يلجمه، كيف لها أن تكون هكذا؟! فامرأة أخرى كانت تركت المنزل لفعل كهذا، وكرامة حبها وكبرياؤها تشجعانها على هذا، وعلى اتخاذ قرارٍ بردّ فعل حازم وقوي، ولكن ما تفعله هو النقيض تمامًا، إنها مَن تلتمس إليه الأعذار وتتناسى ما ألمَّ بها، هل هذا يدل على حب كبير داخل قلبها أم أنها لم تحبه مطلقًا فما يحدث منه لا يفرق معها؟!

وما لمع بعقله هو الاقتراح الثاني أكثر، فلو كانت أحبته لما تقبلت ما حدث بصدر رحب هكذا، نحّى يدها عن وجهه، ووثب بعيدًا عنها، وقال:

- اليوم الخميس، استعدي لزيارة عائلتك.

ودون أن ينتظر منها جوابًا.. ذهب إلى غرفة دورة المياه.

تنظر إلى باب الغرفة المغلقة عليه، تدمع عيناها وتبكي على ما حدث معها، ماذا يحدث لهما؟! ومن هذا الشخص الذي ظهر من الليلة الماضية، فهي من تتناسى ما ألمَّ بها كي لا تعكر صفو حياتهما، ولكنه يتعامل معها

عصير الكتب

بخشونة ومكر، ما الذي يخفيه عنها؟! ماذا يحمل داخل قلبه ولا يفصح عنه؟!

❐❐❐

تجلس سمر بالمقعد الأمامي بالسيارة بجانب أمير،

صمت يملأ الأجواء، حاولت مرة بعد أخرى أن تتحدث ولكن قبل التلفظ بكلمة يوقفها جمود وجه أمير ومنحنيات الغضب المرسومة على قسماته، فعدلت عن قرار التحدث. اليوم موعد ذهابها الأسبوعي لمنزل عائلتها، ولكنها لم تُرد الذهاب هذه المرة، وترك أمير دون الاطلاع على ما يحدث معه، تصرفاته تؤكد أن هناك شيئًا عظيمًا حدث!، ولكن ماذا من الممكن أن تكون فعلت معه ليعاقبها عقابًا كهذا؟! لم تكن ليلة البارحة نزوة، بل كانت فعلًا مقصودًا، الآن هي واثقة.

وجود سمر بجانب أمير يفقده القدرة على شعوره بالغضب، يتمنى أن يأخذها بين أحضانه ويعودا معًا إلى المنزل، ويعوضها عن قسوة ليلة البارحة، يشتاق إليها ويشتاق إلى شقاوتها، يشتاق إلى قبلة الصباح التي تضعها على وجنته بعذوبة، فهل يحنو على قلبه ويترك له العنان، نظر إليها بالمرآة جانبه، وبدت على وجهه الحدة، حينما رأى على جبينها بعضًا من خصلات شعرها متحررة من تحت وشاحها، فقال ثائرًا:

- ألم أخبرْك أكثر من مرة، أن تُحكمي حجابك؟!

وجدت سمر بنفسها الحزن، طريقة كلامه عنيفة بشكل مبالغ به، وإن كانت من منطلق الغيرة.. لا يحق له التحدث بتلك النبرة معها، فثارت متسائلة:

- من أنت؟! من هذا الشخص الهائج المحتج، الفظ، العنيف؟! من أنت؟! وأين ذهب أمير؟! أخبرني!

لم ينظر إليها ولم تؤثر فيه ثورتها، تابع النظر إلى الطريق، ولم يكترث لما تقول.

ترتقب سمر منه إجابة عن أسئلتها، ولكن كعادته منذ ليلة أمس يتجاهل ما تقوله أو تفعله، حاولت أن تستعيد أحداث ليلة البارحة، وهل فعلت بها ما يمكن أن يثير حنقه، تذكرت رقته معها قبل أن يذهب لوالده وتبدله منذ عودته، حاولت الضغط على ذاكرتها أكثر فتحسست عنقها من شدة التأثر، وحدقت بعينيها بجزع، متذكرة ما فقدته، وخفق قلبها ذعرًا أن يكون عثر عليه، مهمهمة بصوت غير مسموع:

- لا، لا يمكن أن يكون هذا.

وأدامت النظر إليه وعيناها تمتلئان بالعبرات، لو أن هذا حقيقي فلماذا لم يطلب منها الشرح؟! هو من أكد أن الماضي لا يعنيه، وأن حياتها تبدأ منذ أصبحت زوجته، لا يمكنه أن يعاقبها على شيء من الماضي، ولا يمكنه أيضًا سلبها حياتها الهادئة معه. لا، من المستحيل أن يكون عثر عليه ولا يواجهها، همهمت قائلة:

- صدقني يا عزيزي، إن كنت تعاقبني على شيء لسوء ظن منك بي ولم تطلب مني توضيحًا، فلن أغفر لك أبدًا، و إن كانت تلك المعاملة القاسية لضغط تمر بِه، فأيضًا لن أسامحك، فيجب أن أكون أنا من تخفف عنك، ولكني لا أستحق تلك المعاملة الجافة، و...

فجأة قام أمير بضغط مكابح السيارة بمنتهى القوة، هل حقًّا تجد بنفسها العِفة؟! هل تظن بأنها سوف تواظب بإقناعه بالبراءة الواهية وهو يديم تصديقها؟!

كيف تكون بهذه السذاجة؟! فكل أبله سيأتي وقتٌ ويرى الأمور بوضوح،

يجب أن تفهم أنه ليس هناك حمقى بتلك الحياة، ولا يمكن للأسرار أن تدفن إلى الأبد، فيومًا ما سيأتي ما يعري عنها غطاءها و يكشف سترها، وقد حدث...

نظر إليها ورمقها للترجل من السيارة، فعلت، وكانت على وشك إغفال ما يحدث معهما وتطلب منه الدخول عندما تأملت منزل عائلتها أمامها، لكنه كان أسرع بالقيادة والابتعاد عنها.

جمدت مكانها في منتصف الشارع تتابعه بعينيها حتى اختفى عن رؤيتها، تشعر بالتشتت، قلبها يصارع عقلها لمعرفة سر تغيُره، فلو تعلم ما يحدث معه، لو يفصح عما يختلج في صدره، فماذا حدث ليتحولوا بهذا الشكل؟!

لم يحدث يومًا أن يتركها هكذا.

«تتذكر منذ أسبوع وأول زيارة بعد الزواج لعائلتها»

يترجل أمير من السيارة و يفتح بابها الأيمن كي تنزل منها سمر.

ينظر إلى عينيها وهو يتناول يدها برفق، و يقول:

- عزيزتي، لا أريد تركك والذهاب.

- إذًا، فلنعد إلى المنزل، أنا أيضًا لا أريدك أن تذهب.

تمنى لو أنها لا تمزح، وبالفعل تذهب معه، إذ يجب عليها الذهاب ورؤية عائلتها مهما ابتغيا عكس هذا، يطالبون بزيارتها و يشتاقون إليها منذ أيام، ومن لا يشتاق إلى ملاك يعيش بين البشر و يتمنون رؤيته دومًا، فيا لحظه السعيد! وهو من فاز بها، لتعيش معه وتهون عليه قسوة الأيام السابقة.

أمسك بيدها جيدًا وقام بإنزالها من السيارة، قائلًا:

- ليتني أستطيع، ولكن تعرفين كلمتي واحدة.

عبس وجهها وقالت:

- حتى معي؟

- هيا يا سمر، اذهبي للداخل ولا تظهري الطفلة المداعبة تلك، تعلمين ضعفي تجاهها.

ضحكت سمر عاليًا، وقالت:

- أعلم، ولذلك أفعل.

ولمعت عيناها بالعبرات وقالت بجدية:

- لا أريد ذهابك.

كيف يتمكن من الذهاب وصغيرته، حبيبته تزيد من لوعة الفراق، لا يمكنه الذهاب وتركها، ولذلك عزم على أن يأخذها معه وفكر سريعًا: كيف يلتزم بكلمته مع عائلتها بذهابها لرؤيتهم، وأيضًا لا يتركها ويرحل؟

داهمته تلك الفكرة.. أن يدخل معها ويتحمل رسمية التعامل التي يبغضها، سوف يطمئنهم إليها، ويرحل هو وهي معًا مرة أخرى.

عادت سمر من جديد لوحدتها، وانتصابها بمفردها أمام منزل عائلتها، أنين بروحها يحتج على ما حدث من أمس إلى اليوم معها.

ما انفكَّ تفكيرها يغرب بها في ما كان وما أصبحت عليه، حتى ترقرقت العبرات في عينيها، لا تعلم كم من الوقت مَرَّ عليها وهي تقف ساكنة هكذا.

كانت بعالمٍ آخر، حيث أمير يحملها على كتفيه ويدور بها على شاطئ الغردقة، ويصيح بكل حُب ومرح: «أحبك يا أغلى ما رزقني بهِ ربي».

شعرت بيد توضع على كتفها من الخلف، أسرعت بمسح دمعتها واستدارت آملة

أن يكون أمير قد عاد إليه رشده وركض لمصالحتها، ولكن هذه الأمنية باتت مستحيلة حين وجدت عيني شقيقها تتبسمان إليها:

- سمر.. لماذا تقفي في وسط الشارع هكذا، وأين أمير؟

شعرت بوخزٍ في قلبها حين سألها عن أمير وقالت...

❐❐❐

سها بغرفتها تغفو بفراشها في سلام، لا يشغلها ما تمُر به عائلتها من كرب.

تفتح عينيها بتثاقل شديد، وهي تنظر إلى النافذة أمامها وقد انفتحت على مصراعيها، و إشراقة الشمس تعاكس عينيها.

ووالدتها تقف أمامها، وجهها مليء بالتحدي تطالبها بالنهوض في الحال.. زفرت سها قائلة:

- لماذا هذا القلق بالصباح؟!

زاد عبوس الوالدة وصاحت:

- هيا أفيقي، يجب أن نتحدث الآن.

استدارت سها على جانبها الآخر وقالت:

- لكنني ما زلتُ أريد النعاس قليلًا.

اقتربت والدتها من الفراش وأخذت تنهرها بكلمات حادة، لكن كعادة سها اعتبرتها غير مرئية، ولم تجبها.

تركت والدتها تُحدث نفسها وذهبت في سُبات عميق، مما دفع الوالدة لأول مرة بحياتها أن تقوم بصفعها، لم تؤلم وجنتَيْ سها تلك الصفعة، ورغم ذلك جحظت عيناها، لم تستوعب أن والدتها فعلت هذا وقامت بضربها، لم تثُر

لألمٍ لحق بها، لكن ما أثار حفيظتها وزاد من حنقها، فِعْلُ والدتها لا أكثر، الجزء المقترن بكرامتها داخلها هو ما آلمها، فقامت من نومها سريعًا وهي تنظر لوالدتها بغضب، وتقول:

- تضربينني؟!

وقف الأب أمامها مقابلًا من الغرفة الأمامية، نظر إليها شَزْرًا، لأول مرة ترى تلك النظرة الغاضبة المؤنبة بعينيه، فتأكدت أن الوضع لم يعد يحتمل مزاحًا بعد الآن، ولكن هل لديها القوة أن تسرد عليهما ما حدث لها منذ تعرفها إلى عمرو؟ هل يمكنها أن تخبرهما كيف ومتى وأين حدث كل شيء بينهما؟ هل تملك تلك القوة داخلها كما تتزين بها من الخارج؟!

كانت الإجابة حاسمة، بالطبع لا يمكنها ولا تستطيع أن تفعل، كيف تتعرى بهذه الصورة الوقحة أمامهما، هما من ظنّا دومًا أنها مثال لكل شيء جيد، هي من علمها والدها كل مبدأ وجميع الوعود على حياة شريفة جيدة، لا، لا يمكنها أن تفعل ولكن كيف ستتحدث معهما، أن تعرب عمّا حدث معها، دون أن تضطر لقول ماضيها هي وعمرو.

❐❐❐

عندما وصل أمير إلى منزل والده وقف قرب الشجرة الصغيرة، صديقته منذ الصغر، التي قام بزرعها هو وشقيقته هاجر، ومحمد وشروق، هذه الحديقة عامة كانت ملجأ هاجر وأمير للفرار من بطش والدهما، ونيل القليل من الشعور بالسلام والبراءة، وضع آلامه وأحزانه على شجرته وهو يتّكئ عليها، واهمًا أنها ستنزع عنه ما يؤلمه!!

تلك الشجرة رغم كونها نباتًا غير عاقل، فإنها تحنو عليه أحيانًا أكثر من بعض

البشر، ويطمئن إلى ما يصدر عنه من أسرار وأحزان، ويستطيع بكل حرية إزالة غشاء القوة أمامها.

فأمير منذ ولد لم يجد من والده سوى الجفاء والعمل، لم تكن الثروة الطائلة التي يمتلكونها سوى حرمانه من طفولة وحياة كم طمح وحلم كثيرًا لنَيلها!

ولد لوالدة تصارع طيلة عمرها المرض، وإن لم يكن مرض جسدي.. فمرض خوفها من أبيه والاهتمام بشتى أموره ولم يكن الخدم بحياتهم يومًا سوي شكلًا اجتماعيًّا، الدموع تلمع بعينيه كلما تذكر ما بدر منه تجاه سمر، كيف يحبها ويفعل بها ذلك، استند بيده إلى الشجرة، قائلًا بصوت دفين:

- تستحق كل هذا، هي من ضرتني وآلمت قلبي، فكيف أمكنها فعل ذلك بي؟

خارت قواه وتسللت دمعة ساخنة إلى وجهه، مُسندًا رأسه إلى الشجرة، تقاعست قدماه عن التحمل أكثر، فبَرَك على الأرض، ذرفت عيناه دموعًا أوفر، وكأنها تؤكد ضعفه واستسلامه، وضع رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه، وما لبث أن فتحهما مرة أخرى بعد دقيقة، ووضع يده بداخل جيب بنطاله، وأخذ ما كان به وظل ينظر وانتحب، قائلًا:

- لماذا؟، ألم أستطع ولو للحظة واحدة أن أجعلك تـ...

❐❐❐

أخذ شقيق «سمر» حقيبتها وأسرع بدخول المنزل بعدما أخبرته سمر أن أمير ذهب إلى المصنع، لكثرة الأشغال التي تنتظره.

اعتلى وجهها التوتر وأخذتها قدماها متباطأة وراء شقيقها، عيناها تملأهما العبرات، رغم كل محاولاتها بتصنع الابتسامة، الألم يعتصر قلبها والجنون يدق عقلها.. لأول مرة تذهب إلى منزل عائلتها وابتسامتها الطفولية لا تصاحبها،

فأمير سلبها إياها ولا تعلم السبب، لا تستطيع بعدُ تصديق أن ما عاشته البارحة ورأته اليوم من جمود.. امتزج بملامح وجهه البريئة، هذا كابوس، كابوس يهدد حياتها، من المؤكد أن أمير يعيش شيئًا يؤثر فيه وشيئًا قاسيًا جدًا!

أرادت أن تستنتج أن شيئًا آخر سوى ما تفكر به، وشكه بها بدله هكذا، فلا يمكنها السماح له أن يسلب منها حبها وسعادتها التي ما لبثت أن تحصل عليهما، لا يمكنه، لاااا، لن تسمح له أن ينجح في هدم ما عاشاه معًا، ستكون مقابلة للريح بكل قوة، ستقف أمام كل شيء وكل شخص يريد انتزاع ما حصلت عليه بعد جرح وجهد ومشقة عاصرتها قبل معرفته، ستكون أقوى من العواصف الهائجة وستشكل دوامة داخلها تبتلع ما يخصها ولن تترك لريح عاتية سلبها إياه..!

مسحت على وجهها بحزم، واعتلت الابتسامة الرقيقة والصادقة مرة أخرى وجهها، ودلفت إلى منزلها وهي تحتضن والدها ووالدتها وتبدي بهجتها المعتادة معهما.

❐❐❐

تتعرق سها وهي تحاول أن تستجمع ما يمكنها تأليفه..

تجلس على الكرسي المقابل لباب الغرفة، تنظر إلى أبيها الذي يغلق الباب عليهم، ووالدتها الجالسة بالمقعد المجاور لها، وقدمي والدها وهو يتجه نحوها، وما إن اقترب منها حتى جلس قربها وقام بوضع يده على كتفها، مما بعث الطمأنينة بقلبها، وسماع صوت والدها الحنون وهو يقول:

- هيا بنيتي قصي علينا ما حدث معك، ولا تخشي شيئًا، وإن كنتِ المخطئة لن نؤنبك، ولكن نريد أن نعلم ما حدث.

رأفة والدها وعطف صوته تلاعبا برأسها، ولثوانٍ فكرت سها أن تحكي ما حدث منذ يوم تعرفت فيه إلى عمرو، والذي حدث معهما..

وقتها شعرت بيد والدها للمرة الثانية على كتفها فعزمت على الكذب، أفصحت عن كلمات من وحي خيالها، أخبرتهم أنه أساء معاملتها، وكان لا يطعمها ويسهر ليالي طويلة بالخارج، ولكن نظرات والدتها لم تكن مصدقة، وضح بها الشك الذي سريعًا ما تفوهت وباحت به، وقالت:

- كاذبة، فكل مرة كنتِ تحدثينا تخبرينا عن مدى سعادتك، هذا الكلام غير حقيقي.

تعرق جبينها مرة أخرى وهي تجد من أبيها الصمت والفضول أيضًا يبدو أن لا مفر اليوم من الإجابات المرهقة لها، ولكن مهما حدث لن تكون سوى إجابات واهية، تابعت وهي تدعي التأثر، انتحبت وامتلأت عيناها بالعبرات، وأضافت:

- وماذا كنتِ تريدينني أن أقول، هل أخبرك بكل هذا العذاب وأنا ببلد آخر، بعيدة عنكما، كنتما ستقلقان علي، وأنا كنت آملُ أن أجعل منه شخصًا أخر، أردت لحياتي أن تنجح، لكنه فعل معي كل شيء يجرح كرامتي، فلم أجد سبيلًا سوى طلب الطلاق والعودة إليكما.

ونهضت وهي تستدمع بشدة، متابعة:

- إن كنتما لا تريداننني بهذا المنزل.. سوف أرحل، لكن كفى جرحًا لمشاعري، فلقد اكتفيت.

وأكملت تلك المرة بنار حقيقية تملأ قلبها:

- أليس هناك من يحمل بعضًا من الرأفة داخل قلبه، ألم يعد هناك شخص واحد يرغب بي؟! حتى أهلي يقسون علي؟!

سقطت أرضًا، ودموع عينيها تذرف بغزارة:

- لماذا حظي عسير هكذا.. لماذا؟

خُلع قلب والدها وشعر معها بالقهر، نهض من مقعده وجلس بجانبها وهو يربت على كتفها، تـأملته سها عبْرَ دموعها، وارتمت بين أحضانه وأجهشت بالبكاء بإخلاص، سمحت لقلبها أن يعبر عن جُرحه ووجعه، ولم يكن هناك أحنَّ من عناق والدها لتضعف داخله، فمن بحياتها أصدق منه بحبها.

وقفت والدتها تحدق في سها، تشعر بالأسى على حال ابنتها، ولكنها تمقت ما وصلت إليه، بماذا تخبر الآن صديقاتها؟! فلن تتمكن بعد ما سمعته من وَصل العلاقة بين عمرو وسها.. فماذا يمكنها أن تقول أو تفعل؟!

❐❐❐

عصير الكتب

(6)

«حسرة في القلب، وعبرات تملأ العين، والجاني والمجني عليه ضحية الظنون»

متكئٌ مصطفى إزاءَ محمد، الإجهاد يملأ عيونهما، علا صوت هاتف محمد معلنًا استلام رسالة، أخرج هاتفه من جيبه الداخلي لثيابه، ألقى نظرة على محتوى الرسالة، ابتسم حين وجدها من شروق، صاح بدون وعي:

- شروق ما أجمل صباحك عزيزتي!

ابتسم محمد عندما وجد من مصطفى بشاشة واضحة على وجهه وشعر بالخجل..

بتر مصطفى تأملاته في محمد حين رأى حُمرةً هادئة تعلو وجهه وقال:

- بسيط أنت، بساطة الحب تزين شخصك، فليدِمْها الله عليك.

هز محمد كتفيه، وقال وهو ينظر مرتبكًا حوله:

- معذرةً مصطفى، أعلم أنني أستخف بمشاعرك، وأنك حزين على أهلك...

وقطع حديث محمد صوتُ مَن وراءه، يتحدث بحدة:

- أين الهاتف؟

عصير الكتب

تطلع كلٌّ من محمد ومصطفى إلى الضابط وراءهم، كان شابًّا بالثلاثين من عمره، عريض البنية، صارم الملامح، يقف بحزم وثبات، عيناه تعلنان الحنق ونية الشر بداخله.

تعرق جبين محمد حين وجد نظراتٍ غاضبة من الضابط تجاهه، وعلم أنه سيعاقب، نظرات الضابط لا توحي بالاطمئنان، فعلا صوت الضابط قائلًا:

- قف بثبات أيها الجندي.

فأسرع محمد وبجانبه مصطفى وأدّيا التحية، باللحظة التي أخذ مصطفى الهاتف من يد محمد بخفة من الخلف، وقال وهو يشتت انتباه الضابط عن محمد:

- عفوًا سيدي القائد، أنا المذنب، أردت أن اطمئن إلى عائلتي، معذرةً.

ضاقت عينا الضابط وهو ينظر إلى محمد، وبعدها انتقلت عيناه إلى مصطفى، وشعر بخيبة الأمل، فكُرْهُه لأبناء سيناء مضاعفٌ، وكان يتمنى أن يقوم بفرض جزاء عليه، ولكن فشل رجاؤه حين وجد المذنب مصطفى، فأخذ الضابط الهاتف وقام بتفتيته على الأرض، ثم أدام النظر بعيني محمد وقال:

- المرة القادمة سيكون هناك عقاب، هل تسمعني أيها الجندي؟!

تركهم الضابط وابتعد وعينا محمد تراقبانه وهو يبتعد، يلهث كمن كان يجري بالصحراء دون ماء أو راحة، وتنهد بعمق ورمق مصطفى قائلًا:

- شكرًا صديقي، ما فعلته من أجلي اليوم شيء كبير بالنسبة إلي.

شعر مصطفى بالذعر الخفي بجوف محمد، طمأنه أنه إلى جانبه ولن يتركه أبدًا، ولكنه تساءل بشيء من الدهشة: لماذا يشعر بنفور الكثيرين هنا منه، رغم طيبته الواضحة؟! باحثًا عن السبب، هل فعل شيئًا بهم قبل أن ينضم مصطفى إليهم:

عصير الكتب

- هل هناك ما حدث، قبل انضمامي إلى هنا محمد؟

- شيء مثل ماذا؟!

- مثل كره البعض هنا لك؟!

□□□

«ألمانيا»

للوهلة الأولى.. سيخيل إليك أن كل من يجلس في زاوية الكافية فتيات في حالٍ يرثى لها، يتناولْنَ الخمر ويبتلعْنَ الحبوب.

لكن عندما تطيل النظر إليهن، سترى ثلاثةً من الشباب، وثلاث فتيات، لا يميز بعضهم عن بعضٍ سوى طبيعة الجسد، أما المظهر فواحد.

كل منهم يأخذ فتاة على قدمه، يقبل ويضمُّ كما يحلو له.

صوَّب فريدريك عينيه على كريم، مؤكدًا بغضه لأصوله العربية التي ستجعله يذهب بعيدًا عنه ويترك صديقه الحميم وراءه، راجيًا بقاءه إلى الأبد معه.

مضيفًا أنه لا يجب عليه الزواج من فتاة عربية وعَيْشُ حياةٍ رتيبة روتينية، وأنه سوف يمل من حياته تلك سريعًا، وتنتهي حياته بؤسًا وضياعًا.

قهقه كريم بصوته الخشن، فصوته مع بعض من منحنيات وجهه.. هو فقط ما يؤكد أصوله العربية، حيث شعره الطويل الأشعث، وجهه ناعم كوجه المرأة، بنطاله الأخضر ذو الكثير من التفرقات، لباسه العلوي فاقع اللون.

أضاف إلى حديث صديقه:

- أظن أننا تحدثنا كثيرًا بذلك الأمر عزيزي فريدريك، أخبرتك ان الأمر ليس بيدي، ويجب على العودة يومًا ما، ولكن أعدك بأننا سنكون على تواصل دائم.

عصير الكتب

ضاقت عينا فريدريك، عندما تابع حديثه وهو يُبعد الفتاة عن أحضانه معتدلًا بجلسته، مؤكدًا أنه لا يقتنع بذلك الحديث، متسائلًا عن سبب ذهابه حقًّا، فمن غير الممكن أن يكون محبًّا لتلك الفتاة التي رأى صورتها، مهما ملكت من جمال فهو ضئيل بالنسبة إلى الفتيات حوله، طالبًا منه التفكير مليًّا بالأمر، وقال بغريزة متناقضة مع معتقداته:

- إنها تكبرك سنًّا، ويبدو عليها جهلها، ألم ترَ كيف تحكم وجهها بذلك الوشاح الغبي؟!

استاء كريم من طريقة تحدث فريدريك عن هاجر، فعلى الرغم من تجاهله لدينه حتى أصبح مجرد خانة ببطاقته، وتَشَبُّهِه المبالغ فيه بالغرب، فإنه لم يرتضِ أن تغتاب هاجر أمامه ويبقى ساكنًا، فثار في وجه صديقه، طالبًا منه عدم التحدث هكذا مرة أخرى عنها بهذا الشكل، وبأنه يقدر حبه له ويقدر صداقتهما، ولكن العبث بشيء يخص خطيبته لا يقبله، طالبًا منه النظر إلى الفتاة القابعة جانبه التي تضاهيه سنًّا، ويعلم هو قبل فريدريك أن الأمر لا يتعلق بالسن، وأن فريدريك ليس سوى مجرد حانق على رحيل صديقه عنه، مُطَمْئنًا إياه أنه لن يجعله يشعر بالابتعاد، ولِيُنْهِياْ ذلك الحديث الآن حتى لا يشتد الموضوع بينهما، ويتجادلا في شيءٍ لم يحن أوانه بعد.

❐❐❐

تراءى إلى مصطفى ارتباك محمد، فلم يطلب منه من جديد أن يطلعه على ما يحدث معه، معللًا أنه لا يهتم، مؤكدًا:

- لا أريد إجابة، هون على نفسك يا صديقي.

وأضاف أنه هنا من أجله، وعندما يريد في أي وقت التحدث سوف يجده،

عصير الكتب

ويجد منه إصغاء الصديق الحقيقي، راجيًا منه أن تعود إليه من جديد ابتسامته التي تهون عليهما تثاقل اليوم.

بدأ محمد يأخذ أنفاسه بانتظام، فلكل إنسان بهذه الدنيا جزء مظلم بأحد أركان العقل، وآلامه موصولة بوريد يضخ إلى القلب، فليس كل شخص يبتسم عادة يتمتع براحة البال والجنة ونعيمها، فأكثرهم ابتسامًا.. أكثرهم شقاء.

❐❐❐

«الزقازيق الساعة السابعة مساءً»

عندما دلفت سعاد إلى الغرفة وشاهدت «نعيم» شقيق زوجها تنبأت على الفور أن الأمر ليس مجرد زيارة ودية.

وضعت المرطبات أمامه، مع تحيته.

رد التحية عليها وطلب منها التحدث معها على انفراد، تأكدت شكوكها عندما خطت بداخل الغرفة، وتمنت من الله أن لا يكون هناك مشكلة.

طلبت من بناتها حَمْل محمود عن قدم نعيم، والخروج قليلًا إلى الخارج، وترك باب الغرفة على مصراعيه.

نظرت إليه باهتمام كبير وطلبت منه التحدث، فهي تصغي إليه، تمنت لو أنها تستشف ما يحدث معه.

خيم الوجوم على وجه نعيم، وأخبرها أنه سيتحدث عن صلب الموضوع، فوقته ضيق، ووراءه الكثير من الأمور تنتظره، وماذا تطلب هي أكثر من ذلك، فليفعل ويتحدث سريعًا إذًا، لمَ هذا التباطؤ؟

تحدث بصوت رتيب، غامض:

- تعلمين أن ابني وابنكم ماجد على وشك المجيء، وطلب مني أن آتي وأطلب يد

ريم ابنة أخي إليه، اختصارًا للوقت، ولقصر إجازته، حتى تتم مراسم الخطبة سريعًا.

أخذت تتنفس بانتظام، هل هذا هو الأمر؟ لقد حدثها قلبها أن هناك شيئًا عظيمًا حدث، ابتسمت براحة، تعلم منذ الصغر بالعلاقة الحميمية بين ابنتها ريم وابن عمها ماجد، لكن لم تعتقد أن الأمر يستمر إلى الآن، ويطلب القرب منها، ويتزوجان بالفعل فلقد ظنت أن الأمر مجرد طفولة بريئة ورحلت مع الصغر.

عندما طال صمتها، شعر نعيم بالحرج، وفطن أن الموضوع لا يلقى استحسانها، فطلب منها التفكير والرد عليه بنهاية هذا الأسبوع قبل قدوم ولده، فابتسمت مؤكدة أنها لن تجد أفضل من ماجد لابنتها ريم، وطلبت منه أخذ وقت الرجوع لابنتها ولزوجها وانتظار ولدها مصطفى ليبدي رأيه بالأمر، فأكد نعيم كلامها، وابتسم عند ذكر مصطفى قائلًا:

- هناك أمر آخر يخص ولدي الحبيب مصطفى، لكن لن أتحدث به سوى بعد ارتباط ريم وماجد.

تملك قلبها الفضول وأرادت التقصي ومعرفة ما يدور بعقله، ولكنه أسرع بالنهوض وبتر باب المناقشة، طالبًا منها رؤية شقيقه والاطمئنان عليه قبل ذهابه، وتبليغه بما يحدث حتى لا يشعر بالسوء وأنه مهمش، فلقد أراد التحدث معها أولًا حتى يستطيع أخذ حرية الحديث ورؤية رد فعلها، وما بدر منها يؤكد الخير.

❐❐❐

بَعد ذهاب نعيم، طلبت سعاد رؤية ريم على انفراد، أخذتها إلى غرفتها

وأغلقت الباب عليهما وقصت عليها ما حدث منذ قليل مع عمها، وتقدم ماجد إليها راغبًا الزواج بها.

تورد وجه ريم، وزينته الحمرة المصرحة عن سعادتها وخجلها، توقعت سعاد أنها ستقبل، لكنها لم تتوقع أنها أيضًا ما زالت تكن له بعض المشاعر منذ الصغر.

أبعدت ريم عينيها عن والدتها عندما أخبرتها سعاد أنها ووالدها يرحبون بماجد زوجًا لها، ولكن يجب عليهما انتظار شقيقها مصطفى، وخفق قلب سعاد قلقًا عندما تذكرت حديث نعيم عن ولدها مصطفى، بماذا يريده يا تُرى؟!

لكنها لم تجعل التفكير يُنسيها سعادتها الآن بابنتها، ورؤيتها وهي تتورد خجلًا وحبًا، داعية لها أن يحقق الله لها كل ما تتمناه بتلك الحياة، وانتهى الحديث بضمة من سعاد لريم.

❐❐❐

صعدت سمر إلى غرفتها كي تبدل ثيابها منذ أكثر من ساعتين، تستعد لمجيء أمير، هذا ما أخبرت عائلتها به، ولكنها في الأصل أرادت الانفراد بنفسها، لتطلق عنان الدموع الحبيسة طيلة مكوثها معهم، وبين الحين والآخر تعاين هاتفها علّه حاول الاتصال بها، لم يحدث منذ زواجهما أن يتركها أمير كل ذلك الوقت دون الاطمئنان إليها، ما آلم هذا الشعور الذي يغزو قلبها جراء أفعال مبهمة من عزيزها أمير!

أرادت التحدث مع عائلتها، تمنت أن تهرول لتختبئ داخل أحضانهم وتطلب مساعدتهم فيما يدور معها، ليتها تستطيع التحدث معهم وإخبارهم بما يحدث لها!

لكن لن تستطيع فعل ذلك أبدًا فتعلقها بأمير وعشقها له لا يمكنها تعريضه للخطر بإشراك الآخرين فيه، حبهما أكبر من أن يلوث بتدخل شخص مهما كانت درجة قربه منهما.

سمر منذ زواجها هي وأمير تعاهدا على أن لا تترك المنزل مطلقًا وهي غاضبة، أو أن يتدحل أحد بينهما، فكل شيء بينهما مهما بلغ حجمه.. سيقومان -هما فقط- بتسويته، مهما كلف الأمر.

وقالت بصوت تسمعه أذناها، كمن تحاول إقناع نفسها:

- إن كان حبك عقابًا، فارتضيت بك وجعًا، آمنت بك سبيلًا، أما حياتي بدونك.. فأنا لا أتذكر لها ملامح، سيظل قلبك ينبض بحبي رغمًا عنك، وسأظل داخل حضن قلبك أوصل نبضي بنبضك كي أعيش.

أصغت إلى صوت هاتفها، أسرعت إليه بلهفة عله أمير أخيرًا لوعة الشوق واتصل بها، لكن خاب أملها عند رؤيتها لاسم سها، وَصِبَ قلبُها وضغط الرد:

- مرحبًا عزيزتي.

اعتذرت سمر إلى سها عندما أخبرتها أنها تريد رؤيتها لمكوثها بمنزل عائلتها، حاولت بقدر المستطاع إظهار البهجة بصوتها، حتى لا تشعر بضيقها سها، وأغلقت معها الهاتف على وعد باللقاء غدًا.

أغلقت الهاتف وهي تستلقي على الفراش وتجهش من جديد ببكاء طويل مرير على انقطاع الأمل في أمير.

❐❐❐

عند غلق سها للهاتف مع سمر، اعتلى وجهها السخط والحنق من سمر، اليوم

هي بأمس الحاجة إلى رؤيتها، كيف يمكنها الذهاب إلى عائلتها وهي تعلم جيدًا أنها بحاجة إلى من يواسيها.

- حقًّا لم تكوني يا سمر صديقةً مخلصةً لي يومًا.

قالتها لنفسها، وهي تفكر: ماذا تفعل بهذا اليوم الشجي، من المؤكد أنها لم تُرِدْ رؤية سمر، فهي لم تشتق إليها، بل كانت تريد رؤية أمير، سمر كانت العائق اليوم بين رؤيتهما، لمَ اليوم بشكل خاص؟! تذهب إلى عائلتها، أليست سها بحاجة إلى من يواسيها ويُشعرها بالعطف، لو كانت سمر حقًّا صديقتها.. لكانت فضلت البقاء بالمنزل منتظرة إياها، على الذهاب إلى عائلتها، فماذا تفعل الآن؟! تشتهي الحديث مع أمير، الوحيد الذي تريد فتح قلبها إليه والتحدث معه عما حدث معها منذ أن وقعت بشباك حُب عمرو، ليته يحنو عليها ويساند قلبها المنهزم، فلم تشعر بحاجتها إلى أحد مثل احتياجها لأمير، والتحدث معه.

□□□

طيلة اليوم لم يحادث أمير سمر، وعندما كان يرق قلبه، ويشعر بالحنين، كان يرهق نفسه بالعمل حتى لا يفسح المجال لعاطفته للتراخي والانتصار عليه، ظل بين بيت والده والعمل طيلة اليوم.

منذ تخرُّج أمير وحصوله على بكالوريوس هندسة معماري، وهو يدير كل العمل على أرض الواقع ووالده يتابعه من داخل المنزل، ويجب على أمير أن يطلعه على كل التفاصيل لحظة بلحظة وعدم الفصل في موضوع دون الرجوع إليه.

انتهى العمل، أصبحت الآن الساعة الثامنة مساءً، موعد ذهابه لأخذ سمر إلى المنزل.

عصير الكتب

أحس بقلبه يدق لمجرد احتمال رؤيتها، فشاء أم أبى يشتاق إليها ويرغب في رؤيتها، حنين قلبه إلى التطلع إليها أكبر بكثير من شعور الغضب داخله.

أمسك بالهاتف، حاول الاتصال بها، وانتظر سماع صوتها بلهفة، لكن دون جدوى، انتهى الاتصال، ولم ترد عليه، مرة واثنتين وثلاثًا، انفعل على الهاتف وقبضَ عليه بغضب كمن سيفتك به، ولمعت تلك الفكرة الشيطانية بعقله، من الممكن أنها... لا... من المستحيل أن تفعل... ولكن هيهات.. لقد تمكّنت الغيرة من قلبه، قام بمحاولة الاتصال عبر هاتف المنزل... الخط مشغول، مرة واثنتين وثلاثًا، وما زال على نفس الحالة، ضغط بقوة مكابح السيارة، وأسرع إلى منزلها، ركن سيارته أمام المنزل من الخارج بمرج، لم يرد تحية الحارس عليه، طرق باب المنزل الداخلي بتكرار، عندما فتحت الخادمة، اعتلى الغضب وجهه وتساءل بحنق:

- أين سمر؟!

طريقة تحدثه بثت الذعر بقلب الخادمة وتوردت وجنتاها خوفًا، تلعثمت وهي تخبره بأن سمر تجلس بالداخل مع والدها ووالدتها يتحدثون، وأخبرته أن ينضم إليهم، أسرع وراءها واستوقفه صوت مهدج من الغرفة التي مرَّ بها، قبل وصوله إلى الغرفة القابعة بها سمر ووالديها.

تأمل الغرفة جيدًا فوجد شقيق سمر يتحدث عبر الهاتف بلطف شديد، ويبدو أن المحادثة من نوع خاص، تسللت السكينة والسلام إلى قلبه، أسرع بخطواته وراء الخادمة عندما سمعها تبلغ بحضوره، عند اقترابه من الغرفة.. تأمل سمر، وزفر عندما لم يستطع الحصول على نظرة بعينيها، إذ جاهدت أن لا تنظر إليه مطلقًا.

لكن عينيه تشتاقان إلى عينيها، وسوف يجتهد لكي تتطلعا إليه، بعد أن ألقى التحية على والديها، طلب منها الاستعداد للذهاب.

- هيا سمر؟!

اعتذرت سمر إلى والديها دون النظر إلى أمير لكي تصعد إلى الأعلى ترتدي حجابها وتأتي بحقيبتها، توارت من جانبه، فتسللت رائحتها لحواسه، ابتغى لو يأخذها بين ذراعيه، وتعويض يومين كاملين حُرِمَ عاطفة الحب بينهما، لكنها أسرعت بالذهاب دون مجرد إلقاء التحية عليه، الأمر الذي أشعره بالحرج، وأكد لوالديها شكوكهما بأن ابنتهما كانت تبكي عندما طرقا باب غرفتها عليها، فحمرة عينيها أكدت بكاءها مهما حاولت أن لا تظهر إخفاء العبرات بهما، طلب والد سمر من أمير الجلوس قليلًا، وطلب من زوجته إعداد الطعام لأمير، ولكن أسرع أمير بالاعتذار قائلًا:

- لا عمتي، لقد تناولت الطعام بالعمل، أريد الذهاب سريعًا والإخلاد إلى النوم.

تأمل الزوج زوجته، وفهمت أن زوجها يريد الاختلاء بأمير قليلًا، فاستأذنت كي تقوم بجلب مرطب له على الأقل.

نظر والد سمر إلى أمير وقال بصوت رتيب:

- أمير.. هل الأمور بينك وبين سمر على ما يرام؟

تعرق جبين أمير ولحق بأوتاره الاضطراب، وحاول التماسك والإجابة باعتدال، فسمر لا يمكنها إفشاء سر بينهما، هذا ما وعدته به منذ زواجهما، فقاطع الصمت قائلًا:

- أجل عمي، كل شيء على ما يرام، لماذا؟

تنهد الأب وقال بشيء من القلق:

- لا أعلم بنيّ، فأنا ووالدتها شعرنا بأن بها اليوم بها شيئًا غريبًا...

أراد أن يخبر أمير أنهما سمعاها تبكي منذ قليل، ولكن سمر قاطعت خلوتهم وأخبرت أمير أنها استعدت للرحيل، مما جعله ينهض بدوره سريعًا، ويطلب من والدها السماح له بالذهاب، حَمدًا لله فمجيء سمر لم يجعل الحديث يطول بينهما أكثر.

ودع أمير وسمر الوالد مع قدوم الوالدة، طالبة من أمير الانتظار قليلًا حتى يروي ظمأه في هذا الحر الشديد بشيء، لكنه أبى أن يظل، وقام بإلقاء السلام عليهما، والذهاب.

❐❐❐

يقود أمير السيارة وبجواره سمر، يأمل أن تتحدث ويسمع صوتها، تشتهي أذناه سماع حديثها العذب، رغب في احتضانها، يتطلع إليها بالمرآة كل قليل ليراها ولكن دون جدوى فهي تلتزم الصمت، وتطلع إلى الشوراع حولها.

وسؤال يتبادر إلى ذهنه، ألم تشتاق إليه كما يشتاق إليها، حنق حين تذكر انشغال هاتفها، وثار وهو يتطلع إليها ويضغط بيده المقود:

- لماذا لم تردي على اتصالاتي؟

- .....

عندما وجد السكون منها.. شعر بنبض العروق تنبض كأنها ستنفجر، فقال بصوت منفعل:

- أنا أتحدث إليكِ، أخبريني، لماذا لم تردي عليَّ عند اتصالي بكِ؟!

دمعت عيناها من جديد، وانقشع غشاء جمودها وصلابتها، تذكرت حين دخل

عصير الكتب

عليها والداها وطلبا منها الانضمام إليهما بالأسفل، وقتها لم تأخذ الهاتف معها، فكان كل ما تفكر به أن لا يريا الدموع بعينيها!

ولكن بأي حقٍّ يستجوبها؟! أليس هو من تركها منذ الصباح دون مكالمة واحدة؟! ألا يدري ماذا فعل بقلبها طيلة اليوم وهي ترجو منه الاتصال وسماع صوته ولو لمرة واحدة؟!

شعر أمير بالغضب وأوقف السيارة بصورة متهورة، ثم جذب سمر من كتفها إليه، وعندما رأى الدموع بعينيها، تراخى عن حدة يديه على كتفيها، وبددت تلك الدموع ما يحمل من وعيد، ابتغى أن يأخذها بين أحضانه يطمئنها ويعتذر إليها عمّا بدر منه بحقها منذ البارحة، اشتاق إلى عينيها ونظراتها وعفوية حديثها، اشتاق إلى ضمة صدرها، إلى قلبها، وشعوره باللذة داخل أحضانها، ولكن لا يمكنه، لا يمكن أن يتناسى الجرح الذي حدث منها، فسمر خانته، بالفعل، قامت بالأمر الذي أخبرها أنه يغفر كل شيء لمن حوله إلا هو الخيانة!

وهي التي ما أحب أحدًا مثلها بتلك الحياة، فأخذ يضغط ذراعيها من جديد، ويطلب منها الإفصاح عن سبب عدم ردها عليه، ولماذا هذا الوجوم بشخصيتها؟! ثورته عليها لم تكن شيئًا أمام اشتياقه إليها!

رمقته باستغاثة أن يعفو عنها، لا يمكن تحمل هذا الوضع أكثر، لا يمكنها تحمل حديثه، وأفصحت أخيرًا بصوت مَهيض:

- هذا الشعور يفطر قلبي، يفطر قلبي يا أمير وأنت لا تشعر، تزيد من قسوتك دون النظر إليَّ، ماذا حدث يا عزيزي؟! ما الذي بدلك عليَّ هكذا؟! أين ذهبت؟!

طريقة تحدثها أعيته، كيف يوصلها بيده إلى تلك الحالة من البؤس، لم يشعر بنفسه إلا وهو يدير محرك السيارة سريعًا والذهاب بها إلى المنزل.

ترجل من السيارة، وهو لا يتحمل صوت نحيبها، ذهب باتجاه مقعدها منكس الرأس، فتح الباب، وأدام النظر إليها بِودّ.

لم تصدق ما رأت بعين أمير، تلك المصافاة وذلك اللطف، كانت متيقنة أنها ودعتهما إلى الأبد.

مد يده إليها كي ينهض بها، مكثت بمكانها تخشى أن تستيقظ من هذا الحلم الرائع، أمير عزيزها يقدم يده لتمسك بها، يعود لرقته السابقة يا للقدر! هل ستصالح نفسها من جديد و يضحك لها قدرها؟!

أمسكت بيده وحين همت بالنهوض رمت نفسها داخل أحضانه وأخذت تنتحب، طوق جسدها بذراعيه ليجعلها تشعر برفقه، و يشعر بدوره بحنانها، أرادت أن تسأله: لِمَ كل ما حدث، وما سبب تغيره وقسوته عليها؟ ولكنها أجشهت بالبكاء فقط، حملها بين ذراعيه قبلها بحنو على جبينها، اختبأت داخل أحضانه وهي تتعلق برقبته، ودلفا إلى داخل المنزل.

❐❐❐

عصير الكتب

(7)

«حياة زائفة وقلب لم يستطع أن يهنأ بسعادة مؤقتة، فمن الجاني، الأشخاص أم الظروف؟!»

وضع أمير سمر بالفراش منذ حمْلِه إياها من السيارة، سحب عنها حجابها، أمسك بخصل شعرها المطايرة على وجهها، تطلع بها وكأنه أول مرة يراها.

لمعت العبرات داخل عينيها، وهي تطلع إلى عينيه الممتلئة بالحُب، وحين سالت على وجهها.. مسحها أمير قائلًا:

- لا تبكي.

نظرت إليه وهي تؤكد ببشاشة وجهها أنها سعيدة، قائلة:

- لا أظن أنني سأشعر بذلك الشعور مرة أخرى، حقًّا أنا أعيش فقط على نظراتك إليَّ.

أحاط أمير جسد سمر بيديه، غمرها داخل أحضانه، شعرت بالطمأنينة تسري داخل قلبها فبثت الراحة إلي قلبه، وبعد قضاء ليلة هادئة عطوفة مُحبة.. شعرا فيها بالتقارب كالأيام السابقة.

تساءلت سمر بشيء من الحيرة، قائلة:

عصير الكتب

- لماذا يا أمير؟

انزعج أمير وفطن إلى ما تشير إليه سمر، فطلب منها المعذرة لأخذ حمامًا، سحب يده من تحت رأسها، وتركها والضياع والغُموض يسيطران على عقلها من جديد، يجب أن تعرف سرَّ تغيره المفاجئ ورجوعه مرة أخرى المفاجئ أيضًا، ولكن قلبها يخبرها أن لا تفعل وتضيع على نفسها ذلك الإحساس، ولكن عقلها وكرامتها يطلبان منها أن تفعل وتعلم ما الذي حدث معه، ولكن هل يمكنها أن تترك عقلها وكرامتها يفقدانها أمير؟!

«كيف للعقل أن يصمد و إشارات القلب تضخ بنبضها وولعه بكل أوردة الجسد، فيا و يل قلبٍ مفقود بجوف العشق!».

❐❐❐

مضى أسبوعان حياة روتينية يغيب عنها أمير و يقسو و يعود من جديد، علاقة يغلفها الغموض ولا تملك سمر وضعفها إلا انتظار معرفة ما يدور معه دون جعله ينفر و يبتعد عنها.

ترك أمير ثيابه من يده، بعد رجوعه من العمل، عندما أخبرته سمر أن سها تنتظرهما بالأسفل، والسهر معهما هذا اليوم أيضًا، احتدت نبرة صوت أمير وهو يأخذ ثوب نوم من خزانة ملابسه، قائلًا:

- ماذا يحدث؟! حقًّا ماذا يحدث؟! أصبحت تأتي إلى منزلنا يوميًا، لا أحب هذا!

- هذه صديقتي يا أمير.

ضاقت عيناه مصوبًا نظرةً إليها، وقال بصرامة:

- وأنا زوجك، ولا أُحب تلك الزيارات المتكررة، لم أعد أُحِسّ بأنني بمنزلي، أرجوكِ يا سمر أوقفي ذلك التداخل، أنتِ تعلمين أنني أحب الحياة الخاصة!

ارتجف قلب سمر وهي تنظر إليه، مرتديًا ملابس النوم و يستلقي على السرير، متسائلة ألن ينضم إليهما على الأقل؟! فزاد سخط أمير وهو يصيح:

- أخبرتك لا أحب تلك العلاقات، وأنتِ يجب أن تضعي حدًّا لها، تصبحين على خير.

وقفت سمر وهي تشعر بالضياع، لا تعلم ماذا تخبر سها عن أمير إذ إن سها أخبرتها أنها رأته يسبقها إلى الداخل قبل قدومها ولكنها لم تستطع مناداته، فبماذا تخبرها الآن عنه؟!

- ما هذا المأزق؟!

قالتها لنفسها، وهي تفكر في عذرٍ قويٍّ تخبر به صديقتها بشأن تغيب أمير عن سهرتهم اليوم! وخلق عذرٍ لكي لا تجعلها تأتي غدًا، وانقبض قلبها حين فكرت بالأمر، فهي تعلم كيف تململت سها باليومين اللذين ذهبت فيهما سمر إلى عائلتها، كيف الآن ستجعلها لا تأتي إلى منزلها غدًا؟ ما ذلك العذر القوي؟ وكيف تستطيع أن تفعل وهي أكثر الناس إحساسًا بما تعانيه؟! حتى إن لم تخبرها عن سبب انفصالها عن عمرو، فهي تعلم تمام العلم أن سها صديقتها الوحيدة تتألم ولا يمكنها خذلانها والتخلي عنها! وأيضًا لا يمكنها تكدير صفو حياتها، فتقلبات أمير معها أكثر من لحظات رضاه.

ما هذا الاختبار القاسي؟! كيف الاختيار بين الصداقة والحب، وكلاهما يخفق القلب بشدة من أجلهما ؟!

❐❐❐

احتدم مصطفى غيظًا وهو يجلس بجانب محمد يتناوبان كالعادة بمكان حراستهما، قائلًا:

- كيف يمكنني أن أهدأ، وشقيقتي الآن في أسعد يوم في حياتها؟ أسبوعين؟! أسبوعين يمنعوننا من رؤية عائلاتنا وعدم أخذ إجازات بدعوى أن البلد حالتها غير مستقرة؟! ما ذنبي أن أُحرم يومًا كهذا، ما ذنبي؟!

أدرك محمد الأسى الذي يشعر به مصطفى، فحاول أن يتحدث معه ويطمئنه أنه سيعمل على أن يأخذ إجازة قريبًا جدًا، سوف يتحدث مع أحد عائلته وسوف يأخذ إجازته قريبًا.

أثرت عكسيًّا محاولات محمد بالتقليل من ثورة مصطفى، فقال ثائرًا:

- أنت يا من لا يحبك أحد سوف يسمعون منك، لا، أشكرك لا أريد مساعدة، سوف أرى الملازم سعيد بمنتصف الليل وأطلب منه.

تأثر محمد من حديث مصطفى، منذ تعرف محمد إليه وهو يعلم أنه حاد الطباع وطريقته لا تعرف اللطف، لكنه لم يتوقع أن يقسو عليه بتلك الكلمات الحادة فلقد ظن أنهما أصبحا صديقين.

انتبه مصطفى لمحمد وطريقة حديثه الجافة واعتذر إليه، فلا يعرف كيف قال ذلك! وأيضًا مصطفى يدرك ما أهميته بالنسبة إليه، ولكن ترك عائلته بيوم كهذا لا يمكنه تحمله، يشعر بالتمزق من داخله، فعندما أخبرته والدته عن طلب عمه شقيقته ريم، لماجد ابنه، سرَّ قلب مصطفى كثيرًا لهذا الطلب، فهو يعلم جيدًا خُلُق ماجد الحسن، ويراه شخصًا رائعًا لشقيقته، وعندما أخبر الضابط أكد له أنه سينظر بالأمر ويجعله ينزل إجازة قريبًا، ولكن هذا لم يحدث، وداخله يقين أنهم يشعرون بنقص الفرحة الآن لأنه ليس بجانبهم.

قال محمد وهو يشعر بالآسى على حال مصطفى، فلم يؤلمه ما صدر عن مصطفى من تجريح له، بل يؤلمه ما يحدث داخل صديقه من صراع ولا يستطيع مساعدته:

- صديقي لا تحزن، يكفيك أن شقيقتك الآن سعيدة، هذه الفرحة كفيلة أن تنسيك كل حزن.

- أتمنى لها السعادة، ولكني أشتاق إليهم، أشتاق إليهم وبشدة.

تساءل محمد بعفوية أكثر، وقال:

- عندما سألتك بالسابق لماذا لم تستغل أمر أنك العائل الوحيد لعائلتك، بأن لا تخدم بالجيش شعرت بأن هناك شيئًا خفيًّا، هل أنا على صواب؟

عقد مصطفى حاجبيه، وقال بشيء من الأسى:

- أجل، وكيف أخبرك بأن شقيقي الأكبر عندما وقع والدي لم يأتي لزيارتنا ولو لمرة واحدة.

- غير معقول!

- صدقني، أخي حسام ليس من والدتي، ابن أبي من زوجةٍ أخرى، توفيت قبل زواجه والدتي بوقت قصير، من أجل شقيقي حسام.

- أجل.

تحرك مصطفى إلى لأمام وكأنه يحاول التقليل من سخونة جسده، واستطرد:

- حسام لم يُحب والدتي يومًا، لم يعاملها كما يجب، كان يوقع بينها وبين والدي دومًا، لم يترك شيئًا لإثارة غضبها ولم يفعله، ولكن والدتي كانت تقابل هذا بطيبة وهذا ما أخبرنا به والدي عندما كُنا نتساءل لماذا يكره حسام أمي ويكرهنا جميعًا بهذا الشكل؟!

تابع مصطفى متأثرًا:

- عندما انتهى من جامعته وأنهى أوراق خدمته العسكرية أسرع بإنهاء أوراقه والسفر إلى الخارج وتزوج امرأة من هناك.

عصير الكتب

- أجنبية؟

- لا، سورية.

- يقبر قلبي! يا له من محظوظ!

عبس مصطفى من مزح محمد، فما يتحدث بشأنه لم يكن ينوي إخبار أحدًا عنه أبدًا، ولكن حالته الآن سيئة جدًّا ويحتاج إلى التفوه ببعض الأمور كي لا ينفجر، فاعتذر محمد إليه وطلب المتابعة، مؤكدًا أنه لن يفعل هذا الأمر من جديد، فأضاف مصطفى:

- وقت عملية والدي.. طلبت مني والدتي التحدث مع حسام و إخباره أن والدنا بحاله خطيرة.

- وفعلتَ؟

- بعد معاناة من والدتي، لم أكن أريد له التدخل بحياتنا من جديد، فكنت أرى كم تعاني والدتي ووالدي أيضًا منه ومن طريقته الفظة وخشونته.

همهم محمد بصوت خفيض:

- وكأنه وحده هكذا، يبدو أن العائلة جميعها فظة!

- ماذا؟!

- لا شيء، أكمل.

- وقتها فعلت من أجل أمي واتصلت بِه، وليتني ما فعلت.

- لم يأتِ؟

- ليت هذا كان كل ما حدث!

- ماذا إذًا؟

عصير الكتب

- عندما حدثني، قال هل مات الوالد، هل آتي لأخذ ميراثي؟!

- نعم؟!

- صدقني هذا ما قاله بالحرف.

- وبمَ أجبتَه أنت؟

- قلت له بأنني هاتفته من أجل أمي لأنها أصرت عليَّ، وبأنه شخص لا يستحق أن يكون ابنًا من تلك العائلة، وقتها فقط كنت أستعد لأصبح مصطفى الذي تشاهده الآن وأتحمل جزءًا من المسؤولية.

- معذرةً يا صديقي، لم يعد الدمُ يصل الناس بعضهم ببعض، إنما صارت الدماء ماءً.

- لم يقتصر على هذا يا محمد، بالفعل أتى لأول مرة إلى مصر منذ أكثر من ثلاث سنوات، ليأخذ ميراثه ويذهب، وفعلت أنا ووالدتي هذا أعطيناه حقه كي لا يجرح والدي بتصرفاته حينها.

- يا الله على هذا الابن الجاحد!

- سوف يرد له، كل دائن يدان.

- معك حق، آسف يا صديقي.

- هل أخبرك بالجزء الأعظم من القصة؟

- ماذا؟!

- أمي، تلك التي كان يعاديها ويعاملها معاملة زوجة الأب الغريبة، إنما كانت في الواقع شقيقةَ والدتِه.

- هل تعني أن والدتك ووالدة حسام شقيقتان؟!

عصير الكتب

- أجل.

- وكان يفعل هذا على الرغم من ذلك؟

- .....

- يا الله، ليتني ما سألت!

- هل علمت أنه من الجيد ترك بعض الأمـور بلغزها حتى لا نصدم مما سيكشف.

- لغز أنت وعائلتك حقًّا.

ابتسم مصطفى من كلمة لغز، مازحًا مع محمد، لمَ لم يتركه بلغزه هذا، وكيف أنه متطفل بشكل كبير! متغاضيًا عما هاجمه من ذكريات سيئة، محاولًا بمشاغبته، التخفيف عن صديقه.

❐❐❐

انضمت سمر إلى سها التي وضح عليها الضيق من كثرة الانتظار

وحين رأت سها سمر تأتي بمفردها، استخبرت دون وعي إلى طريقة عرض سؤالها، وقالت بلهفة:

- ألن ينضم إلينا أمير؟

لم تلمح سمر اللهفة الواضحة بصوت سها، ثقتها بها كانت أكبر من رؤية بعض الحقائق المؤكدة حولها، فأردفت:

- لا عزيزتي فهو مُتعب من العمل اليوم، وأخلد إلى النوم.

تأففت سها وابتغت على الأقل أن ينضم إليهما على العشاء، فنظرت على الدرج من جديد متسائلة:

عصير الكتب

- ألن يتناول الطعام على الأقل؟!

اضطربت سمر من سؤال سها، هي تعلم أن صديقتها تهتم بزوجها أمير كشقيق لها، وحز بقلبها أنه لا يبادلها هذا الشعور، فهو لا يريدها أن تتردد عليهما هكذا!

فخاطبها عقلها: مسكينة يا عزيزتي ليته يرى كم أنتِ رائعة وتحبينه، ولكنه لا يريدك ولا يريد وجودك بحياتنا!

وحين شرود سها بوجه سمر وانتظار ردها، هتفت مبتسمة:

- أمير، مرحبًا.

دهشت سمر لحديث سها ونظرت حيث تنظر، فوجدت أمير بالفعل يرتدي ثيابًا رسمية، فغرت فمها، ورف رمشها، قائلة:

- حقًّا إنه أمير!

وتساءلت بذهول:

- هل ستخرج يا أمير؟!

تجاهل أمير سمر، وتفاعل بشيء من الحدة مع سها، قائلًا:

- مرحبًا يا سها.

❐❐❐

تأملات ماجد وريم كلٌّ منهما إلى الآخر، من حين إلى الآخر، تفشي ما بداخل قلبيهما، مع الجو العام البسيط والحفلة المنزلية الهادئة.

نظرات الاثنين تجعل القلوب حولهما تخفق من أجلهما، وما ينقص اليوم بشهادة الجميع وجود الابن الرائع مصطفى.

وسط انشغال الجميع، طلب نعيم التحدث مع سعاد، فجلسا على انفراد بأحد أزقة المنزل وفي مرمى بصر الجميع.

سكن نعيم للحظات وهو ينظر لابنته إسراء ثم تأمل ريم وماجد والسعادة تملأ وجهيهما وأردف:

- لن أطيل الحديث عليكِ، تعلمين أنا لا أحبذ كثرة الكلام.

فقالت وهي تتورد قلقًا:

- أعلم ولكنك أقلقتني، هل حدث شيء؟

راقب نعيم من موقعه إسراء ابنته، الابنة المدللة، قائلًا:

- لم يأت مصطفى لأحدثه بالأمر الذي أردته، فسأفعل معك علكِ تستطيعين أنتِ إبلاغه بما أريد.

لاحظت سعاد معاناته بالتحدث فازداد قلقها، ما هذا الأمر الذي يرغبه من مصطفى ويحيره هكذا، تتوق أن تتبين ما يدور بخلده:

- يقول المثل قديمًا اخطب لابنتك، وأنا أردت أن أفعل ذلك مع مصطفى ابني و إسراء ابنتي.

خرع قلبها، من أن يكون ما حصفته منه حقيقيًّا، وحدقت بإسراء لدقيقة ثم رمقته بذعر، عله لا يقصد ما استنتجته.

شرد ذهنها لم تعُد تدرك ما يحدث حولها، لمَ سعادتها عزيزة هكذا؟! سعادة ناقصة، صورة باهتة، حياة مؤلمة، قدر يقسو، لكن سيستمر الرضا، بمشيئة الله!

وعيون من بعيد تتأملهما، وتشير إلى نعيم! ماذا حدث؟! فهز رأسه أن كل شيء على ما يرام، ابتسمت زوجة نعيم واقتربت من ابنتها إسراء وهي تقبلها وتتمنى لها أن تراها قريبًا أجمل عروس.

همهم نعيم متابعًا:

- أريد أن نزوج إسراء ومصطفى أيضًا، أتمنى ذلك، وأعلم أنكم لن تمانعوا، صحيح زوجة أخي؟

تغيرت تعبيرات وجهها، لم تسعفها كلماتها، تخلت عنها ابتسامتها المجاملة، حدقت إليه، حتى أنقذتها صوت إحدى المدعوات، بأنها راحلة، وتريد توديعها، اعتذرت سريعًا إلى نعيم، وذهبت، خطواتها بطيئة، خائفة، حزينة، متسائلة، لماذا يجب على السعادة أن تكون بثمن باهظ؟! كيف ستخبر مصطفى بطلب عمه، وكيف سيكون رد فعله؟!

تطلعت إلى ريم وماجد بضياع، ما مصير تلك السعادة على وجهيكُما عزيزيَّ، ماذا تخبئ لنا الأيام؟!

❐❐❐

رُسمت ابتسامة واسعة على شفاه محمد عندما علم أنه سيأخذ إجازته بالغد، في حين عبس وجه مصطفى لأن إجازته ستكون بالأسبوع المقبل، وهدأ محمد من سعادته عندما رأى بؤس صديقه وطلب من الملازم سعيد بشكل وديّ أن يأخذ مصطفى معه إلى بيته.

فاعتذر سعيد إذ لا يمكنه تحمل مثل هذا الأمر، فهم في خدمة عسكرية وليس نزهة.

فشعر بالحزن عندما رأى نظرات صديقه مصطفى، وفطن إلى مدى التعاسة التي يشعر بها.

❐❐❐

ظلت سمر تنظر إلى أمير وهو يتحدث مع سها، صدمت عندما سمعته يخبر سها بحنو ملحوظ بصوته وعطف بعينيه:

عصير الكتب

- لم أستطع النوم، فأردت أن أنضم إليكما، كيف حالك؟

عندما أطالت سمر النظر بأمير شعرت للوهلة الأولى بأنه متحول، ولكن كيف له أن يتغير بتلك الدقائق القليلة بهذا الشكل؟! ماذا حدث ليجعله يأتي إليهما و يتحدث بهذا اللطف مع صديقتها؟! ولكن بترت دهشتها سها وقولها:

- كنت سأحزن كثيرًا لو لم تنضم إلينا على العشاء!

أدرك أمير ما أراد رؤيته وتأكد منه بنظرات سها، هذا ما شعر بضرورة اللعب عليه، ورد الصاع إلى سمر!

(عودة بالزمن إلى خمس عشرة دقيقة)

عندما ذهبت سمر إلى الأسفل، نهض أمير من على الفراش كي يضع هاتفه ليزوده بالطاقة، وحين البحث عن مزود الطاقة بأحد أدراجه وجد ما يخفيه منذ فترة وحاول تناسيه، تطلع والغضب يكسو وجهه، فكيف له أن ينساه؟! فمجرد رؤية سمر ورائحتها، حتى كلمة أحبك تذكره بخيانتها، فتح القلادة وتأمل الصورة الموضوعة بداخلها، هذا الفتى الذي علم منذ خطبتهما بأنها كانت ترتبط به بشكل عائلي بسيط، ولكن ما معنى أن تظل محتفظة بقلادة تحمل صورته سوى أنها ما زالت تُكن له المشاعر التي لم يستطع أمير أن يملأها، كيف أمكنها خيانته هكذا، وهو لم يحمل داخله سوى الحُب لها؟!

(الواقع)

أمير يجلس مع سمر وسها على مائدة الطعام، نظراته إلى سها ناعمة مما بعث السرور والراحة إلى قلبها، تطلعات أمير بسها تأكل قلب سمر ولا تَعلم السبب! فمن المستحيل أن تغار من صديقتها، فهي منذ قليل فقط كانت تتألم من بغض أمير لها، ولكن ما تلك النظرات الحنونة بينهما؟!

عصير الكتب

على حين غرة، علا صوت أمير وهو يطلب من فايزة الخادمة أن تأتي، فتساءلت سمر ماذا يريد منها، ولكنه تجاهلها وتطلع بفايزة طالبًا منها أن تشغل أسطوانة الأطلال، وهو يقول متأملًا سها:

- أنا أحب تلك الأغنية كثيرًا، خصوصًا وهي تقول:

يا حبيبي كل شيءٍ بقضاء ما بأيدينا خُلقنا تعساء

ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعد ما عز اللقاء

فإذا أنكر خلٌّ خلهُ وتلاقينا لقاء الغرباء

ومضى كلٌّ إلى غايتهِ لا تقل شئنا فإن الحظَّ شاء

شعرت سها بشيء خفي وراء كلماته تلك، تسللت إلى قلبها الظنون، هل من الممكن أن يقع أمير بحبها؟! لقد تمنت ذلك كلما رأته، ولكن كانت كلما رأتْهُ يدللُ سمر.. أدركت مدى صعوبة الأمر، ولكن تلك الكلمات، وهذه النظرات، كل شيء يقول إن أمير بدأ ينجذب إليها.

ابتسم أمير حين رأى تلك النظرة الضائعة بعيون سها، في وجود سمر و إحساس العجز الذي كسا قلبها والاضطراب والتشتت بعقلها.

❐❐❐

انتهت حفلة الخطبة والعمل الشاق ينتظر الجميع بالغد.

ماجد وريم يجلسان معًا بعد ذهاب الجميع، ومعهما محمود الصغير حتى لا يختليا. تتشدد سعاد على تلك الأخلاق الدينية بحياة أبنائها.

تقف سعاد بغرفة تحضير الطعام تحضر العشاء للعروسين، يبدو عليها الضياع، وكل ما تفكر به! ماذا ستفعل مع مصطفى وكيف ستكون ردة فعله، هي تُحب إسراء، ولن تجد الأفضل منها لابنها، ولكن الأمر هنا بيد ابنها ولا تريده أن

يشعر أنه مضطر من أجل شقيقته، هل من الممكن أن يتقبلها زوجة، أم يراها شقيقة فقط؟!

بدد شرودها صوت محمود وهو يطلب منها الطعام، والإخلاد إلى النوم.

نظرت إليه وصوت ابنتها الصغرى حُرة تخاطبها:

- أمي، أناديكِ للمرة الثالثة، لِمَ أنتِ شاردة هكذا؟!

- حبيبتي لا شيء، هيا لنقدم للخطيبين العشاء.

- حسنًا.

طلبت سعاد من حُرة تقديم بعض الطعام لمحمود وإطعامه حتى تنتهي من المائدة وتدخله إلى الفراش.

❐❐❐

في أثناء جلوس سها مع أمير وسمر سمعت صوت هاتفها

تناولته من حقيبتها، واضطربت عندما رأت رقم والدتها، ابتعدت عنهم قليلًا، في حين قام أمير بخفض صوت الموسيقى قليلًا، ونظرات سمر تتابعه بفضول وتوتر.

سمع أمير صوت سها، وهي تقول:

- حسنًا يا أمي سوف آتي ولكن لا تنفعلي بهذا الشكل... حسنًا حسنًا، ابعثي شقيقي ليأخذني... لا، أنا بدون سيارة، قال لي إنه سوف يأخذها... حسنًا سأتحدث معه،

وقاطعها صوت أمير، وهو يخبرها بأنه لا داعي للقلق:

- سوف يقوم هو بإيصالها.

اعتلت الدهشة وجه سمر وهي لا تستطيع استيعاب ما يحدث حولها، تشوش عقلها، فمن هذا الذي يتحدث؟! أمير تغير بآخر أسبوعين كثيرًا، ولكن ليس إلى هذه الدرجة من التحول، فكان منذ قليل يطلب منها أن تقل من تردد سها عليهما، ثم يتحول بهذا الشكل الراقي والرقيق، وأيضًا يطلب توصيلها؟! ماذا يحدث؟! ما الذي يجري؟!

تورد وجه سها وهي ترمق عينَي أمير، وقالت بسعادة ملحوظة لوالدتها عن طريق الهاتف:

- أمي، سوف يقوم أمير بتوصيلي، وداعًا.

أغلقت الهاتف ووالدتها تتحدث.

نظرت سمر إلى أمير وقالت:

- سوف أرتدي حجابي ونذهب.

امتعض أمير، غير موافق على ذهاب سمر معهما، قائلًا:

- سوف أوصلها وأعود سريعًا لا داعي لأن تأتي.

مع تتابع سها لتفحص نظرات سمر وتطلعات أمير بها، خفق قلبها عندما شعرت بالتوتر بينهما.

أخذت حقيبتها وودعت سمر بقبلة على وجنتها، وذهبت سريعًا مصاحبة أمير، حينها شعر أمير بالرضا لما وجده على وجه سمر من غيرة وحزن، فليته يستطيع إذاقتها بعض ما عاناه معها.

□□□

تأمل مصطفى إلى أعلى الغرفة وهو يستلقي على فراشه، وصوت محمد كالعادة من جانبه قائلًا:

عصير الكتب

- لا أستطيع التصديق أنني سوف أرى عزيزتي شروق غدًا.

ابتسم مصطفى وهو ينهض ويتوسط وسط السرير وينظر إلى محمد جانبه وقال بصوت خفيض:

- هل تحبها بهذا الشكل حقًّا، هل هناك بالفعل حُب عظيم هكذا؟

ابتسم محمد وهو يرى لهفة مصطفى التي يراها لأول مرة منذ صداقتهما، فاستوى وسط الفراش بدوره، وقال:

- وكيف لي أن لا أفعل، حبها بريق يلمع داخل أعماقي، يأخذ بيدي بأشد محناتي، يعزز من ثقتي بنفسي، يسلبني سيئاتي، يضيف إلى رصيد إنجازاتي، هي امرأة خُلقَت لتبث بالحياة حياة أخرى تنساب بين خصل شعرها الأهوج وتزين ببشاشة وجهها يومي.

أما عن الحب العظيم..

فحين تشعر أن هناك من يراك بأبشع صورة صورها لك البعض، وسعى جاهدًا ليبرز أسوأ ما فيك، حتى فقدت الثقة أن هناك من سيراك يومًا بصورة جيدة، ثم تأتي هي وترتفع بك إلى القمة، وكأنك تبدلت فلست أنت نفس الشخص ولا شيء تغير بك! أنت أنت، ولكن تنظر إلى نفسك بعينيها هي، فتشاهدك أفضل مما أنت عليه، فلا شيء أعظم من هذا!

- الله!

- امرأتي أنا غير كل النساء، امرأة تبعث داخلك أبهى صور الحياة.

- أتمنى لك دوام السعادة، حقًّا.

- و إياك.

عصير الكتب

ابتسم مصطفى، وهو يتذكر عائلته، وشقيقته ريم بجوارها ماجد، والابتسامة التي تعلو وجه والدته، وأردف:

- أنا أيضًا سعيد جدًا جدًا.

❐❐❐

ثبتت سها عينيها على يدي أمير وهو يتحكم بمقود السيارة، تمنت لو يتحدث وتسمعه، فلو يمكنها قول ما يدور بخلدها.

باغية منه أن يفعل شيئًا يجعلها تفصح عن مكنون ما تحمل بقلبها، ولكن هذا لم يحدث، طول الطريق و يبدو على أمير العبوس، كمن أتى رغمًا عنه، وتناقض واضح بين أمير الذي كان بالمنزل ولهفته لإيصالها، وهذا الساكن جوارها.

لم ينظر إليها ولو لمرة واحدة وقد أوشكت على الوصول إلى منزلها، يجب عليها أن تتحدث هي، فتلك الفرصة لا تعوض، ثم استطردت:

- أشكرك على توصيلي.

لم ينظر إليها، قال وهو يتابع القيادة:

- لا بأس، أنا أردت الخروج قليلًا من المنزل.

تملك قلبها الفضول وأرادت الاستعلام عن سبب تغيره، فقبل ذهابهما كان حنونًا جدًا، ولكنها لم تجد الكلمات المناسبة، فقالت:

- هل أنت على ما يرام؟

- أجل.

إجاباته المختزلة أشعرتها بالضيق، لا يمكنها بعدُ، الاسترسالُ في أسئلتها، توقفت عن طرح الأسئلة وهي تنظر إلى الشوارع القريبة من منزلها.

عصير الكتب

وبعد ثوانٍ سمعته يقول:

- لِمَ طُلِّقْتِ يا سها، كيف كانت الخيانة؟!

فزعت سها من طريقة سؤاله، لم يوفَّق في عرضه بحيث يمكنها الإجابة عليه، تمنت كثيرًا أن تتحدث معه، ولكن ليس بهذه الطريقة الفظة!

نظر أمير إليها سها عندما وجد منها السكون، فوجد الدهشة على وجهها، وتابع:

- آسف، يبدو أنني تجاوزت.

- لا لم تتجاوز، لكنك لم توفق في طرح سؤالك يا أمير، لماذا تقول خيانة؟!

فابتسم أمير، مما جعلها تشعر منه بالسخرية تجاهها، وأصغت إليه يقول:

- أنا أعلم جيدًا أن كلًّا منكما يحب الآخر. أن يحدث الطلاق بهذه السرعة.. استنتجت منه أن أحدكما علم بخيانة الآخر.

لم يعد الموضوع مجرد سؤال، فأمير يلمح أن سها أيضًا بها الشك، هو يرمي أن هناك خائنًا، وهي من ضمن احتمالات الخيانة، فطلبت منه الوقوف على جنب.

نظر إليها مستغربًا:

- يبدو أنني أزعجتك.

- لا لم يحدث، ولكننا وصلنا.

عاين أمير المكان حوله، هم بالفعل بشارع سها، ولكنه لم يصل إلى البيت بعد، أردف:

- لم نصل إلى منزلك بعد.

- لكنني أريد النزول هنا، لو سمحت قف.

عصير الكتب

- حسنًا.

ونظر إليها وهي تترجل من السيارة قائلًا:

- وداعًا.

تأملته وعيناها تحمل العبرات، وقالت:

- أشكرك على توصيلي.

عندما رأى الدموع بعينيها.. شعر بالذنب، فيبدو عليها الانهزام، وحاك قلبه شعور الرأفة، فقال بصوت راجيًا:

- لم أقصد مضايقتك، سامحيني.

شعرت سها بالندم بصوت أمير، الأمر الذي جعلها تجلس مرة أخرى بجانبه، وتطلب منه الذهاب بهما إلى مكان هادئ، لتقص عليه شيئًا هامًّا، مما جعل أمير يحدق بها غير مصدق ما تطلب، الوقت متأخر، كيف تطلب منه الذهاب إلى مكان هادئ بهذا الوقت، ووالدتها تنتظرها؟!

- ولكن.. ألن تقلق والدتك؟!

- لا يهم، أنا أريد أن أفرغ ما بداخل قلبي، ولا أجد أفضل منك لأفعل معه ذلك.

أدار أمير محرك السيارة، وعكس طريقه للذهاب إلى مكان أخر، وكله لهفة لمعرفة ما ستقص عليه.

❐❐❐

أكثر من نصف ساعة وأمير غائب عن المنزل، إحساس الغيرة يأكل قلب سمر، شعور مقيت يتسلل إلى قلبها يسلبها سلامها وثقتها، فما يحدث بهذه الليلة لا

عصير الكتب

ينذر بالخير، خصوصًا تغير أمير معها وتحوله طيلة الفترة الأخيرة، ولكن إن فُقدت الثقة بأمير هل يمكنها فقد الثقة بعزيزتها سها؟!

هزت رأسها بالنفي، قائلة بصوت يصل إلى أذنيها:

- لا، لا يمكن، سها أنا، صديقة عمري وشقيقتي، أنا أثق بها أكثر من نفسي.

وشرد عقلها بأمير وبالفترة الماضية، كيف تحول، وأصبح شخصًا غريبًا؟! تحوله إلى شخص هادئ وحاد بنفس الوقت، تقلباته المزاجية والتي تؤدي إلى عنف التعامل، ماذا يحدث معه، متناسية تمامًا قلادتها، فتحولات أمير أفقدتها القدرة على التفكير بعقلانية ببعض الأحيان.

❐❐❐

السكون يملأ الأجواء، نظرات متلهفة من أمير لسها وما يحدث معها، رؤيتها وهي تجاهد وتتعرق أمامه، الصمت ذريعتها منذ ركن أمير بأحد الشوارع، جلوسها جانبه بالسيارة واضطرابها الملحوظ يشوقه إلى ما قد يصدر عنها، فتحدث بنبرة عطوفة ليحثها على التحدث بطمأنينة:

- أنـــ....

سمعها تتحدث فبتر كلمته كي يفسح لها المجال للتحدث بحرية، أخذت تحكي وهو ينصت بذهول، كيف يعقل أن يصدق ما تسرده، أحقيقي ما يستمع إليه؟! عمرو! مستحيل! ولكن لمَ الصدمة وهذه الدهشة، ما فعلته سمر يجعله يصدق كل شيء! فالملاك البريء خائن، ماذا ينتظر أكثر من الوجوه الأخرى، أصغى إليها جيدًا دون التفوه بكلمة، تابع الاستماع إليها وإلى ألمها، كيف تحملت؟! لماذا لم تقص ما عانته؟! لماذا هذا العذاب؟! لو كانت قالت شيئًا وقتها.. لكان كل شيء أصبح أفضل، وحين هم أن يتحدث، سمعها تقول:

عصير الكتب

- سامح وسمر...

ثبت عينيه على شفتيها وهي تقول:

- تعرفت إليه يوم خطبة سمر وسامح، لم أعلم أن كليهما متمكن من الخداع هكذا.

وتابعت بشيء من الدهاء والخِسة:

- لكن حظ سمر كان أفضل، فسامح عشقها حقًّا، حيث لم يستطع إيذاءها مثل ما حدث معي، وشخصيتها القوية ساعدتها أن يقع فريسة حبها، مثلما جعلني حبي هشة، يسهل تشكيلي.

أغمض أمير عينيه بألم، ثم اصطكت أسنانه، قائلًا:

- لماذا ترك سامح سمر، إذا كان يحبها مثلما تقولين؟!

شعرت سها بأن الفرصة أتتها على طبق من فضة، ويجب أن تستغلها أفضل استغلال، لتسلب سمر هذا الزوج التي هي أحق به منها، فقالت:

- لأن سمر جعلته لا يرى أنثي مثلها، كانت تفعل كل ما يجعله يتمسك بها أكثر، سمر ماكرة بتلك الأمور..

وتابعت وهي تلاحظه بقوة:

- وهل سأخبرك بما تفعله سمر، ورقتها؟!

قبض بقوة كف يده حتى تكاد تسمع فرقعة أصابعه، وبرزت العروق بوجهه، وأردف قائلًا:

- يجب أن نعود إلى المنزل، لقد تأخرنا!

وضعت سها يدها على يده القابضة، وقالت:

عصير الكتب

- سوف تظل جانبي يا أمير، أليس كذلك؟

هلع أمير حين لامست يده يداها، مما جعله يسحب يده سريعًا، فلا يمكن لأحد أن يلمسه سوى عزيزته سمر، لا يمكن لأحد وضع يده عليه سواها، لا أحد يملك ذلك الحق غيرها، وتحدث بنبرة يملأها الشجى:

- اطمئني سأكون بجانبكِ، رغم أنني لائم عليكِ في جزء، لماذا لم تخبرينا وقتها؟!

- بماذا أخبركم؟! هل يمكن للألم أن يسرد بكلمات؟

صمت أمير وأدار السيارة وتحرك، دون إضافة كلمة أخرى، وكل ما يفكر به سمر، وحبها هي وسامح الذي يستمر إلى الآن!

❐❐❐

عصير الكتب

(8)

«اجعل من عينيك معبرًا إلى الوجود»

عاطفة جيّاشة تجتاح قلب سها، حديثها مع أمير غزا قلبها بالسعادة، منذ ذهابها إلى زفاف سمر وأمير ابتغت أن تكون مكان سمر، وما حدث معها أكد ذلك، ليته فضلها وأرادها امرأته لمَّا عانت كل ما عانته.

وحِين دلفت إلى داخل منزلها، وجدت والدتها تنتظرها، وعيناها تطلقان شررًا، دخلت بهدوء، لم ترد أن يكون اليوم نهايته مأساوية، فسعادتها اليوم لم تُحِسَّها منذ فترة طويلة، قالت راجيةً:

- والدتي العزيزة، هل يمكنك تعنيفي غدًا، أرجوكِ، اليوم أنا بمزاجٍ جيدٍ، وأتمنى أن أنام هكذا.

زاد حديثها من سخط والدتها، يا لها من حمقاء! الكل يتحدث عنها وعن زواجها، وترددها المستمر على منزل صديقتها سمر، لقد وضعتها بموضع حرج وسط صديقاتها، حاولت التحكم بنبرة صوتها، وقالت بثبات:

- غدًا، لا خروج، لا مزيد من الزيارات إلى منزل سمر بعد الآن.

- ماذا؟

- تصبحين على خير، ألم تقولي بأنكِ تريدين أن تخلدي إلى النوم بمزاجٍ جيدٍ، سوف أتركك، ولكن خروج من المنزل بعد الآن لا.

- أمي، انتظري، لا يمكنك أن تحتجزيني بالمنزل.

ضحكت والدتها بسخرية:

- اختبريني.

شعرت سها بالحنق على والدتها، وعلى الظروف التي تُفرض عليها دومًا وتمنعها من نيل السعادة ولو قليلًا، فأسرعت إلى غرفتها وأغلقت بابها عليها بإحكام، وأخذت تفكر ماذا ستفعل، فيجب أن ترى أمير، لا يمكنها الغياب، ليس بعد هذا التقارب بينهما، لا أحد يستطيع منعها عما تنوي فعله.

❐❐❐

عندما سمعت سمر صوت أمير وهو يغلق الباب بالأسفل، تسطحت سريعًا على الفراش، وأخذ قلبها يخفق بقوة كلما اقترب أمير من باب الغرفة وسمعت اقتراب وقع قدميه.

عند دخول أمير لم تعد تعلم ماذا يحدث! لا يمكنها فتح عينيها، ليست بمزاج يسمح لها الآن بمجادلته، غضبها لا يمكنها السيطرة عليه ففضلت النوم على أن تعكر صفو هذه الليلة، شعرت بيده تلمس جسدها، وقبلة حانية تلمس وجنتها، مع بلل دافئ ينسكب على جبينها، وكلمة:

- لماذا؟!

صدرت عن أمير بكل أسى...

فتحت عينيها عليه، ووجدت ما شعرت به، أمير يبكي، فاستوت على الفراش في ذعر:

عصير الكتب

- عزيزي ما بك؟

ابتعد عنها سريعًا محاولًا إخفاء عينيه كي لا ترى الضعف بهما، وهذا الألم الكامن بجوفه على ما وصل إليه، فصاحت به متسائلة عن السبب:

- أمير، أخبرني ماذا حدث لك؟

لم يجبها وأخذ يتقدم نحو الحمام الملتحق بالغرفة حتى يختبئ كعادته بداخله، لكنها كانت أسرع منه وأمسكت بيده متسائلة بفزع:

- ما الذي يحدث معك يا أمير، ما الذي جعل عينَي عزيزي تذرفان الدموع، أخبرني.

تخيل لوهلة، أنه استدار إليها وأخذ ينهرها، متسائلًا: هل حقًّا تريد معرفة السبب؟ وأنها هي من قتلته، أماتت قلبه الذي هام بها عشقًا، وما كان جزاؤه إلا الغدر، ولكن هل يمكنه أن يكون ضعيف هكذا، أن تجرح رجولته بهذا الشكل، لا، لا يمكنه، لا يقبل أن يعترف أمامها أنه علم بعلاقتها الأولى، وبأنها طعنته بجنجر بارد، جذب يده من يدها ودلف سريعًا إلى الحمام مغلقًا الباب عليه، وهي تطرق راجيةً أن لا يغلق على نفسه:

- افتح لي يا عزيزي، أرجوك.

دقيقتان وفتح أمير الباب مرة أخرى، وأمسك بها من يدها مصطحبها بقسوة إلى الفراش، وأخذ ينتزع منها الحب بشهوانية، أخذت تبكي وتتوسل إليه أن لا يفعل ذلك مرة أخرى.

- لا يا أمير، لا تفعل.. أتوسل إليك.. لا تفعل، أنت تؤلمني بشدة، أرجوك اتركني، ما الذي يحدث معك؟! ماذا؟! أرجوك اتركني.. أرجوك.. أتوسل إليك.

لم يستمع إلى توسلاتها، العنف ترك حيوانيته تطغى على إنسانيته بتلك اللحظة

معصوب العينين عما يعذب زوجته! تلذذ بعذابها وتوسلاتها، أرضى غروره وكبرياءه المحطمة، واستلقى على السرير وغط في سبات عظيم دون أن يؤنبه ضميره ولو لثوانٍ.

❐❐❐

في صباح اليوم التالي..

عندما استيقظ أمير من النوم وجد خزانة ملابس سمر مفتوحة على مصراعيها، حدق جيدًا، نظر إلى الغرفة لا وجود لسمر، نهض سريعًا من الفراش وأخذ يناديها، وحين همَّ بالنزول وجدها تجلس في شرود متأملة المنزل وبجانبها حقيبتها ويبدو أنها تنوي الرحيل.

فناداها بلهفة:

- سمر!

نظرت إليه وعيناها يملأهما العتاب والانكسار والذل، شعور بالحنق على ما آلت إليه الأمور بينهما، ولكن من الجاني هنا؟! أليست هي الخائنة؟! ماذا تنتظر منه؟! أن يكافئها على غدرها به؟!

اقترب منها وهو يتساءل بصوت خائف:

- هل سترحلين؟

❐❐❐

عندما دخل محمد المنزل أخيرًا، رحبت بِه عائلته بسعادة، بعد قليل صعد إلى غرفته وأسرع بالاتصال سريعًا بشروق، وبعد مكالمة طيبة حانية، تمنى أن يراها اليوم:

- أريد رؤيتك عزيزتي، اشتقت إليك.

طلبت منه شروق الانضمام إليهم اليوم على الغداء فهي أيضًا تشتاق إليه.

فرحب بالفكرة كثيرًا، وأخبرها بأنه ذاهب اليوم، ظل يتحدث معها قرابة نصف ساعة، وبعد ذلك أغلق الهاتف كي يأخذ حمامًا باردًا.

حين شعر بنعيم المنزل شعر بألم ينقص من راحته، فصديقه العزيز مصطفى وحيدًا، فلا يشعر بالراحة و صديقه مرهق، غريبة العلاقة التي ربطت بينهما بتلك السرعة، ما الذي يميز مصطفى ليجعله يتعلق به بتلك الطريقة؟! فكر ماذا يفعل كي يجعله يشعر ولو بقليل من الراحة تجاهه، وأتته تلك الفكرة الشيطانية وعزم على تنفيذها!

❐❐❐

أغلقت شروق الهاتف مع محمد وأسرعت في الاتصال بهاجر كي تأتي للانضمام إليها، ككل مرة يأتي فيها محمد إلى منزلهم وتساعدها بالطعام وبالثياب التي سترتديها، وما الذي يجب أن تفعله.

ما هي إلا دقائق قليلة حتى انضمت إليها هاجر، أسرعتا معًا إلى داخل المطبخ، بدأتا في إعداد أشهى المأكولات، هاجر ترى السعادة تملأ وجه شروق، وكأن الجمال أضيف بحرفية ليخلق من وجهها ملامح أكثر نضارة وجاذبية، متسائلة:

- هل الحب يبدل حتى الملامح بهذا الشكل؟

سمعتها شروق تهمهم، فأردفت:

- هل تحدثينني عزيزتي؟

هزت هاجر رأسها بالنفي، وابتسمت إلى شروق، طالبة منها الأرز كي تقوم بإعداده.

❐❐❐

اقترب أمير من سمر بهدوء، وعندما لم يجد منها إلا الصمت، طلب منها أن تتحدث إليه، ولم صمتها ذلك؟! دقق النظر إلى عينيها، وجدها صامدة وتملك الكثير من الثبات، فقال وهو يجلس على المقعد بجانبها:

- سمر.

- نعم.

- أجيبيني، هل تتركينني وترحلين؟

تطلعت إليه بغضب، يا لوقاحته! هل يسأل؟! هل تعنفه؟! هل تصفعه على وجهه وتنفث عن غضبها؟

لا يمكنها فهي لا تقوى على التحدث، فتح باب النقاش بينهما يفتح منفذًا للبقاء، وهي عازمة على قرارها، لن تبقى بعد ما حدث، اليوم ستترك كل ما تمسكت به يومًا يسلب بحرية، لا تحركها الكرامة فهي ترى أن لا كرامة بالحب، ولكن يحركها الحُب، غضبها على ما أُخذ منها بوحشية وهي حتى لا تعلم السبب، لم تعُد تريد أن تعرف، سوف تترك كل شيءٍ وتذهب، اليوم ستترك كل شيءٍ خلفها دون النظر إلى الوراء، فلا يستحق عناء المحاولة.

تطلع إليها محاولًا حثها على التحدث، قائلًا:

- هل ستعودين اليوم؟

- راحلة إلى الأبد.

برزت العروق بوجهه وتحدث قائلًا:

- إلى الأبد، ومن سيتركك تفعلين؟

- هل ستغتصبني من جديد، أم ستضربني تلك المرة؟

فزع أمير من وقع كلماتها القاسية، لم يكن يعلم بأن تلك الكلمات، ستخرج يومًا من بين شفتي رقيقته سمر، ولكن من الذي أوصلهما إلى تلك النقطة، هل أحد غيرها؟ فتحدث بصوت عالٍ:

- إن اضطررت سأفعل، سأسجنك ولن أتركك تذهبين، وتصبحين لغيري.

- غيرك، هه لقد جعلتني حطام أنثى، لن أكون صالحة لأحد، لا لك ولا لغيرك، ويكفي حديثًا لا تجعلني أكرهك أكثر، أرجوك.

قام من مجلسه وأمسك بها من كتفيها وأوقفها أمامه، وأخذ ينهرها ويحركها بقوة:

- لن ترحلي.. أنا بدونك.....! لن ترحلي قلت لن ترحلي، أنا زوجك ولن أجعلك ترحلين عن منزلي، هل تسمعين؟!

- لن أصبح زوجتك، ســـ.... ســـو.... سوف تـ..... تطلقنـــ.....

احمر وجهه، لِما تعلنه من حديث فقال راجيًا:

- لا يا سمر لا تقوليها، لا يا عزيزتي، لا...

- عزيزتك؟! يا لزيف تلك الكلمة! عزيزتي! اتركني يا أمير، دعني أذهب، اتركني قبل أن تقتلني مرةً من المرات، لا أعلم ما يحدث لك، من أنت حتى؟! لا أعلم.

نظر إليها وهي تأخذ حقيبتها وتتجه إلى باب المنزل، شعر بقلبه يُقلع من جذوره، وأخذ يتأملها بنظرة حاقدة، كيف تجعل من نفسها الضحية؟! بأي حق تظن السوء به؟! وهو ليس سوى ضحية لخيانتها، فأسرع تجاهها وهجم عليها ممسكًا بها:

- لن ترحلي، هل تظنين بأنك الضحية؟! وأنا، أنا من جعلتِني أضحوكة، كنتِ

عصير الكتب

تأكدين على ماذا؟! أنك تحبينني؟!، تحبيني بشدة؟! حتى أنني لم أشكك لحظة بحبك لي إلى إن رأيـــ.....!

❐❐❐

ذهب محمد مكان خدمة مصطفى بسيارته، ركن أمامه، ونزل وهو ينظر إليه بكل ود:

- مصطفى.

نظر مصطفى باتجاه صوت محمد للوهلة الأولى لم يعرفه، مظهره جيد جدًا ملابس أنيقة، نظارة شمسية تزيد من وسامته، ابتسم وهو يخلع عن وجهه نظارته:

- ماذا يا صديقي، ألن ترحب بي؟

ابتسم مصطفى وهو يتأمله قائلًا:

- كُنت أعلم أنك ستأتي بطريقة ما، ولكني لم أتوقع أن تكون بتلك السرعة، يبدو أنك تُحبني أكثر من خطيبتك، فلم تستطع الابتعاد عني.

قهقه محمد بشدة من حديث مصطفى غير المعتاد، وقال مُحبًّا:

- حقًا فعلت، لا أعلم ما يميزك بهذا الشكل حتى تنتزع النوم من عيني، وتشعرني بالذنب لمجرد أنني أخذت حمامًا باردًا. وحين استلقيت على الفراش لأنام لم أشعر بنفسي إلا وأنا أرتدي ملابسي وآتي.

- أووووه! مسكين لهذه الدرجة؟!

- ساذج!

- أنت الساذج! لو أني بمثل موقفك هذا.. لنسيت الدنيا وما عليها.. وبقيت مع حبيبتي وعائلتي.

عصير الكتب

- لن أجادلك يبدو أنك بمزاج جيد، على العموم، سوف أدخل إلى الملازم سعيد وأتحدث معه وآتي على الفور.

- لماذا؟

ذهب محمد دون أن يخبر مصطفى عن سبب الزيارة تلك، ودلف سريعًا إلى الداخل تاركًا مصطفى حائرًا.. ما الذي يعود به إلى هنا بتلك السرعة؟!

❐❐❐

تيقظت سمر إلى حديث أمير وأرادت متابعة ما سيقوله، طلبت منه الاستمرار:

- أنْ ماذا يا أمير؟! أنْ ماذا؟! قل ما لديك! ارحمني وارحم قلبك من تلك المهانة!

- مهانة؟! وهل رأيتِ منها شيئًا بعد؟!

وضغط ذراعيها بقوة أكثر حتى تأوهت من شدة الألم، متابعًا:

- تريدين معرفة ما يحدث، أنا أكرهك، أكرهك بشدة، أكرهك ولا أستطيع النظر إلى هذا الوجه الزائف، أمقُت كذبك وادعاءك البراءة، لقد خدعتِني.

فجع حديثه قلب سمر، لا تصدق ما تسمع، لا تحتمل الشعور الذي يحمله نبرة صوت أمير، ما هذا الفعل العظيم الذي فعلته ليحمل كل هذا الحقد داخله من أجلها؟! فقالت:

- خدعتك؟! أنا؟! متى فعلت؟! أخبرني متى فعلت؟!

سخر أمير عندما وجد منها الاستغراب وابتعد عنها وهو يقول:

- يا لسذاجتك عزيزتي! هل ظننتِ أنني لن أكشف كذبك وخداعك أبدًا؟

- متى فعلت؟! متى؟؟؟

صمت أمير عندما وجد من الحديث إهانةً له، وطلب منها الصعود إلى أعلى، لا يمكنه مواجهتها بالقلادة، لو أراد لفعل منذ حصوله عليها، ولكنه لا يستطيع أن يقلل من نفسه بهذا الشكل، هو يعلم كيف يعاقبها و يستخلص منها عذابه، فأخبرته:

- لن أذهب إلى مكان قبل أن تقول لي ما الذي يحدث، أخبرني.

- أمرتك بالصعود، هيا.

❐❐❐

عند دخول محمد إلى غرفة الملازم سعيد..

فوجئ بزيارته المفاجئة وطلب منه معرفة السبب، وتأنيبه على حضوره إلى هنا وهو يعلم مدى خطورة هذا الأمر ونظرة الباقين إليه.

فاعتذر محمد إليه، وقال:

- أعلم وكنت أخشى القدوم كي لا يحدث شيء، ولكنني أريد بشدة أن تأتي بمصطفى غدًا إلى منزلي أريد تعريف عائلتي به أرجوك.

- أخبرتك أن الأمر مستحيل، لا أستطيع تحمل مسؤولية كهذه.

- حتى إن أخبرتهم بأن سيادتك في مهمة، وتأخذه عسكريًّا معك، وأنت ذاهب إلى المنزل مثلما تأخذ العسكري الآخر، أرجوك سيدي.

- ولماذا هذا الاصرار؟

خجل محمد وتابع و بصوته نبرة صادقة:

- أريد أن أزيل بعض من الحزن عن كتفيه، و يشعر بدفء العائلة، مصطفى يحز بنفسي منذ تعرفت إليه وشعوري بحزنه على عائلته، هل من الممكن أن تفعل هذا سيدي؟

عصير الكتب

- ولكن!

- أتوسل إليك، غدًا ولن يطول الأمر.

- اترك الأمر للغد لا نعلم ما قد يحدث، والآن اذهب قبل أن تتسبب في مزيدٍ من القلق.

- حسنًا، ولكنني أتيت ببعض الطعام لحضرتك، ولمصطفى، هل يمكنني...؟

- حسنًا أرسله.

- شكرًا جزيلًا، أنت أفضل من في هذا المكان، أشكرك بشدة.

خرج محمد سريعًا فرحًا وودع مصطفى وبعث بالطعام الذي حمله معه إلى الملازم، ولم يخبره ما اتفق هو والملازم سعيد عليه حتى يحدث، خافً أن يبعث داخله الأمل، وينزعه عنه غدًا.

□□□

تشبثت سمر برأيها تلك المرة، وتطلعت إلى أمير الذي يقف بعيدًا عنها وعيناه لا تحملان سوى البغض لها، وقالت على عكس عادتها، والإصرار يحكم نبرة صوتها:

- لن أبقى هنا، سوف أذهب ولكن بعد أن تخبرني ما الذي فعلته لك، ماذا فعلت؟

- لن أخبرك شيئًا، ولن تذهبي إلى مكان، ستبقين هنا إلى الأبد، لست أحمق، لن تجعلي مني أضحوكة، هل تسمعين؟! لن تذهبي إلى مكان!

تتطلع سمر إلى أمير وكأنها تراه لأول مرة، متسائلة: تُرى.. من هذا الشخص الماثل أمامها؟! فتهدج صوتها:

عصير الكتب

- كيف خدعت بك؟! كيف؟!

هجم أمير بحنق عليها وصفعها صفعة قوية أوقعت بها أرضًا، قائلًا:

- وقحة، أما زلتِ ترتدين ثوب العِفّة.

نكبت سمر على ما حدث لها، والدموع تملأ مقلتيها، تأبَى أن تصدق أن أمير يفعل بها ذلك، حاولت النهوض والدهشة تعتري وجهها، وقالت بصوت مليء بالمرارة:

- عقدت عليك أملًا كبيرًا، ظننتك إحسانًا من رب العالمين إليَّ، لكن ما فعلته بي لن يُمحى مهما طالت بي السنون، لن أسامحك، ولم أعد أريد أن أعرف ماذا حدث ليغيرك معي! ولِمَ تشك بي! ولكن ثق أنني لن أعيش بعد اليوم معك.

ووقفت بثبات وهي ترتكز إلى يد المقعد بجانبها:

- أريد الطلاق.

- لن تحصلي عليه، ستعيشين ما تبقى من حياتك معي.

- لن يحدث، طلقني و إلا.....

تأملها باستهزاء قائلًا:

- و إلا ماذا؟

- سوف أخبر الجميع عنك وعن معاملتك لي.

- افعلي، ولنرى من سيصدقك.

صَدَمت حين سمعت كلماته، وتيقنت لكنته، وسؤال واحد فقط يثقل على عقلها الذي لا حول له ولا قوة، وسألت بنبرة جادة مرتفعة:

- من أنت؟!

❐❐❐

عصير الكتب

جلس محمد مع هاجر وشروق ووالدَي شروق، الجميع حال بين إشباع شوق محمد إلى شروق، طمح أن يذهبوا ويتركوهما معًا، ظل الوالدان يتحدثان في أمورٍ عدة، يتوق إلى ذهابهما، ولكن تكثر الأحاديث وهو يجيب بنعم ولا.

عينا هاجر ترقب عيون محمد وشروق، وهم يسترق كلٌّ منهما النظرات إلى الآخر، شعرت بضرورة المساعدة وإعطائهما مساحة للانفراد والبوح بالمشاعر الملتهبة، تفوهت هاجر ببعض الكلمات طالبةً من والدة شروق المساعدة بتحضير المائدة.

- عمتي ألن نجهز المائدة؟! أريد الصعود إلى والدتي.

- لا عزيزتي، ستأكلين معنا، لن تذهبي إلى مكان، أما عن إعداد المائدة فالخدم سيهتمون بها.

امتلأت نبرة هاجر بالتصميم، وأخبرتها.. كيف يتركون الخدم يعدون السفرة اليوم، بل يجب عليهم أن يعدوه بأنفسهم، بما يليق بمحمد في هذا اليوم المميز، هو يأتي بعد أكثر من أربعة عشر يومًا، يجب أن يكون كل شيءٍ مرتبًا.

- هيا عمتي.. لنذهب.

تطلع محمد إلى هاجر ممتنًا على ما بادرت بفعله، وعينا شروق تتأملان عزيزها محمد في صمت، شعر محمد لوهلة بسعادة تلاشت سريعًا عندما تحدث والد شروق، فأيقن أنه لا مفر، لن يستطيعا التحدث اليوم على انفراد مطلقًا، ولكن كان القدر بجانبهما، لقد أتى صوت والدة شروق تطلبه ليردَّ على اتصال من شقيقه.

شعر محمد بالسعادة بعد ذهاب عمه إلى الخارج، أدام النظر إلى عزيزته شروق والخجل يزيدها جمالًا.

يضيف إلى وجهها اللون الوردي المبهج، وسخونة تنبعث من وجهها، يدرك محمد مدى إحراجها منه، شروق تلك الفتاة القابعة أمامه تكون مختلفة كليًا.. كلما كانا معًا يزينها حياؤها، يسطع من نضارتها وأنوثتها الطازجة، تاق أن يقترب منها ويقبلها قبلة حانية على وجنتيها الورديتين، ويلمس شفتيها المرتجفتين بشفتيه كي يسكن من رعشتهما، آهٍ لو كان بإمكانه ملامسة يديها واحتضانهما والحد من ارتجافهما، ليت بإمكانه فعل شيءٍ، لفعل الكثير والكثير، فتحدث بصوت مسموع:

- ليت زفافنا يقترب، ليتني أستطيع ضمك بين ذراعي، ليت باستطاعتي احتواء ارتعاشك هذا، ليت الجيش يموت، ليت الظروف تُعدم.

دهشة شروق من حديثه الجريء، وزاد خجلها حتى لم تعد تسيطر على نفسها، وفرّت سريعًا بعيدًا عنه للخارج، وصوته ينادي:

- شروق، انتظري.

وقهقه عاليًا بسبب خجلها الدائم منه، فتلك الخجولة تختفي في أثناء المحادثات التليفونية، لماذا لا تكون على نفس الدرجة من الخجل إذًا.. في أثناء لقائهما؟!

❐❐❐

في أثناء فترة غداء مصطفى قال أحد المجندين إن الملازم سعيد أرسل في طلبه.

ذهب مصطفى على مضض، لأنه أراد الاتصال بعائلته، هذا وقت اتصاله الهاتفي المسموح له به، لا يفيد التذمر الآن يجب عليه الذهاب وتلبية النداء، ذهب وعندما طرق الباب، وجد سعيد يطلب منه الانضمام إليه للغداء، استغرب محمد فعل سعيد هو يعلم أنه جيد، بل جيد جدًّا على عكس الآخرين، ولكن أن يطلب منه الاقتران على الغداء.. فهذا ما يجده غريبًا عليه، ولكن لم يكن

عصير الكتب

ليسأله عن السبب، فانضمَّ إليه في هدوء، وأخذ يتناول الطعام الشهي الذي كان على وشك نسيانه، فتحدث سعيد بصوت رتيب وهو يأكل، مصطفى.. هذا الطعام من صديقك محمد يبدو أنه يكن لك الكثير من المودة داخل قلبه.

ذهِل مصطفى من حديث سعيد، يعلم جيدًا مدى صدق محمد في صداقته له، ولكن أن يأتي إليه بالطعام بأول يوم، هذا ما لم يستطع تصديقه، ترك الطعام من يده وأخذ يتأمل أمامه بدهشة، قائلًا:

- صادق جدًّا هذا الصديق في صداقته لي، لم أفعل معه ما يجعله يحبني بتلك الدرجة، ولكن يبدو أنه لم يحتج شيئًا مني، فقط أحبني، ولكن لماذا؟

- الأصدقاء لا ينتظرون أن تفعل شيئًا ليكونوا أصدقاء حقيقيين، الصداقة الحقيقية لا تشبه ذلك الزيف المشوه، المحاطين به من أشباه الأصدقاء، فصديقك لا يحتاج إلى مبرر أو سبب ليكون صديقًا حقيقيًّا، فحمدًا لله أن بعث إليك مثل هذا الصديق يحبك بهذا القدر.

- الحمد لله.

سكن مصطفى لدقيقة وسأل في فضول:

- هل يمكنني أن أسأل حضرتك عن شيءٍ، إن لم يكن في هذا إزعاج؟!

- أكيد.

- لماذا لا يحب الكثيرون هنا محمد، لماذا أجد عداءً من معظمهم له؟!

- ألم يخبرك صديقك عن السبب؟

- لم أشأ أن أضغط عليه.

- حسنًا، سأخبرك بإيجاز، ولا تسأل من جديد.

عصير الكتب

تملك الفضول قلب مصطفى، فتابع حديث سعيد وهو يقول:

- كل مجنَّديْ سيناء يعاملون بتلك الطريقة، لا يحملون سلاحًا، ولا يثق بهم أحد، فمنذ انتهت حرب (73) ووسائل الإعلام وبعض من قيادات الجيش هاجموا أبناء سيناء واتهموهم بأنهم خائنون لوطنهم ولا يستحقون أن يعشيوا بأرض سيناء، ففي اعتقادهم أن أهل سيناء عملاء لإسرائيل منذ أن اشتعلت الحرب.

- ولكن على حد علمي وعلى حد ما درست بأن معظم قيادات الجيش كانوا من أبناء سيناء وبالأخص من مدينة العريش، وإن حدث.. فإن هذا ينطبق على بدو سيناء، أليس صحيحًا؟

- حقيقي، ولكن اختلفت سياسة رموز النظام في (85) بعد اتفاقيات مع إسرائيل بأن عدد الجنود لا يزيد على (400) ألف جندي على الحدود معها، فبناءً عليه يتم إعفاء أبناء سيناء من الخدمة العسكرية وكانوا يطلقون عليهم تهم مثل الخيانة والتجسس لصالح إسرائيل، لكي لا يتم زعزعة استقرارها مع إسرائيل.

امتعض مصطفى من حديث سعيد وانفعل قائلًا:

- ولكن هذا خطأ كيف يعاقبونهم على مجرد سوء الظن؟! ما تلك الحماقة؟! وكيف لم يكشف أحد الحقيقة وظلوا يعاقبون على شيءٍ لمجرد الاتهام؟! فحضرتك تعلم أن هذا كذب! وغيري يعلم! ماذا إذًا؟! ولماذا استمر ذلك الأمر؟!

- لم يكن الجيش يفعل هذا عداءً لأهل سيناء، كانت وجهة نظر وإن كانت غير صحيحة لكن لم تكن بقصد التخوين، بل بقصد التشكك والحذر،

عصير الكتب

وبالغوا فعلًا في عداء أهل سيناء، ولكن وجود احتلال إسرائيلي لفترة ومحاولات مخابراتها تجنيد بعض من أهل سيناء جعل المخابرات تأخذ حذرها لألا يكون هناك ضعاف نفوس، من الممكن تحت وطأة المادة والاحتياجات.. أن يتعاملوا معهم.

- ولكن..!

حزم سعيد الحديث قبل أن يطول ويتناقشوا في أمور ليس لها داعٍ قائلًا:

- يكفي أسئلة، هيا علي خدمتك.

- أعتذر، بعد إذنك.

انصرف مصطفى والكثير من الأسئلة تصدح بمخيلته، كيف يمكن أن يشككوا بشخص مثل محمد ونبله؟! وإن كانوا يتعاملون بناءً على السمعة، فكيف يعتقدون أن بإمكانهم المحافظة على هيكل بلد؟! كيف يأمنون الطرق ويحمون غيرهم إن كانوا بهذا السوء؟! ألم تشفع طهارة محمد وبراءته ليدركوا بأن هناك الفاسد والأمين؟! تُرى كيف قاموا ببناء حكمهم على سمعة سبقت؟! هل تلحق السمعة السيئة بالشخص مدى الحياة، حتى إن لم تكن صحيحة؟!

❐❐❐

سحب أمير سمر من ثيابها بمنتهى القسوة وأخذها إلى الأعلى وأغلق عليهما الباب بإحكام، قذف بها على الفراش بوحشية، قائلًا:

- ستعرفين من أنا، ستدركين إلى أي الأشخاص قمتِ بتحويلي، ستجنين ما غرستِه بي.

انهمرت دموعها وأخذت تنتحب بصوتٍ عالٍ، متسائلة في رجاء:

عصير الكتب

- وماذا فعلت أنا، ماذا؟

لم يجبها، استبدل ثيابه وسط دموعها وتأوهاتها، فرَّ خارجًا غاضًّا الطرف عنها، فرغم حجاب صلابته هذا.. لا يستطيع تكبد أنينها، قائلًا وهو متكئ إلى مدخل الغرفة برأسه:

- ليت باستطاعتي قهر قلبي، ربما حينها سأتمكّن من سلب ذلك الجزء الذي يهيم شوقًا إليكِ، لَيت بإمكاني انتزاع جذورعشقك من أعماقي، كافرٌ أنا بكل شيءٍ جمعني بك.

□□□

إثر يوم طويل احتجز فيه أمير سمر دون طعام أو إعطاء تَبْرِيرَات، عاد من الخارج مضطرب بشدة على عزيزته سمر، رغم محاولاته طيلة اليوم عدم التفكير فيها والانشغال بالعمل، طالبًا من فايزة إعداد وجبة خفيفة سريعة يأخذها معه إلى الغرفة.

أخذ صينية الطعام وتسلق الدرج صعودًا إليها.

وضع الصينية على إحدى الطاولات بالممر، فَتح الباب بهدوء، أطل برأسه برشاقة من الباب خلسة، وجدها تجلس القرفصاء و يبدو بأنها لم تكف لدقيقة عن البكاء، شعر بتأنيب الضمير، التقط الصينية مرة أخرى وتوجه إليها، وضع الطعام أمامها وتأمل دموعها وكروب وجهها، وهن عند رؤيتها بهذا الشحوب، تمنى أن تتطلع إليه ولكن.. بأي عين سيواجهها؟! كيف أمكنه جرح قلبها بهذا الشكل، ما هذا التناقض الغريب داخله كيف يتمنى أذاها ولا يقوى على رؤية الدموع على وجهها.

رجا أن تقبل بالطعام، همهَمَ قائلًا:

- ألن تأكلي؟

كانت الدموع الغزيرة جوابها عن سؤاله، صمتها برهان تألمها، هنا علم كيف للحديث معنى آخر أشد إيلامًا، هذا الحديث الصامت الباكي الرافض كان أشد تأثيرًا به من أقسى كلمات.

❐❐❐

عصير الكتب

(9)

«لكثرة الظنون، توالت خيبات الأمل»

صبيحة اليوم الجديد

لم يغفُ أمير أو سمر الليلة الماضية، كلًا منهما بوادٍ آخر، ظلت سمر طول الليل تجلس على مقعد بجانب الغرفة، تفكر في شيءٍ فقط.. ماذا يمكنها أن تفعل لتعرف ما يحدث مع أمير، لم يعد يهمها ما تعانيه بجانبه، ولكن يهمها اتهامها بالخيانة!

أُرهق عقلها لتجد إجابة مقنعة عما حدث لأمير ليتحول بهذا الشكل، هل هناك من أفسد بينهما؟! ولكن أمير ليس هذا الشخص الذي يستمع للآخرين! حكمه دائمًا يأتي بناء على أمور عاصرها بنفسه، تُرى ما الذي بدله بهذا الشكل؟! استمرت الأسئلة تدور برأسها تتمنى لو يجيبها ويريحها من ذاك العذاب، صوت الهاتف يصدح بجانبها، وباب الغرفة يفتح على عجل ويظهر أمير أمامها وعيناه تتفحصانها وهي تجلس بجانب الهاتف بذعر.

ابتسمت من بين دموع عينيها وهي تراه يلهث كمن يسارع الزمن، قائلة:

- لا تقلق، الليلة بأكملها كان أمامي أن أتحدث بالهاتف ولم أفعل، ولن أفعل إلا بعد أن أحصل على إجابات.

هدأ أمير من روعه، وأخذ يتنفس باعتدال وصوت الهاتف لا يتوقف، متأملًا سمر

يتذكر ليلة البارحة عندما تركته والطعام متقوقعة على المعقد بزاوية الغرفة دون أن تحادثه أو تقبل بأكل شيء مطلقًا، تطلع إلى صينية الطعام لم تقضم قطعة واحدة، فاعترى قلبه الأسى، لا يمكنها أن تظل لليوم الثاني دون طعام، فتحدث بنبرة راجية:

- ألن تأكلي إطلاقًا؟

رمقته بعينين تملأهما العبرات:

- لن تجيب عن أسئلتي؟ ماذا فعلت؟

حنق عليها وترك الغرفة بصخب، مؤكدًا أنه لن يجيب عن سؤالها إطلاقًا ويمكنها فعل ما تريده.

❐❐❐

عندما حانت الساعة الرابعة مساءً طلب سعيد من أحد العسكر التناوب بدلًا من مصطفى لاحتياجه إليه في مهمة هامة، بعد استطاعته الحصول على إذن له من الرتبة الأعلى منه، مما بعث الريبة بصدر مصطفى متساءلًا وهو بجانب سعيد بالسيارة:

- إلى أين نحن ذاهبان؟!

لم يطمئن سعيد مصطفى، رغم إدراكه قلقه، لكنه أراد أن يفاجئه ويرى بسمة عذبة على شفتيه، فرغم صلابة سعيد وحزمه إلا أنه يملك قلبًا لينًا عطوفًا، فتابع الطريق وهو يقول:

- بعد قليل سوف تعلم.

عصير الكتب

- ولكن...

- قلت بعد قليل يا عسكري.

- حسنًا، أعتذر.

❐❐❐

طلب والد أمير من ابنته هاجر وزوجته الاستعداد والذهاب إلى زيارة عائلية هامة.

ارتدت هاجر ثيابها على مضض فلا تروقها رفقة والدها، وأيضًا لا تُسر بتلك الزيارات العائلية، كذلك لا يمكنها الرفض فهذا أمرٌ من الوالد، ذهبوا معًا وهي لا تعلم إلى أين، ولكن حين ركن السائق بهم أمام منزل العائلة الآخرى، وتطلعت حولها وإلى المنزل هذا منزل كريم؟! هل عاد؟ قبض قلبها فلا يمكنها رؤيته، لا تستطيع! ليست مهيأة الآن، لا يمكنها إجبار قلبها ووجهها على البشاشة واصطناع البهجة، لماذا تقع بمأزق كهذا، لماذا؟!

لكن روَّح عن قلبها سماع والدها وهو يطلب من السائق الذهاب إلى شقة محمد ووضع الهدايا بها، ذعرها من رؤية كريم أنساها أن هذا أيضًا منزل محمد.

أخذت تتنفس بارتياح وكأن صخرة ضخمة أُزيحت عن قلبها، وعقدت حاجبيها متمنية لو كانت على علم لأخبرت شروق والتقتا هنا، ولكن كالعادة توضع أمام أمرٍ واقعٍ.

❐❐❐

للمرة الخامسة تتصل سها بهاتف منزل سمر دون إجابة، وللمرة السابعة عشرة على الهاتف الخلوي، وكالعادة لا إجابة، تسلل القلق إلى قلبها ماذا يمكن أن يحدث منذ البارحة؟ وهي لا تستطيع التحدث معها، وأيضًا لا يوجد معها رقم

هاتف أمير، ولا تعرف ما هو رد فعل والدتها إن طلبت منها الذهاب إلي سمر، و لا يمكنها المكوث دون معرفة ما يدور حولها، راجيةً أن تكون مشكلة كبرى حدثت بين أمير وسمر، وليسا على وفاق!

بدلت ثيابها وخرجت ترتسم على وجهها ملامح الفزع، اقتربت من والدتها وهي تقول:

- أمي يبدو أن هناك أمرًا عصيبًا يحدث مع صديقتي سمر.

راجية منها تركها للذهاب إليها، متابعة والعبرات تملأ مقلتيها:

- أرجوكِ يا أمي، أنتِ تعلمين أنها صديقتي الوحيدة وحقًّا أخاف عليها كثيرًا، لا يمكنني الوصول إليها عبر الهاتف.

رق قلب الوالدة وهي تستمع لتوسلات سها، فهي تفطن أن سها لن تتوسل بهذا الشكل إن لم يكن الأمر هامًّا، و يبدو من نبرتها أنها حقًّا قلقة، فهي لم تستمع إلى تلك النبرة ولو مرة من المرات، فأذِنت لها في الذهاب ولكن بشرط أن لا تتأخر، وتطلب من شقيقها إيصالها، وبعد الانتهاء تعود معه.

فوافقت سها على اقتراح الشقيق بتعسف، لا مفر منه، ليست بموقف يُمَكِّنها من الاعتراض، فلا تصدق بعد أن والدتها صدقت خوفها ووافقت على ذهابها.

بعد ذهاب سها وقفت والدتها تنظر إلى الهاتف، وتبتغي أن يأتي الاتصال الذي تنتظرة منذ عودة سها بمنتهى الصبر.

❐❐❐

ذهب محمد بمصاحبة والده يفتحان باب المنزل إلى عمه وزوجة عمه وابنته هاجر، فالعم اتصل منذ نصف ساعة وأخبرهم بذهابه إليهم كي يرى محمد بإجازته.

يُقلق محمدًا وجود هذا العم بصفة خاصة فهو لا يحبذ وجود الشخصيات الجامدة والمتسلطة بالقرب منه، وهذا القريب الأكثر قسوة وجمودًا ممن عاشرهم بحياته، ذهبوا جميعًا ليجلسوا بغرفة الاستقبال، وبدأ العم بسؤال محمد وهو يتابعه بعينيه:

- هل تجد الراحة بخدمتك بني، هل تريد مني أن أوصي عليك؟

- لا عمي كل شيءٍ على ما يرام، حمدًا لله.

لم يستلطف قطّ هذا العمُّ محمد، فيراه شخصًا ضعيف الشخصية، لا يشبه عائلتهم الحازمة ورجولة أولادها إطلاقًا، ليته يأخذ القليل من ليونته تلك من أعمامه الأصغر، فهم يمتازون بالعطف على عكسه، ولكن ليونتهم مقبولة، أما محمد.. فلين بشكل يثير الغثيان من وجهة نظره.

شعر محمد بعدم الارتياح لوجودهم، نظر إلى ساعة يده وجدها تقترب من الخامسة مساءً، فطلب من والدته الذهاب إلى الخارج لكي تقوم بتجهيز المائدة.

طلبت هاجر الخروج مع زوجة عمها، إذ لا يفسح لها مجال الاستنشاق بحرية إلا بعيدًا عن والدها.

وجدت هاجر محمد يهتم بدقة بتزيين الطعام، وطريقة عرضه، والكميات الموضوعة، فشعرت بأن هناك ضيوفًا يهمونه على وصول، فانبعثت ابتسامة صادقة إلى نفسها وتساءلت بفرحة:

- هل الضيوف هم شروق وعائلتها، شقيقي محمد؟

- لا، بل صديقي بالجيش والقائد.

❐❐❐

طرقات على باب محمد للمرة الثانية وتلك المرة ذهب لفتح الباب بابتسامة عريضة، وحين وجد أمامه سعيد نظر إليه باهتمام وعيناه تبحث من ورائه بشغف، فابتسم سعيد، وأردف:

- أنا أيضًا سعيد بلقائك، محمد.

شعر محمد بالإحراج من تصرفه، اعتذر إلى سعيد عن وقاحته، وطلب منه الدخول، فقال سعيد وهو يفسح المجال لكي يظهر مصطفى من ورائه:

- لقد أتيت بمصطفى، وعدتك أن أحاول.

ابتهج محمد بشدة حين وجد مصطفى أمامه بوجهه الغامض والدهشة تكسو ملامحه، فضمه بقوة، قائلًا:

- صديقي العزيز، مصطفى لقد سعدت برؤيتك كثيرًا.

❐❐❐

عند بلوغ سها منزل أمير وسمر تذكرت بأن أمير يكون بهذا الوقت بالعمل، فلا يمكنها العودة قبل رؤيته، فرؤية سمر لا تهمها بالقدر الكافي، بل والحق أن رؤيتها لا تعنيها على الإطلاق، ففكرت كيف تطلب من شقيقها تركها لوقت كافٍ مع صديقتها سمر ، لَان صوتها وتحدثت بهدوء مصطنع، محاولة جذب شفقته:

- أخي هل من الممكن تركي هنا لمدة ساعتين وأخذي بعد ذلك الوقت؟

- لكن والدتنا أكدت أنَّ عليَّ انتظارك.

أخذت تتصنَّع الشجن بصوتها قائلة:

- حسنًا لا بأس، أصبحت مركز الضعف بينكم، عندما أريد شيئًا لا يجاب طلبي، شكرًا لكم، أحسستموني بالمرار، شكرًا جزيلًا.

عصير الكتب

- حسنًا يا سها، سوف أعود بعد الساعتين، لا تحزني.

ارتسمت بسمة هادئة على وجهها ونظرة انتصار تملأ عينيها وقبلت وجنة شقيقها:

- شكرًا لك يا عزيزي، شكرًا جزيلًا.

سعدت سها وتركت شقيقها متوجهة إلى داخل بيت سمر وأمير، طرقت الباب، وبعد ثوانٍ فتح لها أمير الباب، دهشت حين رأته أمامها فهي تعلم جيدًا أنه بهذا الوقت يكون بالعمل، فلم تمنع نفسها من سؤاله و إرضاء فضولها، قائلة:

- أمير ألم تذهب إلى العمل؟!

انفعل أمير حين رؤية سها، هذا آخر ما ينقصهما بهذا اليوم، هي وتطفلها، للحظة فكر أن يقوم بصرفها دون خجل، ولكن حديثها له بتلك الليلة هجم على مخيلته بِشِدّة، مما جعله يسمح لها بالدخول، دخلت سها وهي تنظر حولها متسائلة عن سمر، ولِمَ البيت هادئ بهذا الشكل؟ وأين فايزة؟ ولِمَ لم تقم هي بفتح الباب لها؟ ولم أمير أيضًا بالمنزل؟ كل تلك التساؤلات تداهم عقلها بإصرار لمعرفة الإجابة، فجلست على المقعد المقابل للدرج المتصل بالأعلى، واستوضحت عن سمر:

- أين سمر يا أمير؟

- بالأعلى تنام لبعض الوقت فهي مُتعبة.

- هل يمكنني رؤيتها؟

- سوف أخبرها أنكِ بالأسفل ولكن أعتقد بأنه لا يمكنك رؤيتها اليوم.

- ولكنني...

قاطعها أمير سريعًا وهو يلتفت عنها، واستطرد:

عصير الكتب

- سوف أخبرها بأنكِ بالأسفل، أستأذنك.

لم تستطع سها قول شيء لأمير، فهو قال كلمته وتركها بالذهاب سريعًا إلى أعلى، مما جعلها تتأكد من ظنونها بأن هناك شيئًا بينهما، تسللت سعادة خفية لقلبها بأن الأمور بينهما ليست على ما يرام، باغية أن يكون حديثها عن سامح الليلة الماضية هو السبب، ويكون الارتياب تسرب بينهما.

❐❐❐

مكث الجميع (والد محمد وعمه وسعيد ومصطفى ومحمد بغرفة الاستقبال وذهبت كلًا من هاجر ووالدتها ووالدة محمد إلى غرفة أخرى) ما زال مصطفى لا يستطيع إدراك ما يحدث معه، كيف أمكنهما الذهاب إلى منزل محمد، وكيف قام سعيد بذلك الفعل، أليس هذا الأمر به خطورة عليه، ظل يتأمل الجميع حوله بتحير، والد هاجر لم يرحب بفعل محمد وهذا ظهر بجدية على وجهه، في حين والد محمد الذي قام بالترحيب بهما على أكمل وجه.

نظرات العم إلى محمد وهو يجلس جانب مصطفى ويتحدث بلين، تزيد من سخطه عليه، لا يفضل أن يراه بتلك الشخصية الساذجة، فطرح:

- كيف حال البلد؟

وجه كلماته لمصطفى الذي تورد وجهه خجلًا، وأخذ ينظر إلى الغرفة حوله في ضياع، في حين تكلم سعيد بثقة وثبات:

- البلد بحالة جيدة، وإن كان قلة يحاولون إفقاده استقراره، ولكن جيشنا جيش لا يقهر، يضرب بيدٍ من حديد.

ظهرت السخرية بنبرة العم قائلًا:

عصير الكتب

- تقصد أن الشباب أمثال هذا الفتى -يشير إلى مصطفى- يقتلون من أجل هذا التماسك، صحيح؟

استطاع مصطفى أن يلتقط أنفاسه، وبثت الثقة إلى نفسه حين وجد من هذا العم الاستهزاء بصوته، فواجه عينيه بصلابة وتحدٍّ، مؤكِّدًا أن البلد لا يحتاج إلى برهان على تماسكه، فالمثابرة خلقت من أجل مصر، بلد العزة، لا يضر أن يقتل شاب واثنين، في سبيل أن تحيا أمه، مضيفًا:

- الجميع بالفعل سيموتون، ولكن ما أجمل الحياة التي تنتهي بالتضحية! أن أقتل من أجل سلامة وطني وأمانه شيءٌ أُحسد عليه، كلنا سنموت، ولكن كيف؟ هل فكرنا أننا جميعًا وبلا استثناء محكوم علينا بالإعدام وأننا داخل سجن لبعض الوقت وجميعنا نرتدي بدلة الإعدام منتظرين حكم الموت؟! لا فنحن كل ما يشغلنا هي تلك الدنيا المؤقتة، الموت قدر ومكتوب وكلنا لله وكلنا إليه راجعون، وتلك الميتة خاصةً، تكون بشرف، هنيئًا لمن حصل عليها.

دهش محمد وسعيد من حديث مصطفى بشدة، الاثنان يعلمان أنه يتمنى اليوم قبل غد أن تنتهي مدة خدمته كي يعود إلى عائلته، ما تلك الوطنية التي تُحمل بقلبه، ما هذا التناقض بشخصه؟! ولكن لو دققا قليلًا وبحثا داخل قلبيهما، لعلما أن الخوف على ما نحب لا يساوى بالتضحية، شتان بين هذا وذاك.

وأضاف سعيد إلى حديث مصطفى قائلًا:

- يوم عملت بالجيش أيها السيد كنت على علم أنني أتقدم إلى الموت، ولكن إيماني بوطني وحمايته كان أكبر من هاجس الحياة والموت، فأنا أحيا من أجل حماية الآخرين، هكذا علمني والدي أن بلدي هي أبي وأمي وكل عائلتي إن أمِنَ اطمأنَّ، وها أنا أُؤمِّنه حتى إن مت في سبيل حمايته.

عصير الكتب

تحدث العم بصوت رتيب وضاقت عيناه، متسائلًا:

- وهل ما يحدث تجده أمانًا؟! الحال الذي يتوقف، والأرواح التي تزهق، ومن المستفيد؟! أين الحماية التي تزعمونها؟! أين حق الشباب الذين قتلوا، ما أعرفه أنا عندما أكون مسؤولًا عن شيءٍ.. فأنا مسؤول عن حماية من معي، و إن فشلت في حمايتهم على الأقل أثأر لهم، أين حق عائلتهم؟! الأب الذي يفقد ابنه والأم التي تقهر على وليدها أين حقهما؟!

تحدث سعيد بتحدٍّ قائلًا:

- و إن ظلوا جانبهم لن يموتوا؟! هل الحياة والموت بيد أحد؟ ألسنا جميعًا لله؟ ما هذا الكلام؟! عندما تتطوع لحماية بلدك أنت تفعل هذا بمحض إرادتك، تفعل ذلك وأنت تعلم أنك متيقن تمامًا أنك ذاهب إلى الموت.

- هذا الذي يتطوع، لكن هؤلاء يقضون فرضًا عليهم.

- أين الوطنية بحديث حضرتك؟

شعر محمد بتأزم الأمر وتضايق من حديث عمه الصارم كعادته فتحدث ببشاشة:

- ماذا يحدث معكم؟! يكفي حديثًا بهذا الأمر، يكفي ما رأيناه لفترة، منهكين بالخدمة، هل يمكن أن نتحدث بأمر آخر؟!

فساند والده لشعوره بغضب سعيد، فلم يشأ أن يُجرح أحد بمنزلهم، محمد أراد أن يرفع عنهم اليوم فطلب منهم تغيير الموضوع، في حين شعر مصطفى بالاضطراب من وجود العم خاصةً، وشعر برغبة ملحة بالذهاب فطلب من سعيد الذهاب بصوت خفيض، ولكن سعيد رفض لعدم تأزم الوضع و إدخال الحزن على قلب محمد.

عصير الكتب

وهناك من بعيد عينان تتأملهم بدقة، وخصوصًا ملامح مصطفى بتعجب و إتقان.

❐❐❐

خطا أمير داخل الغرفة، سمر ما زالت على نفس حالتها منذ تركها بنفس المقعد، لا يستطيع رؤيتها بهذا الوضع، فرؤيتها هكذا تؤلم قلبه بشدة، فقال بصوت هادئ:

- سها بالأسفل.

لم يدهشها نبرته الحانية، مثلما لم يؤثر فيها وجود سها فهي آخذة قرارها بعدم التنحي عن هذا المقعد إلا إن أخبرها عما تريده، فقالت بصوت مجهد:

- لن أتحرك من مجلسي إلا إذا أخبرتني.. ماذا فعلت لكي تعاقبني بهذا الشكل، ماذا فعلت ليتركنا الحب و يلوذ بالفرار من بيننا، و يأتي الحقد ليتربع بعلاقتنا.

- لن أفعل.

- إذَنْ لن أتحرك حتى الموت.

رق قلب أمير، فيبدو أنها صادقة، و إن لم تحبه.. فما الذي سيجعلها تهتم إن أحبها أو كرهها، ما الذي يجعلها على هذه الدرجة من البؤس والحنق.. إلا إذا كانت تحبه؟!

بدل ثيابه محاولًا عدم النظر إليها، وخرج من الغرفة قائلًا:

- سوف أترك لكِ الباب غير موصد إن أردتِ الانضمام إلى صديقتك.

- أخبرني!

تركها وذهب متغافلًا عن حديثها وذهب إلى سها بالأسفل.

نظرت إلى نفسها، عقلها لم يعد قادرًا على البحث أكثر عن السبب، وضعت رأسها بين يديها محاولة السكون، فألم رأسها أصبح لا يحتمل وعيناها جفتا من كثرة البكاء، ولكن حين حاولت النوم قليلًا وجدت شيئًا يلمع على الأرض، شيئًا يتدلى من ملابس أمير التي قام بتبديلها منذ قليل، جحظت عيناها وتخلى عنها ألم رأسها و إجهادها وعادت بكل طاقتها تهرول على ما عثرت عليه.

❐❐❐

تطلعت هاجر إلى مصطفى بغرابة، كيف أن الحياة صغيرة إلى هذا الحد، أليس هذا هو ذاته الفتى الذي بعثت له بطلب صداقة ورأت منشوره على موقع التواصل «فيس بوك»، هو بملامحه المتناقضة المريحة الغاضبة، هو ذاته بعينيه الغامضتين، ولكن على الطبيعة وجهه مريح أكثر، بريء أكثر و إن كان شديد القسوة مثل ما ظهر بصورته.

فطن مصطفى أن هناك عيونًا تتابعه فنظر إلى حيث يشعر بالعيون التي تتأمله، فوجد هاجر الفتاة الجميلة، بردائها الطويل ووشاحها الأسود، عينيها الواسعتين، وتوتر حين تقابلت عيونهما معًا، في حين ارتبكت هاجر عند رؤيته واختفت سريعًا من أمامه.

تحدث محمد بصوت عطوف وهو يربت على كتف مصطفى و يشير بيده إلى سعيد:

- تفضلوا إلى الطعام.

وطلب محمد من عمه الانضمام إليهم ولكنه رفض، مؤكدًا أنه تناول طعامه منذ فترة، وظل الوالد معه رغم طلب العم منه أن يتناول طعامه ولكنه أصر على البقاء مع شقيقه، و يكفي محمد مع ضيوفه.

عصير الكتب

ذهب سعيد بتعجل كي يترك هذا العم الفظ، وسار مصطفى ولا يعلم إن كانت قدماه تقودانه أم عقله وعيناه اللتان تبحثان عن تلك الفتاة وعينيها البنيتين الجذابتين! لم يكن من طبيعة مصطفى الالتفات إلى فتاة مهما بلغت من الجمال، أيضًا ليس ما جذبه هنا لهاجر جمالها، ولكن عينيها وشعوره بندائهما له هو ما أسره، فشعر بوجوب معرفة ما الذي يحدث معها.

❐❐❐

أخذت سمر القلادة بيديها أبصرتها، داخلها ووجدت صورة سامح بها، فصاحت بصرخة مكتومة:

- أنت، أنت من تُخرب عليَّ سعادتي، فعلتها سابقًا وتفعلها مجددًا.

وشعرت بالحماقة لأنها لم توقن إلا الآن أن القلادة هي السبب، فكيف تبدل أمير بهذا الشكل منذ فقدتها؟ كيف سمح لنفسه أن يظن بها السوء؟!

لم تشعر بنفسها إلا وهي تهرول إليه تهتف بإجحاف:

- هل هذه السبب؟! هذه التي جعلتك تقسو عليَّ كل تلك المدة، ألم أخبرك أنني لو وجدت السبب سوء ظن منك بي.. فسوف أتركك؟! لقد ظلمتني ودمرتني.

ذهل أمير من رد فعل سمر ومقاطعته هو وسها في أثناء طلبه منها أن تذهب لأن سمر نائمة ولن تستطيع الانضمام إليها.

لم يستطع إدراك ما حدث لها وما الذي تحمله بيدها تلوح به، وتلك العصبية التي تظهرها، كيف تنفعل بهذا الشكل بوجود أحد غريب؟!

فوجدها تقف أمامه وبيدها القلادة، هنا وضحت الرؤية إليه، واحمرت عيناه حين رأى القلادة بيدها، وتطلع إلى سها وهو يطلب من سمر أن تصمت الآن، ولكن سمر لم تستطع كبح زمام غضبها فانطلقت، قائلة:

عصير الكتب

- هل تعاملني هكذا كل تلك الفترة بسبب هذه القلادة؟ ظننْتَ وحكمْتَ ونفذتَ الحكم بي! ظلمْتَ يا أمير، ظلمْتَ يا من كُنت أملي بتلك الحياة! لم يشفع لي حبي لديك، حتى أن تسأل، كنت قد أخبرتك بما عانيت، كنت قلت لك كيف كان حالي، وكيف صار وأنا أعيش معك؟ كنت أخبرتك سبب احتفاظي بها لعرفاني بجميل وجودك في حياتي.

تستمع سها إليها والسعادة تغمر قلبها عندما فطنت لما يحدث بينهما، فالعلاقة بين أمير وسمر ساءت كما تمنت، أمير يشك بِها ولا يريدها وهذا الأمر الذي طالما تمنته، ليته يقوم بتطليقها وطردها خارج هذا المنزل إلى الأبد.

ذهبت سمر وهي تجهش بالبكاء تجاه سها متوسلة أن تساندها وتخبر أمير بما قالته لها عنه:

- أخبريه سها أخبريه كيف أحببته، أخبريه كيف عانيت مع سامح هذا، أخبريه أنني احتفظتُ بتلك القلادة لأنني أحبه ولا أستطيع العيش دونه، لأنني كنت أرى فيها سعادتي الآن وحماقتي سابقًا.

ظلت تسأل وأمير يتمنى أن تصمت لا يمكنه مواجهتها على الأقل أمام سها، واقتربت مرة أخرى من أمير:

- ظلمتني! هل كانت ظنونك تلك ستنجح وتهدم علاقتنا لو كنت واجهتني بها؟ كان حبي داخلك شفع لي وما كنتَ قسوتَ وآلمتني بهذا الشكل، إن وثقت ولو قليلًا بإخلاصي في حبك، لم تكن حياتنا لتؤول إلى هذا المنوال لو لم تترك الظنون تحتلها، لو كنت أتيت وأخبرتني عما يحدث معك!

لم تُكمل سمر جملتها ووقعت على الأرض مغشيًّا عليها.

❐❐❐

عصير الكتب

(10)

«البعض يحتاج إلى فرصة أولى ليقع بالحب
والبعض الآخر إلى فرصة أخرى لإيجاد الحب داخله
مرة أخرى وبين الفرص والأفعال يضيع العُمر هباءً»

الطعام على المائدة بمنزل محمد رائع، يذهل العين، المائدة تشمل كل ما تشتهي الأنفس، محمد يضع الكثير والكثير أمام مصطفى، ومصطفى بعالمٍ آخر فعيناه تبحثان باهتمام عن شخص آخر، ولكن يبدو أنه لن يظهر من جديد، كأنه سراب.

بالغرفة الأخرى يجلس والد هاجر ووالد محمد، انضمت إليهما هاجر ووالدتها ووالدة محمد، الجميع صامت ووالد هاجر فقط من يتحدث ويلوم محمد على تصرفاته:

- ما يفعله محمد هذا خطأ، هذا الولد لن ينضج أبدًا!

يتفوه بالكثير والكثير والجميع يستمع فقط فهم يعلمون وقت غضبه لا يستمع لأحد، يتمنى الآن والد محمد أن لا يسمعه ضيوف ولده، فيشعر بالحرج أمامهم، وعلى صعيد آخر كانت هاجر بعالمٍ آخر عالمٍ يحمل ملامح مصطفى وعيناه التي اخترقت قلبها، إحساسها بالرجفة الحلوة التي سرت بجسدها، لا تجعلها

تلوم على قلبها وما يشعر، تستمتع بما يحدث معها، تلك النبضات الهائجة، والعينان الزائغتان، والوجه المتورد، أمور رأتها وأحستها بعلاقة شروق ومحمد و يوم زفاف أمير وسمر، وعندما ينشأ هذا الشعور معها يجب أن تُغمر بالسعادة ولا يمكن أن يتمكن شيءٌ من سلبها هذا الشعور الرائع.

❐❐❐

حمل أمير سمر بين يديه وعيناه تذرفان الدموع رُعبًا على قُرة عينه سمر، وطلب من سها الاتصال سريعًا بالطبيب الموجود رقمه على هاتفه، حين قامت سها بالاتصال بالطبيب، فكرت أنه لا يجب عليها ترك تلك الفرصة تذهب من بين يديها هباءً، بعثت برساله نصية من هاتف أمير إلى هاتفها تحمل بضع كلمات وقامت بإزالتها من هاتفه على الفور كي لا يعلم ببعثها، تركت الهاتف وهي تحاول التحدث، فأردفت:

- إذًا أنت علمت بشأن القلادة وخيانتها لك؟!

لم يستطع أمير تقبل سماع كلمة سها فنظر إليها شزرًا، نظرة جامدة يملؤها الغضب، ابتلعت ريقها خوفًا منه، وسكنت حيث هي..

أبعد يده المحاوطة لسمر بخيبة أمل، اعتدل بجلسته وشعر بأداة حادة تقطع أوردته، فرغم كل شيءٍ سها محققة، سمر خانته، الآن أصبح الأمر معلنًا، لم يعُد باستطاعته إخفاء جرح اعترى رجولته، سمر الشخص الوحيد الذي أحبه كانت السبب في أن يُطعن في رجولته فيقتل بدمٍ بارد.

بعد دقائق طويلة يحاول فيها أمير الاختباء من تحديق سها، وانتزاع قلقه على سمر من داخل قلبه، أتى الطبيب لينتشله من براثن ضياعه، اصطحب الطبيب وصعد معه لرؤية سمر.

بعد الكشف عليها وسط قلق أمير وعدم استفاقتها، طلب الطبيب منهما الخروج من الغرفة وبقاء سها فقط، اعتلى وجه أمير الغضب حين أدرك حديث الطبيب فهو الأحق بالبقاء بجانبها من سها، فقال معترضًا:

- ولكنني زوجها، ولن أخرج من الغرفة.

باشر الطبيب عمله، وعمل على إفاقة سمر بهدوء، وجدها تبكي بأسى وعيناها تصوبان على أمير.

ابتسم الطبيب بدوره وتابع:

- أنتي حامل بشهرك الأول، تهانينا.

وسط ذهول سمر وتطلعها إلى أمير، ووسط ابتسامة خائفة على شفتي أمير، وغيظ من قِبل سها، صدح أمير:

- سأكون والدًا، أنا والد؟!

دهشت سمر من رد فعل أمير الذي جعلها تستوي بوسط الفراش وتطلب منه بصوت منكسر حزين:

- أحتاج أن تضمني؟!

هلعت سها من تلك الكلمة وحدقت إلى أمير لترى رد فعله، والطبيب يتركهم و يذهب وأمير يطلب منها أن تقوم بإيصاله، شعرت بضرورة بقاءها ولكن كيف تفعل، يجب عليها الذهاب مع الطبيب كما طلب منها أمير، ولكن هل سيضمها حقًا؟!

هل سعادتها الفائتة وانتهاء حياتهما معًا لن تدوم، بالطبع لا، أمير رجل وكرامته لن تجعله يخضع لشيءٍ مطلقًا حتى إن كان حبه إلى سمر، سيرفض بالتأكيد طلبها و يتهمها بالخيانة، يجب عليه أن يفعل ذلك، ليته يصرفها من حياته إلى الأبد.

❐❐❐

انتهت زيارة مصطفى وسعيد واعتذر سعيد إلى محمد، وأقدم محمد على احتضانه بطريقة عفوية مما وتر سعيد، ولم يرفع يده ليحتضنه هو الآخر، وعندما شعر محمد بضيق سعيد، اعتذر إليه، وبأنه فعل ذلك ممتنًا له، فهو حتى الآن لا يصدق أن مصطفى معه وأتى لزيارته، هو جعل المستحيل ممكنًا، فاستغرب سعيد طريقة محمد وتعلقه بمصطفى فسأل:

- هل كُنتم على معرفة سابقًا؟

فتحدث محمد في حين كان غياب عقل وعينَيْ مصطفى بالكامل:

- لا، لم يتعرف كلانا إلى الآخر إلا يوم الجيش.

- غريب، تبدوان كأنكما عشرة عُمر.

- العشرة لا تقاس بالسنين سيدي، العشرة تقاس بالألفة، وأنا رزقت بصديق سوف أسأل الله إن رزقت الجنة أن يكون صديقي بها.

- يا الله، ما هذا الجمال؟! رائعان!

- شكرًا لك.

ضحك محمد وهو يجذب مصطفى من يده، قائلًا:

- ولكن من الرائعان سيدي؟!، فهذا الصديق منذ أتى لزيارتي وعيناه لم تلتقياني، لا أعلم ما الذي يشغله ويشتت انتباهه إلى تلك الدرجة.

انزعج مصطفى من حديث محمد، وأَنَّبَهُ ضميره من حديثه، فهو لا يعلم من تلك الفتاة ومن تكون له، كيف يخونه بهذا الشكل! كيف يتطلع إليها إلى تلك الدرجة! شعر بأنه خائن، علها حبيبته أوخطيبته شروق، كيف يفعل، كيف؟!

فقال بخزي:

عصير الكتب

- معذرة يا صديقي.

قهقه محمد، وهو ينظر إلى عيني مصطفى والندم يطل من بينهما، يبدو على مصطفى حقًّا الحزن، ولكنه لم يقصد أن يؤنبه إلى تلك الدرجة، فقط أراد المزح معه، فقال:

- أوه يا صديقي! يبدو أن الموضوع جدٌّ معك جدًّا، أخبرني ممَّ تعتذر! أنا فقط أمزح معك.

نزل سعيد درجات السلم، وطلب من مصطفى الإسراع، فذهب مصطفى وراءه وهو يطيل النظر بمحمد ويقول بكل تأسف:

- معذرة يا صديقي، معذرة.

لم يفهم محمد ما يعنيه مصطفى وأخذ يبتسم له ويصفه بالمجنون، فهو فقط كان يمزح معه ويخبره بأنه لن يتأخر عنه، سوف تنتهي زيارته تلك سريعًا وينضم إليه معلنًا بمرح:

- لم أظن يومًا أنني سأقولها، ولكنني لن أتأخر عنك يا صديقي، سوف تمر الأربعة أيام سريعًا وأنضم إليك، هاهاها سوف أعود إلى الخدمة من أجلك، يا للسخرية!

ابتسم مصطفى لهَزْل محمد وذهب بعيدًا وهو ممتن لوجوده وناقم على شعوره، ليس من طبيعته الخيانة أو التطلع إلى أحد بتلك الوقاحة، فكيف تخونه عيناه ويفعل هذا مع صديقه الطيب محمد؟!

بعد ذهابهما ظهرت هاجر أمام محمد وبعينيها الكثير من العبارات، وقالت بصوت خافت:

- محمد، من هؤلاء؟

عصير الكتب

- صديقاي.

- ولكن لا يتحدثان نفس حديثنا، هل هما من سيناء؟

- لا مصطفى من الزقازيق ولكن الملازم -أجَل- من سيناء.

خفق قلبها، حتى كادت دقاته تُسمِع أذن محمد فابتعدت عنه قليلًا:

- و.....

- لِمَ كل تلك الأسئلة أختي هاجر؟ لم تكوني ثرثارةً هكذا مطلقًا!

خجلت هاجر من كلام محمد، فهو محق! ما هذا الذي تفعله؟! ما تلك البلاهة التي أثرت في عقلها؟! و إن كان هو الفتى نفسه ماذا سوف تفعل؟! بماذا يفيدها شعور قلبها وخفقانه، ماذا ستفعل به؟! فاعتذرت متوجهة إلى الغرفة حيث العائلة، فطلب منها محمد البقاء متسائلًا:

- ماذا بكِ؟

- لا شيءَ أنا بخير، معذرة على كثرة كلامي.

- لا تعتذري، ولكن عينيكِ تقول إن بكِ شيئًا ألسنا أشقاء أخبريني ماذا بك؟

- لا شيءَ أشتاق إلى شقيقي أمير فقط، ولك ولشروق ولتجمُّعِنا مثل السابق بحديقتنا.

- يا لها من أيام رائعة، ولكن لِمَ تشتاقين إلى أمير وشروق ألا ترينهما؟

- لا، شروق دومًا تذهب هي وعمتي لشراء لوازم الزفاف، وأنا والدي يرفض أن أذهب معهما، وأمير غائب تمامًا بحياته، لم أعد أراه و إن حدث وأتى يلقي التحية كأي غريب ويذهب، لا ألومه ولكني أشتاق إلى صديقي وشقيقي، أشعر بالوحدة دونه.

- معذرة، جميعنا انشغلنا بحياتنا وتركناكِ، معذرة أختي العزيزة، ولكن ما إن أنتهي من خدمتي وأتزوج أنا وجميلتي شروق حتى تكون مهمتنا إزعاجك.

- هاهاها أتمنى ذلك، هذا اليوم سأكون أميرة، سوف أرتدي ثوبًا مثل ثوب الأميرات.

- أنت أميرة، ولكن شقيقتي.. أليس هناك أخبار عن كريم؟!

قلبت هاجر شفتها السفلى، وقطب وجهها قائلة:

- سوف يأتي بعد بضعة أيام من الآن.

- ولماذا تقولينها بهذا الاقتضاب؟!

- لا أعلم ولكنني أتمنى أن لا يأتي أبدًا.

- هاجر عزيزتي لا تقولي هذا، أنتي تدركين كم يُحبك!

- وماذا عني؟! هل سأل أحد هل أحبه؟ لا تفتح ذلك الموضوع محمد، اجعلني أهنأ بالجلوس معك، لا أعلم متى سأراك مرة أخرى.

- سوف أظل على رأسك لا تقلقي.

- هذا مبتغاي.

ضحكا معًا وانضما إلى داخل الغرفة من جديد، وخاضوا في أحاديث كلها عن العمل والبلد والأرض، وخطأ محمد في تعلقه بالآخرين بسهولة.

❐❐❐

لم يعرف أمير ماذا يفعل هل يهرع إلى داخل أحضانها ويطمئن بوجودها وبوجود ابنه متناسيًا ما حدث منذ قليل وفتح صفحة جديدة مع زوجته، أم يتمسك برجولته وعدم غفران ما فعلته بحقه، الآن أصبحت تعلم ما حدث

معهما، كُشف أمامها ما علمه عنها، هل تظن أنها سوف تستطيع خداعه من جديد؟ شعرت سمر بالقهر وهى تسحب يديها المرفوعة إلى أمير عندما لم تجد منه استجابة، ماذا ظنت لتطلب منه ضمها؟! ما تلك السذاجة؟! وهذا الحب الأعمى الذي يجعلها مرارًا وتكرارًا تضغط على كرامتها، امتلأت عيناها بالعبرات ، وأخذت تنتحب بشدة، قائلة:

- أريد الذهاب الآن أصبحت أعلم ما حدث معنا، لم يعد بإمكاننا البقاء معًا، طلقني يا أمير.

نضبت العروق بوجهه وبرزت، وتطلع إليها وهي تبكي باستسلام، وألقى نظرة على بَطِنها، واقترب بهلع حقيقي، وقشعريرة تسري بيديه، ووضع يده على بطنها بحركة فجائية قائلًا:

- لا تبكي من أجل ابننا عزيزتي، لا تبكي، أنا لا أستطيع تحمل تلك الدموع وهذا النحيب بصوتك.

لم تصدق سمر ما تصغي إليه من قبل أمير، تطلعت إليه وهو يستلقي على قدمه ممسكًا بَطنها، وأخذت تمسح بيدها على رأسه بنعومة ورفق، قائلة:

- لم أخُنك يا أمير، لم أفعل صدقني، تلك القلادة كانت...

لم يشأ أمير أن تتحدث، لم يعُد يقوى على الأمر، كلمة خائنة -وإن كانت حقًّا- كَذب لا يتحمل سماع ترديدها بين شفتيه ولا شفتي أحد، حاول أخذ هدنة مع نفسه ومصالحة وقتية، وتنهد تنهيدة تَوَجُّع واشتياق بولع لوجود المحبوب، ورفع رأسه إليها طالبًا منها الصمت، وأردف وهو يتطلع إلى عينيها:

- فلتكفي عن الحديث عما حدث، يكفي يا سمر عذابًا وجرح، أرجوكِ لا تتفوهي بشيءٍ آخر.

كان إصرار سمر على أن تبرر لأمير وجهة نظرها عظيمًا، على الرغم من جرحه إياها، وأنها لا تقبل أن يظن أنها خدعته، لكن الموقف لم يكن يحتمل مزيدًا من الشدَّ والجذب، فأخذت تحتضن رأسه وهي لا تصدق ذلك الرقي بينهما وأنه عاد من جديد، فطلبت من الله متضرعة رافعةً رأسها إلى أعلى أن يظل الأمر بينهما هكذا لباقي العُمر.

قدما سها تتسابق إلى الأعلى، عندما اقتربت من الغرفة تمنت أن تكون سمر وأمير أنهيا كل شيءٍ بينهما، لكن رؤية أمير بأحضان سمر جعلها تفقد السيطرة على ملامح وجهها، فثارت متسائلة:

- كيف، هل عدتما معًا؟!

لم ترَ سمر برد فعل سها شيئًا غريبًا، فتلك دهشة طبيعية بعد ما رأته يدور بينها وبين أمير، مترجمة بأن هذا الذهول سببه سعادتها بهما، أما أمير.. ففزع، واعتدل بجلسته سريعًا من على قدم سمر، هو يَعلم تمامًا ما تحمله نبرة صوت سها، وشعر بالتوتر، فعلمت سمر على الفور بأن هناك شرخًا ما بينهما، وتجشم قلبها خوفًا أن تكون ودعت أمير إلى الأبد ولم يعد هناك طريقة إلى الوصول.

ابتهجت سها لرد فعل أمير، وتبين أمامها بأن الأمر أصبح يَسيرًا، وما هو إلا وقت قصير وتحصل على ما استحققته منذ بعيد.

❐❐❐

مر أسبوع آخر عاد محمد إلى الخدمة، وكان مصطفى يستعد وقتها إلى الذهاب إلى مدينته، عيناه تطلقان سعادة لأول مرة يراها محمد، شعور مضطرب يملأ قلب محمد يشعر بأنه يريد من مصطفى البقاء معه وأيضًا يريده أن يهنأ مع عائلته ويسعد بجانبهم، طالبًا من مصطفى أن يحافظ على نفسه.

شعور بالحزن يكسو صوته في حين سعادة بالغة تصدر عن مصطفى قائلًا:

- سوف أرى محمود ووالدتي ووالدي وشقيقتيَّ، أنا سعيد جدًّا.

- عزيزي أنا أيضًا سعيد جدًّا من أجلك.

شعر مصطفى بصوت محمد وأدرك الاشتياق الذي يملأه، فأحس بالحرج من نفسه وما يظهره من سعادة، محمد لم يهنأ بإجازته مع خطيبته بسببه، وسبب انشغاله به، فقد كان محمد دائم الاطمئنان على مصطفى، ولكن مصطفى لن يستطيع فعل نفس الأمر معه، فهو يريد الغياب مع عائلته، وأيضًا وجوده ببلدة أخرى لا يساعده على التقرب من محمد، قائلًا:

- سوف أنتظر أن تحدثني صديقي.

ودوَّن رقم منزله لمحمد بورقة صغيرة، طالبًا منه أن يهاتفه دومًا، وضمَّ محمد بشِدّة، أحس بيدَي محمد تمسكان به باستحكام، متسائلًا ما تلك الأخوة التي يحملها محمد بقلبه له؟ ممتنًّا كثيرًا لما يظهره له من عطف كان بحاجة إليه، ودعه على أمل اللقاء القريب:

- لم أكن أصدق أنني سأتفوه بتلك الكلمة إطلاقًا، ولكنني أتمنى العودة سريعًا من أجلك يا صديقي، حتى تجد من تستطيع إنهاكه بحديثك المتكرر.

عبس محمد من حديث مصطفى، قائلًا:

- حقًّا.. حتى تلك الغلاظة سأشتاق إليها، أنت أخي الذي لم أنله يومًا، فأخي الحقيقي لا أكن له ذلك التقدير بقلبي، عمومًا.. تذهب آمنًا وتعود سالمًا صديقي العزيز مصطفى.

- سلامًا يا صديقي.

❐❐❐

عصير الكتب

بالأسبوع الماضي لم تطرق قدم سها منزل أمير وسمر سوى مرة واحدة وكانت زيارة عابرة جدًا.

سمر حاولت بتلك الفترة التقرب من أمير مرة أخرى، عندما فكرت بالانفصال عن أمير من أجل كرامتها وتفكيره بها بتلك الطريقة، شعرت بأن المخطئ الوحيد هنا هي، هي من أخفت القلادة، ووضعت نفسها بمكان زوجها لم تكن لتتحمل مطلقًا أن يحتفظ بشيءٍ لأخرى مهما كان عُذره، فكيف يتقبله هو، فـمهما كان متفهمًا هو رجل شرقي تحركه شرقيته مهما أكد سابقًا أنها لا تقف بينه وبين تفكيره، قابلت كل حنق أمير بطيبة آملةً أن ما يحمله داخله من عاطفة إليها، تغلب دومًا حقده وبغضه لها، هي القشة العالق عليها أملها.

صَحْا من النوم كعادة كل صباح منذ أسبوع يتركها ويذهب سريعًا للحمام الملتحق بالغرفة يبدل ثيابه ويخرج يضع عطره و يضع لمساته الأخيرة على مظهره و يذهب، لكنها هذه المرة أمسكت بيده متوسلة:

- ابقَ معي اليوم.

عندما لامست يد سمر يده رجف قلبه، وشعر بوجوب ضمها، يحنُّ كثيرًا إلى أخذها بين ذراعيه، لم يكن من الهين عليه أن يمر أسبوع كامل لا يحدثها ولا يضمها أو يقبلها حتى لو عنوة، لكن مُجرد أن يفكر بالتقرب منها يثير غثيانه، شعور بالانفصام يحتل عقله عندما يفكر بها كزوجة وشريكة وحبيبة، سحب يده من يدها سريعًا قائلًا:

- ورائي عملٌ هامٌّ.

وعندما أوشك على غلق الباب وراءه، التفت إليها من جديد وأردف:

- اليوم موعدنا عند الطبيبة الساعة السابعة مساءً.

هزت رأسها بالإيجاب والخيبة تملأ وجهها، وحين همت على التحدث وجدته اختفى من أمامها.

استلقت من جديد على الفراش والآهُ تملأ قلبها، متسائلة إلى متى سيظل يعاملها بتلك الطريق؟ ماذا يجب أن تفعل ليغير طريقته معها؟ لا تجد حتى طريقة تخبره عن حقيقة الأمر، لا تعلم ما يريد ولِمَ هذا السكون الغريب؟ ليته ينفعل يصرخ يخبرها عما يفكر به، إنما ذلك الصمت تبغضه ولا تفقه منه شيئًا، ولا إلى أين سترسو بهما دوامة تخبطهما تلك؟!

❐❐❐

عندما طرقت قدما مصطفى أرض الزقازيق شعر بأنه يضم عائلته، يشعر بكفوف محمود الصغيرة تداعب وجهه، حضن والدته الدافئ، عينَي والده المحتضنتين.

أخذ مواصلة أخرى توصله إلى المنزل سريعًا، صعد على الدرج بأقصى سرعة، طرق على الباب طرقته المكونة من ثلاث طرقات متتالية صغيرة وطرقة طويلة رابعة، فتحت ريم الباب والتعجب يعلو وجهها، من هذا الفتى الذي اكتسب البشرة السمراء؟! فضحكت ببلاهة قائلة:

- لقد تفحمت! تلك الطرقة المميزة لك هي ما دلَّني عليك، هاهاها!

ألقى مصطفى بحقيبته على الأرض وأخذ بها بين ذراعيه، معنّفًا لها بود:

- هل تلك «اشتقت إليك» أيتها «اللمضة»؟! لن أتركك، تعالي هنا.

ووجد محمود يهرول إليه ويضمه بذراعيه الصغيرة حتى يروي حنينه إليه، ووالدته من بعيد تتأمله لا تستوعب أن المنزل رجعت ضحكته ومرحه مع عودة حبيبها الغالي مصطفى، لجمتها سعادتها، تركت كل شيءٍ وتأملته

فقط وهو يداعب أشقاءه والدموع تفر من مقلتيها، تحمد رب العالمين على نعمة وجود مصطفى بينهم من جديد، لتجده يتابعها بعينيه فاتحًا ذراعيه كي يضمها، أسرعت بأخذه بين ذراعيها والخوف يسيطر عليها أن تلك السعادة ليست دائمة، قلبها ينبئها بأن شيئًا ضخمًا سيحدث، وقلب الأم دائمًا يصيب، تغلق عينيها تتمنى لو يخطئ تلك المرة، فهم لا يتحملون شجنًا جديدًا.

أسرع مصطفى بالدخول لوالده والغياب مع عائلته و إشباع حرمانه واشتياقه إليهم.

❐❐❐

ليس بالأمرالبسيط على سمر، تقبل فكرة أن تتعايش من أجل حبها وترك كرامتها على جنب، بل ليس مقبولًا عند الأنثى بوجه عام، كَذلك أن تفعل كل شيءٍ للتقرب منه أمرٍ يجعلها تُفقد جزءًا من روحها دون أن تدرك، معرفة الزوجة أن زوجها يشك بها وتتخلى عن كبريائها لمجرد إيجاد الحب من جديد بينهما يوقعها أسيرة التشتت والجنون، حرصها على إرجاعه ألغى عقلها تمامًا، تتمناه وتبتغي قربه وكل شيءٍ آخر لم يعُد مهمًّا لديها، الطفل بأحشائها سوف يكون بوابة العبور إلى الحياة الماضية التي ودعتها، لن تفقد الأمل بنيل تلك الحياة من جديد مهما فقدت معها، لن تفقده هو ولا والده، فهما سعيا إلى نيل حياة لا تقبل التفاوض بها.

❐❐❐

يقف أمير بجانب الشرفة يطل على العاملين معه، عيناه تراهم ولكن لا تبصرانهم، تصاحبان عقله بوادٍ آخر، ابتسامة طفيفة ترتسم على وجهه وهو

يتوهم نفسه يحمل ولده بين يديه، طفله الصغير يضع أصابعه حول إبهامه ويمسك به:

- يا الله ما أجمل هذا الشعور! فليأتِ سريعًا، سوف أكون والدًا جيدًا جدًا، سوف أجعل من سمر... يا الله يا سمر! ماذا فعلتِ بنا؟! كيف حولتِ سعادة تمنيناها معًا إلى مَسْخ أصبحنا نجاهد لمُجرد التعايش به.

تلاشت البسمة واكْفَهَرّ وجهه مرة أخرى، وكأن بشاشة وجهه كُتب عليها ممنوع الاقتراب ثانيةٍ.

سمع صوت رنين الهاتف.

❐❐❐

تستلقي على فراشها ممسكة بهاتفها وهي تنتظر الرد بمنتهى الشغف والتوتر، نهضت سريعًا عندما سمعت صوت المجيب قائلًا:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام، أهلًا أمير أنا سها.

- سها، ولكن من أين أتيتِ برقم هاتفي؟

- عثرت عليه، هل في الأمر إزعاج لك؟

- لا ولكنني دهشت فقط، تفضلي ماذا تريدين؟!

- لا شيءَ، أردت فقط الاطمئنان إليك، بعد ما حدث وأنا لا أستطيع محادثتك، كيف حالك الآن؟ وإلى أين وصلت الأمور بينك أنت وسمر؟

قالت سها سؤالها واللهفة تأكلها، تتمنى أن يقول إنهما سينفصلان إلى الأبد ويصبح حُرًّا طليقًا، لكنه رد بشيءٍ من الغموض مثلما فعل يوم ذهبت إليهما

عصير الكتب

ولم يتحدث هو وسمر أمامها نهائيًّا، بل اعتذر وتركهما معًا على انفراد، قائلًا:

- بخير، لماذا تهتمين بهذا الأمر إلى هذا الحد؟

أربكه سؤالها مثلما زاد من سخطها إجابته، مسترسلة:

- صديقتي وأخي يجب على أن أهتم، فأنا لم أكن صريحة بيوم مثلما فعلت معك، كنت أظن أنني أعني لك ما تعني لي!

- ولكنني لا أُحب الحديث بهذا الأمر، معذرةً!

- لا عليك، وأعلم أنه لولا الجنين بأحشاء سمر لكُنت تركتها صحيح؟

- لقد أتاني أحد العاملين، سوف أغلق الهاتف الآن، مع السلامة.

أغلق المحادثة بوجهها دون أن ينتظر إجابة، تجهم وجهها وتدفقت الدماء به، لائمة على طريقة تصرفه معها، هل يترك تلك الخائنة، ويتعامل معها هي بهذا اللؤم والدناءة؟ محظوظة سمر دومًا بالمعاملة الحسنة وهي لا! لماذا تنال سمر على كل ما تستحقه؟ راغبة بالانتقام منها واشتدت رغبتها في سلبها كل ما تراه حقًّا لها مهما لزم الأمر.

❐❐❐

غضب أمير من اتصال سها وطريقة تحدثها معه، وسخط أكثر على سمر لأنها هي من فعلت به وبها كل هذا، قائلًا:

- حقًا هذا الجنين بأحشائك يا سمر هو الرابط الوحيد الآن بيننا بالفعل، لولا هو.. لكُنا انفصلنا منذ واجهتني، وكنت ودعت حُبك إلى الأبد.

وضحك سخريةً من حديثه مضيفًا:

- يا لي من كاذب! ودعت ماذا، فكُنت أملك حق الوداع من قبل ولكني بقيت.

البقاء معكِ هو الشيءُ الوحيد الذي يجعلني حي، هو ما يبعث داخلي الحياة، تركك ليس بالأمر البَسِيط على قلبي، فعشقك موصول بقلبي ومع توديعه سوف أودع الحياة.

❐❐❐

صوت رنين الهاتف بمنزل سها، لا يوجد بالمنزل سوى الوالدة وسها وهي بالطرف الآخر من المنزل وتغلق عليها باب غرفتها، تجيب الوالدة من غرفة الضيافة، وعندما سمعت صوت المتحدث اعتلى وجهها التوتر، فتساءلت عن موعد الوصول، وسعدت عندما أخبرها الزائر أنه بعد عدةٍ أسابيع، أغلقت الهاتف سريعًا وهي تشعر بالسلام عندما استطاعت أخذ نفس بحرية أخيرًا.

❐❐❐

بعد إِمْضاء مصطفى يومًا سعيدًا يحجبه البهجة مع عائلته طلبت منه والدته الذهاب إلى غرفته ليبدل ثيابه و يستلقي قليلًا.

أخذ حمامًا باردًا ليزيح عنه مشقة السفر والليالي الطويلة بالجيش دون نظافة معتاد عليها، لبس لباسًا نظيفًا، استوى على فراشه وهو يحلم بالراحة كالليالي السابقة، ولكن النوم يذهب عنه، شعور غريب يسيطر عليه وكأن هناك شيئًا سيحدث، قبض قلبه، قرأ قليلًا من سور القرآن القصيرة كي يهدأ و يسكن قلقه بكلام رب العالمين، عندما شعر بسخونة الغرفة، قرر فتح مبرد الهواء، وفي أثناء ذهابه إلى جانب الغرفة لتشغيل المبرد، رأى حاسوبه نظيفًا، ومكتبه منمق ورائع كأنه لم يذهب عنه قط. ابتسم.. من المؤكد أن والدته تفعل هذا يوميًّا تدخل الغرفة تنظفها كالمعتاد وتشعر بوجوده قريبًا من خلال كُتبه وأشيائه، قائلًا وهو يضغط زر الفتح:

عصير الكتب

- بالتأكيد أمي.

سمع صوتها من ورائه تؤكد ظنونه:

- كل يوم كُنت أفتح الغرفة أنظفها وأشعر بوجودك يملأ الحياة من حولي، فأشعر أنك لم تبتعد وأغلقها من جديد وأذهب.

قهقه مصطفى رغمًا عنه قائلًا:

- دون دموع؟

- هاهاها هذا أمرٌ فِطْرِيّ، الدموع جزء مُتَأَصِّل في تكوين المرأة.

- أعلم ولكنه عند الأم يكون مبالغًا فيه.

- وعند الحبيبة يكون أشد تأثيرًا وأوْجَع.

- ليس هناك أشْقى وأهلك من دموع الأم، ولا أكثر شجنًا من رؤيتها تتألم، لا يمكن لأحد أن يقارب وجعها تأثيرًا.

- عزيزي هذا الكلام مندفع من شخصٍ لم يُحبَّ يومًا.

- أمي لو لم تؤثر دموع الأم بالرجل لن يؤثر غيرها صدقيني.

- أنا لا أقول لا يؤثر، أقول أشد تأثيرًا، رؤية الحبيب يتألم كأن روحك تُسحب، وكأن عالمك أغلق عليك، الحبيب لا يوجد ما يقارن مع محبته، وهذا ليس مقارنة بين الأم والحبيب، الحبيب ألمه من الروح، لكن الأم من الأعماق، حبها فطري.

- ولكن يا أمي....

بترت الأم حديث مصطفى طالبة منه الإنصات إليها جيدًا لأن ما ستقوله هامٌّ جدًا، أخذت يده وهي تطلب منه الجلوس بجانبها على أحد المقاعد بغرفته،

لتقص عليه شيئًا هامًا، تملك الفضول قلب مصطفى، ومنحنى الجدية الذي سلكته والدته بنبرة صوتها، قائلًا:

- أقلقتِني.

لم تعلم سعاد كيف تقول لابنها ما يريده نعيم، فحسمت توترها وقالت:

- عمك نعيم، طلب مني أن أخبرك بشيءٍ.

- ما هو؟

- لم أكن أنوي مفاتحتك بالأمر بتلك السرعة، اعذرني ولكن اتصل نعيم وأخبرني أنه سيأتي ليراك الليلة وأخشى عند مساءلتك أن تُفاجأ بما طلبه.. وهو أنك...

- ماذا؟

لفظت جملتها مرة واحدة، مسترسلة:

- أنك و إسراء تخطبان.

لم يستطع عقل مصطفى الاستيعاب، طالبًا منها الشرح، ولِمَ عمه يطلب منها طلبًا كهذا؟ لا يستطيع فهم ما سمعته أذُناه بعد.

فضغطت الأم كفيها برجفة، واستطردت:

- عمك نعيم يوم خطبة ريم وماجد طلب مني أن أقول لك إنه يتمناك لابنته، وبأنه لن يجد الأفضل منك لها، وبأنه لا يجد حرجًا في طلبك لها فأنت ابنه أيضًا.

لم يخترق أذن مصطفى من حديث والدته سوى خطبة ريم وماجد وقفت ذاكرته عند تلك الجملة والسعادة التي رآها تعلو وجه شقيقته عندما مزح

معها بشأن ماجد، وهذا الحُب منذ الصغر وإخبار والدته له بأنها كانت تعلم بحبهما منذ رأتهما للوهلة الأولى، ومزحها مع ريم بأنها كانت تظن بأن الأمر فقط براءة أطفال ولم تظن أن الأمر سيترك أثره بنفوسهما هي وماجد، لم يعُد يصغي لحديث والدته وهي تُصر على معرفة رأيه، وبأن نعيم على وشك الوصول.

لم يتفوه مصطفى بكلمة، كان بعالم آخر لم تستطع سعاد معرفة ما يخلد بخاطره، سمعت صوت باب المنزل وهو يطرق، قائلة:

- أعتقد أنهم هم، ماذا ستجيبهم؟ ماذا بني؟ أخبرني!

لم يتفوه مصطفى بكلمة وجهه، يعتريه العبوس، فظنت سعاد على الفور بأنه لم يقبل، وهذا حقُّه أن يحب ويختار محبوبته، هذه حياة ستعاش عُمرًا، فيجب أن يعيشها كما يُحب ويتمنى، لن تجعله يُجبر على زيجة من أجل سعادة آخرين، لا يمكنها أن تقول له ما يدور بعقلها فلن تفاضل بين حياة وأخرى، إن كان زواج ريم بماجد ليس مقدرًا لن يحدث، وإن كان القدر معهما سيكون، فخرجت من الغرفة لتقابل الضيوف دون أن تزيد حرفًا، طالبة من مصطفى الانضمام إليهم وعدم التفكير بشيءٍ لن يجبره أحد على فعل شيءٍ لا يريده.

❐❐❐

عصير الكتب

(11)

«كمثل حبات الرمل كان الحب يتسرب»

طلب محمد من سعيد أن يقوم باتصال هاتفي بشكل ودي، فرفض سعيد هذا الأمر وشعر بالضيق عندما وجد على وجه محمد التعاسة، فطلب منه أن يقص عليه ما يحدث معه، محمد أكد أنه بخير ولكنه يشعر بالضجر وأنه سيفقد رشده إن لم يجرِ محادثة هاتفية، لكنه بالطبع مقدر موقف سعيد قائلًا:

- معذرةً، لأن تصرفاتي هوائية، أعتذر إليك سيدي.

- هل تريد محادثة مصطفى؟

- لا، لم يهنأ مع عائلته بعد، أريد التحدث إلى خطيبتي، أشعر بالضيق وصوتها سوف يقلص من شعوري بالسأم.

تعاطف سعيد مع محمد على الرغم من أن شخصية محمد لا تلاقي استحسان من قبل سعيد لما يراه فيه من ضعف، وعلى الرغم من ذلك قرر مساعدته، قائلًا:

- أنت لم تترك خطيبتك سوى اليوم، هل اشتقت إليها بتلك السرعة؟

أُحرج محمد من حديث سعيد، وطلب منه الإذن في الذهاب واعتذر من تلك الحماقة، وأنه سيفكر قبل طلب أي شيءٍ بعد الآن.

تأمله سعيد بشدة ورأى ما يعانيه محمد كي يبرز ابتسامة على وجهه قائلًا:

عصير الكتب

- سوف تتحدث من هاتفي، تفضل.

تحير محمد من كلام سعيد وشعر بالتشوش، هل حقًّا قال له أن يهاتف عزيزته شروق من هاتفه، يا له من شخص كريم مثلما وصفه مصطفى! أفضل من في هذا المكان سعيد وأكثرهم تواضعًا وقلبه يحمل الكثير من الرجولة والشجاعة الممزوجة بطيبة الإنسان البسيط النقي، فانفعل كعادته قائلًا:

- أنت أفضل شخصٍ هنا، مصطفى كان محقًّا، قلبك مزيج رائع من الشجاعة والرجولة والنقاء والرقي، شكرًا لك سيدي، شكرًا لك.

قهقه سعيد بشدة قائلًا:

- حقًّا أنت لن تندفع من جديد في أفعالك، رائع محمد، أنت رائع.

- هذه كلمة مصطفى إليَّ «رائع»، أعاده الله إلينا سالمًا.

- يا رب، تفضل الهاتف.

اتصل محمد بعزيزته شروق واقترب من الشرفة، تحدث بصوت هادئ:

- متعب يا عزيزتي، قلبي يؤلمني ابتعادك أنتِ ومصطفى يملأ قلبي ألمًا.

سألت شروق بتلقائية هل ذهب مصطفى؟ فأخبرها محمد أنه عندما أتى كان مصطفى يستعد للذهاب، يشعر بأنه لن يراه من جديد وهذا الأمر يؤلمه بشدة، فكان بحاجة إلى سماع صوتها ليتصبر به، فأخبرته أنها أصبحت تغار من هذا الصديق كثيرًا، لتعلقه به، فهي كانت الشخص الوحيد الذي يُحبه محمد ولا يجب عليه مطلقًا حُب أحد مثلما يحبها، فضحك محمد بشدة من حديثها قائلًا:

- أنا أملك من الإخوة واحدًا واثنين ولكن هل أكن لهم معزة مثل مصطفى؟ بالطبع لا، وحبك داخل قلبي لا يقارن بحُب أحد مطلقًا.

فأخبرته شروق أن ابتعاده عن أشقائه طبيعي جدًّا، بحكم فرق السن الكبير بينهم فهم صغار جدًّا أصغر من أن يكون هناك درجة تقارب بينهم، ويجب أن لا يقارن حُب أحد مطلقًا مع أشقائه، فالشقيق لا يضاهيه ألف حُب أو علاقة إنسانية أخرى، الشقيق بمكانة لا يمكن لأحد أن ينالها سواه، يجب أن لا يستمر بترديد تلك الكلمة كثيرًا حتى لا يصدقها، حاولت أن تطمئنه بأن مصطفى سيعود قريبًا وسوف يجتمعان معًا، ولن يبتعدا مرة أخرى، ولكن ماذا سيفعل بعد انتهاء الخدمة العسكرية وكلٌّ منهما يسكن بجهةٍ مختلفةٍ من البلد.

فقال محمد بعفوية:

- سوف أذهب إليه، ستستمر علاقتنا إلى الأبد لا تقلقي، ستكونين أنتِ صديقة زوجته وأولادي يلقبونه عمي، أنا عازم على علاقة طويلة، ولكن لا أعلم لِمَ هذا القلق داخل قلبي؟!

تضايقت شروق من طريقة تحدثه المبالغ فيها عن مصطفى وتكراره لأهميته الآن ولاحقًا، تملكها شعور حقيقي بالاستياء من طريقته، تاركة غضبها على حدة وتساءلت لماذا هو قلق؟ فقال:

- ألا أرى مصطفى مرة أخرى، قلق عليه جدًّا، لا أعلم لماذا؟!

انفجرت شروق قائلةً: طيلة إجازتك مصطفى، الآن مصطفى، ماذا بك يا محمد؟ هذا كثير حقًّا، لمس محمد الثورة في صوتها فأدرك أنه تجاوز الخطوط، فاعتذر إليها، هو حقًّا لا يدرك سرَّ تعلقه بمصطفى عظيم إلى هذا الحد، محاولًا التودد إليها قائلًا:

- سامحيني؟ لم أقصد مطلقًا أن أضايقك أنتِ تعرفين من هي شروق بالنسبة إلي، وإن أصبح لدي صديق أحبه إلى هذه الدرجة.. فلأنني لم أحظَ يومًا

بفرصة امتلاك صديق، تعلمين أن حُبك يسري في عروقي مثل الدماء، يشق لي طريقي، أنتِ تدركين كيف أحملكِ داخل جسدي ولا يمكن لأحد أخذ المكانة التي تحتلينها مهما بلغت درجة قربه مني.

استطاع محمد أن يحتوي شروق بكلمات بسيطة، مغلقًا على إثرها الهاتف بعد اطمئنانه أن الانزعاج ذهب عنها، تطلع إلى سعيد الذي يجلس على المقعد أمام مكتبه، قائلًا:

- أشكرك، سيدي.

- انصراف.

❐❐❐

أشرقت سها من غرفتها وهي بكامل أناقتها، ذاهبة إلى الغرفة القابعة بها والدتها ومعها أصدقائها، صافحتهم مرحبة بهم، وطلبت من والدتها الإذن في الانصراف إلى منزل صديقتها سمر، سها تعلم أن والدتها لا تريد لها الخروج فهي تقبل بأعجوبة وفي المرة السابقة طلبت منها أن تكون آخر مرة وإن أرادت سمر رؤيتها فلتأتِ هي لرؤيتها، لكن أن تذهب هي إليها مرة أخرى فلقد أصبح أمرًا مرفوضًا، ولكن عندما سمعت صوت أصدقاء والدتها واجتماعهم المعتاد، باشرت ارتداء ملابسها على الفور، متيقنة أن والدتها لن تحرج نفسها أمام أصدقائها مطلقًا، وذهبت إليها تطلب منها الخروج.

نظرات والدتها هادئة على غير الطبيعي، فهي توقعت على الأقل أن يبدو بنظراتها الغضب ولكن هذا لم يحدث، هي تقبل بذهابها، وسواء كان أصدقاؤها هنا أم لا.. فلم تكُن لتعترض، تُرى ما الذي حدث ليبدلها بهذا الشكل؟!

❐❐❐

اقترب مصطفى من الغرفة الجَالِس بها نعيم وسعاد وزوجته، وبعد إلقاء التحية وغمر نعيم لـمصطفى بأحضانه، استووا جميعًا على مقاعدهم، فذهبت سعاد لتأتي بواجب الضيافة ومصطفى يسأل عن أحوال ماجد قائلًا:

- تمنيت أن أحضر الخطبة، وأيضًا رؤية ماجد لقد اشتقت إليه، منذ سنين لم أراه.

فرد عليه نعيم قائلًا:

- هو أيضًا حزن بشدة عندما أخبرته والدتك بعدم تمكنك من النزول، سوف تلتقيان على خير بإذن الله بإجازته القادمة، آمُل ذلك.

- إن شاء الله.

أدرك مصطفى نظرات زوجة نعيم ولاحظ أيضًا توترهما والسؤال المخبوء وراء ستار زيارتهما الودية، فشعر بوجوب رفع الحرج، وتمتم قائلًا:

- أخبرتني والدتي عمَّا طلبته عمي.

في أثناء حديث.. مصطفى كانت سعاد على وشك الدخول من باب الغرفة، فطلب منها مصطفى الجلوس والاستماع لما يريد قوله، قدمت المرطبات وقلبها يخفق بشدة، ونظرت إليه والفضول يُمَزّع قلبها.

فاسترسل مصطفى قائلًا:

- أنا أطلب يد إسراء منك عمي نعيم، لن أجد أفضل منها زوجةً لي، ولكن...

سعد نعيم وزوجته كثيرًا بحديث مصطفى في حين فوجئت سعاد بحديث مصطفى، فانتبهوا جميعًا إلى «لكن»..

نعيم متسائلًا:

- لكن ماذا.. يا بني؟

عصير الكتب

- أنا لن أتزوج قبل زواج شقيقتيَّ، ومحمود شقيقي أنا مسؤول عنه مسؤولية كاملة حتى يتم تعليمه بالكامل.

❐❐❐

شعرت سعاد بالفخر لحديث مصطفى المليء بالرجولة والاعتزاز والأصالة، في حين شعر نعيم وزوجته بالضيق من طريقته، وبأنه يقوم بمساومتهم، ليته لم يقل كل ذلك فهم على عِلم به، هو رب تلك الأسرة بعد والده وحادثته التي جعلته طريح الفراش، لم يكُن من الطريف طريقة تحدثه، ولكن أشار نعيم إلى زوجته بعينيه أن لا ضرر من الأمر، هذا حقه على الرغم من عدم اقتناعه وحنقه عليه.. قائلًا:

- ومن سوف يمنعك، هذا حقهم عليك، حفظك الله لهم ولنا، أنت ابن صالح.

فطن مصطفى إلى أنه لا مفر من الأمر، سيقبلون بكل شيءٍ يقوله، و إن كان سوف يتزوج بإسراء، سيكون أسرة سعيدة ناجحة معها، هو على يقين من هذا.

❐❐❐

ابتسمت سها عندما لَمَحت سيارة أمير داخل جراج الفيلا، متناسية تمامًا ما كانت عازمة على فعله، عجلت بالدخول وعندما وجدته يفتح لها علت وجهها ابتسامة حامِدة على رؤيته أمامها، أما أمير.. فعبس وجهه عند رؤيتها باديًا عليه الإرهاق، فلم يكن قد مكث بالمنزل سوى دقيقة واحدة، نظر إليها متسائلًا عما أتى بها في هذا الوقت:

- سها، هل هناك شيءٌ؟

- ماذا يا أمير هل يجب أن آخذ الإذن، قبل أن أتي إلى منزل شقيقَيَّ.

أمير على الدوام لا يستطيع جرح سها لظروفها، وأيضًا لأملها فيه هو وسمر، مهما بلغت درجة حقده على تصرفاتها وتدخلها في حياتهما، متنحي جانبًا سامحًا لها بالدخول، معتذرًا إليها لتبديل ثيابه و إخبار سمر بوجودها.

تطلعت سها إلى أمير وهو يصعد الدرج و يبتعد، قائلة:

- سوف أنتظرك.

❐❐❐

بعد ذهاب نعيم وزوجته قامت العائلة جميعها بتهنئة مصطفى، وعينا الأب تؤكدان سعادته بتلك الخطوة، كلٌّ منهم يُهنيء ويبارك إلا فرد واحد يشعر بالحرب المشتعلة داخل مصطفى، فلم تستطع أن يتغاضى عن شعور الذنب، على الرغم من الهدوء والسعادة التي ستحل على العائلة واطمئنانها إلى ابنتها وزيجتها، ولكن لماذا يجب على مصطفى باستمرار أن يتحمل عواقب كل شيءٍ؟! يجب أن تتحدث معه، فأخبرته:

- عزيزي مصطفى أريد التحدث معك قليلًا بغرفتك.

عَلِم مصطفى على الفور ما الذي تريد سعاد محادثته به، لم تخدعها تلك الابتسامة الزائفة على وجهه مثل باقي من بالمنزل، وكيف تفعل فهي أم؟ لو أخطأت كل قلوب الأحبة قلب الأم لا يخطيء، وأشار برأسه إليها بالإيجاب.

❐❐❐

أصغت هاجر إلى صوت والدها وهو يصيح في والدتها و يعنفها على ملابسه غير الجاهزة، وشعرت بالامتعاض، هل هذه السن التي وصلت إليها والدتها لا تغفر لها أن يعاملها باحترام على الأقل أمام الخدم؟ هل ستصبح ملابسه رثة إن قام أحد الخدم في المنزل بالاهتمام بها؟

عصير الكتب

ما هذا العنف وكأنه يستمتع بـدموعها وتأوهاتها على مدار سنين عمرهما، أغلقت غرفتها عليها وأوصدتها جيدًا من الداخل، اغرورقت عيناها بالدموع، لم تعُد تتحمل ما يحدث حولها، فكرت في الاتصال بأمير وعندما أوشكت على محادثته، تذكرت كم ابتعد عنها بالفترة الأخيرة، سعادته مع زوجته أنستْه شقيقته والقرب الجامع بينهما، لم يطلب منها ولو لمرة الذهاب إليهما والمكوث معهما يومًا، وهو أكثر من غيره يدرك مدى تململها بذلك المنزل، ولكن ماذا يفيد اللوم؟! هو اختار حياة يعيشها وهي أيضًا ستتعايش بدونه مثلما فعلت بتلك الأسابيع الماضية، حاملة صديقها الوحيد «الحاسوب» بين يديها وذهبت به إلى الفراش.

قامت بفتحه، لتُضيع به كالعادة وقتها.

❐❐❐

عندما دَخَل مصطفى إلى غرفته، وجد والدته تجلس على الفراش أخذ يتطلع إليها، وبعينيها كثير من العبارات، ليس بحاجة إلى مزيدٍ من الضغط يكفيه ما يملأ قلبه من حيرة، اقترب منها وجلس بجانبها وهو يجذب يديها وأطبق عليها بكلتا يديه ، قائلًا:

- أنا بخير يا أمي.

سحبت سعاد يدها اليمنى من بين حضن يديه، وربتت على كَتِفه بحنان، وزينت وجهها بابتسامة حزينة، قائلة:

- دومًا تعلم ما أريد قوله قبل التفوه به.

- أنتِ تعلمين يا أمي كم أحبك، فليحفظك الله لنا.

- مصطفى يا عزيزي، تعلم أنك لست مجبرًا على تلك الزيجة و إن أردت عدم إتمامها سأكون مُسَاندة لك، لن أقبل بسعادة أحد في مقابل تعاسة آخر.

عصير الكتب

ابتسم مصطفى وهو يَتَلَطّف، وأكد بأنه بخير ولا يجب عليها أن تفكر كثيرًا هكذا، قائلًا وهو يداعبها:

- يبدو أنكِ تُغارين علي، ولا تريدين لي الزواج.

قَهْقَهَت سعاد وهي تثني علي مصطفى وعلى طيبة قلبه، مؤكدة أنها لا تتمنى سوى رؤيته وأشقائه سعداء، مقبلة جبينه، وذهبت إلى الخارج.

❐❐❐

كانت سمر تغط في النوم في أثناء دخول أمير الغرفة، تأملها وكأنه يراها منذ زمن طويل، تبدو كالملاك وهي نائمة، رداؤها البني يضيف جاذبية إلى بشرتها، خفق قلبه وهو يقترب منها متناسيًا الحقد داخله، برَكَ على قدميه بجانب الفراش، أخذ يتأملها في وَلَه، أمسك بخصلة الشعر التي تغطي عينها اليمنى وأزاحها عن عينها، حَنَا على وجهها بيديه في عطف، باغيًا أخذها بين يديه واحتضانها، والتهام شفتيها بين شفتيه، تمنى لو يمكنه الحصول على علاقة حميمة تجمعهما دون الشعور بالذنب، اشتاق إلى عبيرها يلوح بأفق حواسه، اقترب من وجنتها غير مدرك لما يفعل، وعندما أوشك أن يقبلها، وجد عيني سمر تشرق عليه، ففزع من مسكنه ناهضًا، وعندما تعجل بالابتعاد أمسكت يديه قائلة:

- اشتقت إليك يا أمير، اشتقت إلى تلك المعاملة الطيبة بيننا، إلى متى ستظل تعاقبني على شيءٍ لمجرد سوء الظن؟!

انتزع يده من يدها بمنتهى القسوة وأخذ ملابسًا جديدة وأسرع إلى الحمام، ظلت سمر تتأمله وهو يغلق عليه الباب ككل مرة يتواجهان فيها بالفترة الماضية، وامتلأت عيناها بالعَبَرات، وبعد دقيقتين سمعته يعلو بصوته من الداخل قائلًا:

عصير الكتب

- سها بالأسفل.

❐❐❐

جسد مصطفى متهالك من الإرهـاق، مازال الوقت مبكرًا للنوم ولكنه يشعر أنه بحاجة قصوى إلى بعض الراحة، تمدد على فراشِه، وعينان بمخيلته تزورانه وتحدقان إليه كانتا قد ذهبتا عنه بالفترة الماضية، أما الآن فتعودان بطريقة ملحة أمام ناظريه ويملأهما اللوم، على ماذا يا تُرى؟ حاول فتح عينيه وإغلاقهما، كلما أغلقهما وجدهما تسكنان داخل عينيه، هل ما يفعل ليس خيانة، لماذا تسيطر عليه بهذا الشكل، ظل يتحرك على الفراش ويتقلب يمينًا ويسارًا، وكلما حاول غلق عينيه يجدهما أمامه لا تبتعد، فتح عينيه وهو يطلب من تلك العينين الابتعاد عنه، وعندما فعل، وجد حاسوبه يضيء، فتذكر أنه تركه منذ فترة طويلة مفتوحًا، نهض من فراشه واتجه إليه كي يغلقه.

طرأ له أن يتأمل مواقع التواصل الاجتماعي، فتح ياهو، وتويتر، وإنستجرام، وفيس بوك.

ظل يتَفَحّص المواقع حتى أتى دور فيس بوك، فوجد طلبات صداقة وبعض الإشعارات، وثلاث رسائل من ثلاثة أصدقاء يتساءلون عنه.

من بين طلبات الصداقة طلب لفتاه تدعى هاجر الصفطي، لفت انتباهه لقب العائلة لأنه لقب عائلة محمد يتذكر أنه قرأه على مدخل الفيلا عندما ذهب لزيارته هو وسعيد، لكن لم يربط مطلقًا بينهما، من المؤكد أنها صدفة! ضغط قبول طلب صداقتها بصفة خاصة، وترك البقية، تفقد صفحتها وجد كثيرًا من المنشورات، وجميعها يربط بينها شيءٌ واحدٌ فقط.. «الشجن»، تملكه الفضول، أراد رؤية صورتها، لكنه لم يجد، دخل على الرسائل الخاصة بينهم وكتب.

«مرحبًا، من أنتِ؟ ومن أين تعرفينني؟».

وفي أثناء انتظاره لإجابة وجد محمود يطرق باب الغرفة ويخطو بداخلها، قائلًا ببراءة الأطفال:

- أريد النوم بجانبك اليوم، هل يمكنني؟

أخذ به مصطفى بين ذراعيه وأحاطه بحنانه، ووضعه على الفراش، وأتى بحاسوبه ووضعه على رجله، ومحمود يغفو على صدره.

❐❐❐

وجدت هاجر صوت رسالة يأتي، فتحت الرسائل من الخارج، لتجد المرسل مصطفى ويقول «من أنتِ ومن أين تعرفينني؟»، ارتجفت عند رؤية اسمه ورسالته، وتذكرت عينيه، لتزورها نفس المشاعر الجياشة عندما رأته بمنزل محمد، لتفتح الرسالة دون إدراك ما تفعل، مُرسِلة:

- أنا هاجر.

- هاجر مَن؟

- ابنة عم محمد صديقك.

❐❐❐

أملَ مصطفى أن تكون هاجر تلك هي ذاتها الفتاة التي رآها بمنزلهم ذلك اليوم، ولا تكون شروق، ويذهب عنه الشعور بالذنب لتفكيره الكثير بها، قائلًا:

- التي رأيتها يوم الغداء؟

- أجل.

تنفس براحة، الآن يمكنه الشعور بالطمأنينة، لم يخُن محمد، وماذا يفعل الآن

عصير الكتب

أليس ما يفعله الآن يسمى خيانة هل يقبل مصطفى أن يتحدث محمد مع إحدى شقيقاته؟! بالطبع لا، فقال باقتضاب:

- كيف يمكنني خدمتك، وكيف حصلتِ على صفحتي؟!

لحظات طويلة لا تجيب بها هاجر، تمنى أن يخترق الشاشة ويعلم ما الذي يدور بعقلها، فبعث بسؤال من جديد قائلًا:

- معذرة إن كان سؤالي فظًّا.

- لا، ليس هكذا، ولكنني لا أعلم ما الذي أفعله، حقًّا أعتذر إليك، سوف ألغي تلك الصداقة، معذرة.

- انتظري فقط، لم أقصد مضايقتك صدقيني، ولكنني فقط مندهش.

❐❐❐

شعرت هاجر بأنه يجب عليها أن تُخبره كيف وصلت إليه، وبعد ذلك تقوم بإزالته من قائمة الأصدقاء، وشعور بالاحتجاج يمزق أوصالها، كيف أمكنها أن تضعف بهذا الشكل؟ واكتمل ضعفها عند رؤيته، والآن محادثته، كيف وصلت إلى تلك الدرجة من الضياع؟ قائلة:

- من خلال منشور لك منذ فترة طويلة تتحدث به عن سيناء، بمجموعة سيناء.

- أجل أتذكر.

- لم أكن وقتها أعرف من أنت أو الصداقة التي ربطت بينك وبين ابن عمي محمد، ولكن الآن أصبحت على عِلم، أعتذر إليك، من تطفلي هذا.

- انتظري لا تلغي الصداقة.

عصير الكتب

- .....

- آنسة هاجر؟

- نعم.

- أنا آسف، هل تقبلين أن نتحدث؟!

- ولكن..

- أرجوكِ، سوف أخبر محمد أنني أحادثك، لن أفعل شيئًا بالخفاء، بأول اتصال هاتفي بينه وبيني سوف أخبره.

❐❐❐

كان من اليسير على هاجر أن تستمع إلى حديث مصطفى وتتأثر به، لأول مرة تحدث فتى، لم تقبل أن تفعل من قبل، والآن هي هشة ضعيفة، شعورها بمصطفى يخطف أنفاسها، ويُفقدها قدرتها على التفكير، مؤكدة بأنها ستخبر هي أيضًا محمد أنها تحدث مصطفى، ولأن محمد شخص عطوف ولين.. لن يفهم صداقتهم بطريقة خطأ.

وسألت عن كلمة أول اتصال هاتفي قائلة:

- لماذا.. هل محمد لم يعد إلى لجيش بعد، أعلم أن اليوم آخر يوم له بالإجازة؟

- أجل محمد بالخدمة، أنا من أخذت إجازتي اليوم، فليس بالجيش لاب توب ولا اتصال شبكي.

- أجل، صحيح.

- ماذا تدرسين؟

- انتهيت، أنا أكبر بالعُمر عن أخي محمد.

- أخي؟

- عائلتنا تقول لأبناء العم والخال «أخي».

- حسنًا.

❐❐❐

أدرك مصطفى أن هاجر أيضًا تكبره على الأقل بعامين، لا يعلم لمَ ضايقه الأمر، فكان يتمنى لو كانت تصغُره، فقال بشيءٍ من الفضول:

- مرتبطة؟

صمتت هاجر قليلًا، وبعد ثوانٍ بطيئة بعثت:

- أجل وعلى وشك الزفاف قريبًا.

توتر مصطفى من إجابتها، فإن كانت مرتبطة.. لماذا تحدثه إذًا؟! ما تلك الفظاظة وعدم الاحترام الذي هي فيه؟ أليس لخطيبها حقٌّ عليها؟! وشعر بالغضب وهو يقول:

- تحبين خطيبك؟

- لا أعلم.

جذبته إجابتها وتساءل بفضول:

- كيف لا تعلمين؟ تحبينه، أو لا؟

ينظر مصطفى إلى الشاشة أمامه ورؤية المربع الصغير وهي تكتب به، نظر إلى سؤاله وشعر بالحنق على نفسه، لمَ ثورته تلك؟ هو أيضًا قبل بالارتباط اليوم، كان تحت ظروف وضغوط أن يقبل، وإن فعلت وتحدثت معه، من الممكن أنها تحتاج إلى محادثة صديق، ما هذا التناقض بشخصيته؟! وشعر بالأسف عندما رأى الجملة التي أرسلتها:

عصير الكتب

- زواجي هذا لظروف عائلية.

- يا الله على تلك الكلمة! ومن يعلم بها غيري؟!

- ماذا تقصد؟

- لا شيءَ.

❐❐❐

شعرت هاجر بالغموض في حديث مصطفى، وشيءٌ يلح على عقلها بشدة لتسأله، فبعثت دون تفكير:

- وأنت؟

- ماذا؟

- مرتبط؟!

تمنت لو يقول لا، أو يخبرها أنه لا يجد من يحبها، رسمت أحلام وردية أنه وقع أسير حبها مثل الأساطير من النظرة الأولى، فيخبرها أنه أحبها هي ويريد الارتباط بها، ولكن كانت إجابته مخيبة للأحلام هادمة لها بكل قسوة.

- أجل.

فشعرت بخنجر دَب داخل قلبها، وتساءلت بفضول:

- تحبها؟

- حُب أخوي.

- كيف؟

- زواجي لظروف عائلية.

بعثت هاجر بسخرية ابتسامة واسعة، وهي تخبره ما أعظم تلك الظروف!

وما أجملها الضغوط التي تقتل القلوب وتميتها! وطال حديثهما عن كل شيءٍ وكأن كليهما وجد بوابة الخلاص لما يحمله قلبه، فيرمي كلٌّ منهما خيباته على الآخر.

❐❐❐

كانت سمر تستعد إلى النزول إلى سها وأمير يخرج من الحمام، وضحت عليه الدهشة عندما تأملها امرأة جميلة تلبس رداء قصير أسود وترفع شعرها إلى أعلى واضعة بعض الزينة على وجهها، ولون شفاه أحمر صاخبًا، للمرة الأولى منذ وقت طويل تشاهد سمر بعينيه نظرة الإعجاب تلك، شعرت بقلبها يخفق بشدة، تركت الباب الذي كانت على وشك العبور منه، أدامت النظر إليه قائلة:

- ظننت بأنني ودعت تلك النظرة بعينيك إلى الأبد.

غضب أمير من طريقة تحدثها مسترسلًا لكلامها:

- يجب أن تودعيها بالفعل، هيا اذهبي.

- لا تتحدث معي بتلك اللهجة أرجوك.

- أنا لا أريد التحدث معكِ مطلقًا.

- ولكن!

- اذهبي ولا تسعي إلى سماع كلمات تجرحك.

أطرقت برأسها إلى الأسفل وذهبت إلى الخارج، علقت قدمها بشيءٍ على الأرض وحين أوشكت على سحبها، اختل توازنها لتتعرقل وتوشك على الوقوع على الأرض، و ينجو بها أمير في آخر لحظة.

احتوت يدا أمير سمر بصلابة، أحكم يديه على جسدها وحملها بين ذراعيه،

تشبثت به وهي تتأمله في عاطفة وهذا القرب الجامع بينهما، دقات قلبه السريعة، عيناه المتلهفتان، شددت بيدها على رقبته وهي تحيط بها يدها الأخرى مشبكةً يدَيها، وتقول:

- شكرًا لك.

- يجب ألا تذهبي إلى الأسفل، سوف أطلب منها الصعود إليكِ.

- لا، سوف أنزل لها.

- لا لن تفعلي.

- لا أريد لأحد دخول غرفتنا مهما كانت درجة قُربه.

خفق قلبه لكلامها بشدة، وقال بحنو:

- حسنًا سأنزلك أنا إليها.

لم تكُن سمر سترفض ذلك الأمر مطلقًا، فهي تريد البقاء بين يديه إلى نهاية العُمر، فقالت:

- كما تحب.

عندما شاهدت سها سمر وأمير يحملها احمرَّ وجهها غيظًا، كيف أصبحا بذلك التقارب من جديد، وجحظت عيناها وهي تنظر إلى أمير وبعينيها الكثير من الاتهامات.

عندما شاهد أمير عينَي سها شعر بالخطأ الذي ارتكبه، واجهته مع نفسه الحاقدة على سمر، فإن غلبته عاطفته.. عينا سها وما فعلته سمر لن يجعلاه ينسى، فأنزل سمر بخشونة، قائلًا:

- سوف أذهب إلى الأعلى.

عصير الكتب

فسألت سها كعادتها:

- اِبقَ قليلًا.

- لا، أريد الراحة لبعض الوقت.

قلب سمر ما زال يخفق وعيون سها تشاهد أمير وهو يبتعد عن أنظارها، وتساءلت سها بشيءٍ من الدهشة:

- هل عادت المياه إلى مجاريها بينكما؟

- لا، ولكني أشتاق كثيرًا إلى عودتها، ادعي لي.

- كيف حملك هكذا إذًا؟

- من أجل ابنه، هذا فقط ما يجعله يخاف عليَّ و يهتم بي بين الحين والآخر، لو لم يكن هذا الطفل بأحشائي لكان صرفني من حياته إلى الأبد، وما كنت وجدت طريقًا إلى العودة أبدًا.

- أين كرامتك من كل هذا؟

- أنا المخطئة، ولأنني كذلك سوف أكفر عن خطئي بتحمل كل شيءٍ منه، حتى اكتسابه من جديد، والحمد لله على هذا الجنين وكأنه رسالة من رب العالمين بفرصة ثانية.

لم تقل سها كلمة أخرى، في حين جلست سمر وأخذت تنظر إلى سها الضائعة عينيها عنها، وتابعت:

- فات وقت طويل ابتعدت به عنكِ وانشغلت بما يحدث معي، ولم أكُن صديقة جيدة لكِ، هل الوقت لم يحن بعد لتخبريني عن عمرو؟

عندما سمعت سها اسم عمرو شعرت بالحنق وبرزت عروق جبينها وهي

تطلب من سمر عدم التحدث بالأمر مرة أخرى، الموضوع بالنسبة إليها منتهي و إن كانت سمر صديقة جيدة وتحبها لا تسألها من جديد، لقد حدث الانفصال ولا تريد التحدث بالأمر نهائيًّا.

رضخت سمر لطلب سها دون إضافة كلمة أخرى، فيبدو على سها الانزعاج و يبدو أن الأمر مؤلم لها كثيرًا فلم تُرد أن تزيد من ألمها.

❐❐❐

طلبت سعاد من نعيم أن يأتي بإسراء وزوجته لكي يقرؤوا الفاتحة في وجود والد مصطفى، فلبّى نعيم الطلب سريعًا وذهب هو و إسراء وزوجته إليهم، وسط بهجة من الجميع ونظرات إسراء إلى مصطفى التي تحمل حبًّا كبيرًا داخل قلبها، مما يؤكد أن السبب الرئيس وراء تلك الزيجة إسراء.

طلبت سعاد بعد قراءة الفاتحة أن يأخذ مصطفى إسراء و يتحدثان على انفراد قليلًا مصطحبًا معه محمود.

ففعل مصطفى على مضض، الأمر كان مرهقًا بشدة، لم يستطع أن يرى بإسراء سوى شقيقة مثل ريم وحُرة، ويجب أن يتسامر معها وبدأ يوجه أسئلته إليها بشكل مباشر وجذري عن أشياء يشعر بالغرابة لطرحها قائلًا:

- هل أنتِ سعيدة بتلك الخطبة؟

تورد وجه إسراء خجلًا، وهزت رأسها بالإيجاب.

شعر مصطفى بالعطف تجاهها بشكل غريب، إسراء وتوردها يؤكدان شيئًا واحدًا فقط، أنها تُحبه، وتُحبه كثيرًا، كيف لم ينتبه لها من قبل، الآن أصبح واضحًا أمامه طلب نعيم له زوجًا لابنته، يبدو أنه قرأ داخل إسراء ما غفل عنه مصطفى وأصبح ساطع الرؤية أمامه الآن.

عصير الكتب

«الحُب! يا له من أحمق! يتلاعب بنا ولا ندرك! نجد اشتهاء غيرنا لنا، ونحن لا نبصره».

«لكل منا شخص يُحبه ولا يراه، و إن فعل لا يشعر به و إن شعر لا يريده، و إن أراده لا يحصل عليه، و إن حصل عليه لا يكون كما ابتغاه».

ظلا يتحدثان حتى انتهى اليوم واتفقوا جميعًا بالإجازة القادمة أن يذهبوا لشراء المحابس والذهب لإتمام الخطبة بأقرب وقت.

❐❐❐

بعد ذهاب سها المفاجئ طلبت سمر من فايزة أن تبعث إلى أمير، بأنها تريده على الفور لشعورها ببعض التعب.

بعد ثوانٍ من ذهاب فايزة إلى أمير.. كان أمامها يلهث ويتساءل.. بمَ تشعر؟

تطلعت إليه سمر والعبرات تملأ عينيها متسائلة:

- هل تلك اللهفة وهذا الذعر عليَّ أنا؟ أم على ما تحمله أحشائي منك؟

فطن أمير إلى ما تشير إليه سمر، وغضب عندما أحس أنها تلاعبت به، كي يذهب إليها وأدار وجهه إليها وهو يذهب نحو الدرج.

ذهبت وراءه وهي تصيح، والدموع تنهمر على وجهها، وأزاحت ستار الصبر والصلابة والأمل في حياة رائعة تعود من جديد ، كأنها تحولت، وصاحت قائلة:

- أخبرني ماذا يحدث معنا؟! ما الذي تنوي على فعله؟! هل تلك الحياة التي تريدها؟ حياة يغلفها الغموض، باردة، جافة، يملؤها اللؤم؟

❐❐❐

استغرب أمير من طريقة تحدثها هذا و التحول العجيب بها، كانت منذ ساعة

واحدة تتكلم معه بحنو وعطف، هل قالت سها لها شيئًا؟ و إن فعلت ألا تدرك بأن كل ما وصلا إليه هي من أنتجته؟! هل تملك الشجاعة لتنصب من نفسها قاضيًا يسأل، فنهرها ولأول مرة منذ مواجهتها له بالقلادة، قائلًا:

- كم أنتِ وقحة! هل تجرؤين على مساءلتي؟! كيف وقد خُدعت بك هكذا، وظننتك مَلاكًا كيف؟! أنتِ شيطان! أنا أمقتك وأمقت الحياة معكِ! أجل قلقٌ على ابني، أما أنتِ فلا أريد رؤيتك مطلقًا، لا أريد أن أبصرك حتى بأحلامي، أنتِ امرأة خائنة، خائنة مهما حاولتِ أن تبرري، سوف تضعين طفلي وأنفصل عنك إلى لأبد، لا أريد أن أراكِ بحياتي من جديد، لا أريد أن أبصرك أو أتنفس وجودك، وجودك يصيبني بالاشمئزاز.

لم تصدق سمر ما تسمعه أُذناها، ما هذا الكلام اللئيم الذي يقوله؟! لا يمكن لكرامتها أن تتحمل أكثر، يكفيها إلى الآن، هل يبغضها إلى تلك الدرجة؟! فقالت وهي تضغط بطنها:

- أنا لا أريد منك هذا الولد، إن كُنت لا تريدني، فأنا لا أريد أن يجمعني بك شيءٌ أبدًا، لا أريد أن تسامح، فأنا لا أطلب مسامحة شخص مثلك، يتحدث عن الحرية والتسامح والفكر الحُر، وأنت شرقي متعفن، أنا تلك التي لا تريد الحياة معك ولو لثانية واحدة، أبغضك وأبغض البقاء قربك، طلقني يا أمير، لا أريد رؤيتك مرة أخرى!

ظلت تضغط بطنها وهي تتحدث، فأمسك بيديها، وعيناه جاحظتان:

- لا تفعلي هذا مرة أخرى، و إلا قُمت بتقييدك، هل تفهمين؟ أما عن الطلاق.. فسوف أفعله، ولكن بعد أن تضعي صغيري، أنا مَن لا يريد أن يرى خائنة مثلك!

فتراخت قوى سمر، وظلت تبكي وأمير يبتعد عنها بالذهاب إلى الأعلى.

عصير الكتب

(12)

«الموت البداية، وليس النهاية»

استمر مصطفى وهاجر يتحدثان إلى آخر يومين بإجازته وبعدها اختفت هاجر تمامًا، لم يعُد يستطيع الوصول إليها مطلقًا.

استعد للذهاب إلى الجيش وودع الجميع بالمنزل ومرة أخرى الجميع يبكون خوفًا من سيناء وطُرُقها وحوادثها، وأدعية سعاد تصاحبه، ودع والده وودع شقيقاته بعد أن كتب رسالة إلى هاجر وبعث بها...

وبالطريق سمع من أحد زملائه أنه سمع في الأخبار أن هجومًا حدث بسيناء منذ يومين على إحدى المعسكرات وقاموا بتفجير هناك، وأحد الشباب هو من حضن الشاب المُلغم وقُتل كي يحمي باقي من بالمعسكر.

خفق قلبه لسماع هذا الخبر، ولكنه لم يقف عنده كثيرًا وظل يذكر الله كثيرًا ويطلب منه أن يلتقي مع محمد وسعيد على خير هما الأقرب إلى قلبه، انتهى الطريق..

وعاد من جديد إلى المعسكر، المكان به بعض الإصابات..

وعندما ذهب واستلم، سأل عن صديقه محمد، لكن لا أحد يجيب.

شعور بالذعر تسلل إلى قلبه، خفقان والهواجس تزوره، فطلب رؤية سعيد،

عصير الكتب

وما هي إلا ثوانٍ وكان يقف أمامه وبملامحه الكثير من الشجى، فتساءل بصوت مرتجف:

- أين محمد؟

- البقاء لله، محمد فتى شجاع.

ظل مصطفى ينظر إلى سعيد، ويتساءل من جديد.

- أين محمد؟

- اهدأ مصطفى.

- أخبرني أين صديقي محمد وبعد ذلك سأهدأ.

- محمد مـاتـ...

- لا، أتوسل إليك، لا تقُلها، محمد... لا.

- ضحى بنفسه من أجل الجميع، دفع بجسده ليتفتت بلغم الإرهابي، محمد رجل.

- محمد لا، لا أرجوك.

برك مصطفى على الأرض وهو يجهش بالبكاء، يتذكر ابتسامة صديقه ومرحه، يؤكد للجميع حوله أنه يعلم أن محمد سيأتي الآن بضحكته ويخبره أنه كان ينتظره، من سيهون عليه أيامه هنا، محمد يموت، لماذا كل جيد يذهب؟ هذا أكثر شخص رآه متصالحًا مع ذاته، هل دومًا يذهب الجيد ويبقى الخبيث؟ لا يمكنه تقبل موت محمد! ولن يمكنه أبدًا، حتى سقط مغشيًّا عليه.

❐❐❐

يعلو صوت القرآن بمنزل محمد ، الجميع هناك، شروق تسكن بغرفة محمد ومعها هاجر، لم تعد شروق تقوى على البكاء منذ البارحة والدموع تجمدت في عينيها...

غرفة محمد كأنها يدان تحتويانها وتطمئنانها.. أنه لم يتركها ويرحل، فراشه يحيط بجسدها الصغير ويشعره بالسكون ويبث بروحها الدفء.

فمنذ وفاة محمد طلبت من عمها وزوجته أن يتركوها تغفو على فراشه، لا تأكل ولا تشرب، فقط تأخذ صورته وثوب من ثيابه بين ذراعيها، شاردة بمكان لا يعلمه غيرها.

تبكي هاجر على حال عزيزتها شروق وهي تأخذها بين أحضانها، وتخبرها بأنها لا تصدق أن محمد تركهم، لا يمكنها الاستيعاب بعد، وكأن شروق بحاجة إلى سماع هذا الأمر فهي لن تتقبل مطلقًا أن تعترف بوفاته وإن أجمع الجميع على ذلك.

❐❐❐

تجلس سمر شاردة بأحد أركان غرفتها بمنزل والدها كالعادة منذ مكوثها معهم بالأيام الماضية، لا تحدث أحدًا ولا تقبل بزيارة أحد..

بالغرفة المجاورة لغرفتها يجلس والدها ووالدتها يتحدثان عنها وعن أمير والأب يقول:

- يجب علينا التحدث إلى سمر، يجب أن نعلم لمَ تصمم على الانفصال بهذا الشكل، أليس هذا أمير الذي كانت تعشق؟!

والأم تؤكد كلامه، مضيفةً:

- أنت على حق، بالأمر لغز مُحير، يجب أن نعلم لماذا لا يأتي لزيارتها وعندما علم بفقدانها الجنين تركها بالمشفى ولم يعد للسؤال عنها، وسمر تُصر على الطلاق، وتقول إنها لن تقبل بالعودة إليه مهما حدث، يجب أن نعلم ما الذي حدث بينهما وأوصل الأمر إلى هذا الحد.

فأكد الأب بأنهما لا يستطيعان سوى سؤال سمر، أما أمير.. فبالتأكيد موت محمد يؤثر في العائلة جميعها، ومن الممكن أن هذا السبب الذي شغله عن المجيء لرؤية سمر بالأيام الأخيرة، طالبًا منها التحدث مع ابنتها باللين ومعرفة كل شيءٍ منها.

❐❐❐

«مطار ألمانيا»

وقف كريم على مقربة من عائلته يودع فريدريك، يرتدي كريم ملابس جيدة، ألوانها قاتمة، أضيف إلى وجهه لحية خفيفة عمل على إنباتها وتحديدها بالأيام الأخيرة، يتأمل صديقه قائلًا:

- سوف أراسلك دومًا يا صديقي.

فاقترب منه فريديرك وهو يودعه، قائلًا:

- لا أحب ذهابك، ولست موافقًا عليه.

- أعلم، ولكن هذه هي الحياة نقابل أشخاصًا لنودعهم، ولكن أنا وأنت سنكون على تواصل دائم، وسوف نأتي أنا وهاجر لقضاء شهر العسل بألمانيا.

- ولكن أنت أخبرتني أنك لن تذهب إلا بالأسبوع المقبل.

- موت محمد هو ما عجل برحلتنا، واليوم أو غدًا، هناك سفر.

وأخذ يضمه ويودعه على أمل اللقاء القريب، فريدريك أحب الناس إلى قلب كريم، يبتغي لو بإمكانه السفر معه والمكوث معه إلى الأبد، ولكن تلك هي أضرار الغُربة أن ترحل دومًا عن أماكن تترك بها جزءًا من روحك، كأنه عقابٌ لك.

❐❐❐

يقف أمير بصوان محمد لليوم الثالث، يومًا عن يوم يفقد أمير جزءًا مهمًّا من هيكله، سمر لم تضِفْ إلى حياته البهجة والسعادة والراحة والحُب هباءً، بل أخذت أمام تلك الأشياء الوقتية سكونه وأناقته وجماله وسلامه ورضاه، حرمته طفله وهو أكيد بأنها فعلت ذلك عن عمد، فقد هددته كثيرًا أن تفعل، وقد فعلت.

«عودة إلى الوراء»

اتصال منذ أربعة أيام من سها، يجيب أمير بضيق، عندما وجدها المتصلة قائلًا:

- أنا مشغول الآن يا سها، سوف اتصل بكِ لاحقـ.....

لم يكمل جملته وسمع صراخ وبكاء ينذر عن كارثة حدثت، قائلًا:

- ماذا حدث؟! أخبريني!

فوجدها تبكي وتقول: لقد وقعت سمر من على الدرج وتنزف، وهي لا تستطيع التصرف، هرول وقتها إلى المنزل مع اتصاله بالإسعاف ووصولهما بالتوقيت نفسه، وجد سمر واقعة على الأرض وسط بقعةٍ من الدماء، تبكي وتتأوه من الألم والخوف وهي تنادي: «طفلي».

دقائق طويلة مرت أمام غرفة العمليات بالمشفى، وأمير يبكي خشية أن يكون ولدهما فُقد، وقلقٌ أيضًا على سمر، لا يمكنه إنكار ذلك فحبه لها الحقيقة الوحيدة وراء قسوته وجموده وكراهيته المعلنة أمامها، والدا سمر يسرعان إليه متسائلين عما حدث، فلم يستطع أن يخبرهما، ففعلت سها ذلك وهي تنظر إليه ويستمع إليها أمير بفضول ليعرف كيف حدث هذا الأمر!

وجدها تقول: إن سمر كانت حزينة. وتقول: إنها لا تريد هذا الولد، لأن أمير

عصير الكتب

لا يحبها وبأنه يبقى معها فقط من أجله، فهي لم تعُد تتحمل تلك الحياة، ولا تريده ولا تريد ولدًا منه، وبعد قليل نظرت إليها، بعد أن كانت قريبة جدًّا مني وننزل على الدرج، تستلقي بأسفله كما رآها أمير، وهي لا تعلم إن كان الأمر مجرد حادثة!

كانت سها تشير إلى أن سمر فعلت ذلك متعمدة وهذا ما أيقنه أمير من حديثها، وكان ذا تأثير كبير في نفسه، فسمر بآخر فترة كانت تهدد كثيرًا أنها لم تعد تريد أن يربطها شيءٌ به، أما عن الولد بأحشائها.. فتتمنى أن تفقده ولا يربطهما شيءٌ.

«عودة إلى الواقع»

لم يعد أمير يشعر برغبة في الحياة، تمنيه الموت يزيد يومًا بعد يومٍ، يأخذ بعزاء محمد ويتمنى لو كان هو المنعي، اليوم عَلِم ما المقصود بجسد دونٍ روح يقف بين الأرواح!

❐❐❐

في أثناء تأمل سها من شرفة غرفتها وتتبع المارة أمام منزلها، رسمت ابتسامة صادقة على وجهها بعد المحادثة التليفونية التي أجرتها منذ قليل ونالت ما تشتهي نفسُها، وكيف لا تفعل فكل ما خططت له تم كما تتمنى وبشكل رائع، سمعت صوت باب غرفتها يطرق ووالدتها تطلب الدخول، قائلة:

- ماذا تفعلين؟

- لا شيءَ، لماذا؟

اقتربت والدة سها ووقفت بجانب الشرفة وأصبحت مقابلة إلى سها بالرؤية، واسترسلت:

عصير الكتب

- لا شيءَ كنت أجلس بمفردي، ففكرت أن آتي إليكِ ونتحدث، بدلًا من مكوث كلٍّ منا بمفرده.

- ممم، حسنًا.

كانت سها تفطن إلى أن ما تقوله والدتها ليس الحقيقة، فهي تتوقع فعل مثل هذا من والدها، أما والدتها.. فلا، لا يحب كل منهما الاجتماع بالآخر كثيرًا، وهذا يرجع إلى شخصيتيهما المتشابهتين، على عكس باقي أبنائها كانت شخصية سها صاحبة الشبه الأكبر بشخصية الوالدة، فابتسمت عندما وجدت والدتها تتحدث، وعرفت بأن إحساسها صادقٌ، سوف تفرج والدتها عن ما يحمله قلبها:

- عمرو!

اقتضبت ملامح سها عندما تم ذكر اسم، عمرو واحمرَّ وجهها حنقًا، وسألت بفضول:

- ماذا به؟!

- لا يتحدث معكِ على الإطلاق؟

- ولماذا يفعل؟! لقد انتهى ما يربطنا.

- توقعت أن يتحدث معكِ، أليس غريبًا اختفاؤه بهذا الشكل.

- لا يهمني على الإطلاق.

- حسنًا.

حاولت سها أن تغير الموضوع، فقالت:

- أنا قلقة على سمر جدًّا، منذ أن فقدت جنينها وهي بحالة يرثى لها.

- ظننت أنكِ لا تحبين سمر طيلة حياتك وتغارين منها، ولكن يبدو أنني مُخطئة.

- لماذا تقولين هذا؟! سمر صديقتي الوحيدة.

عندما أدركت الأم كذب ابنتها، ابتسمت ابتسامة ساخرة وأطالت النظر إلى الخارج متابعةً:

- أنتِ ابنتي، أنا من قام بتربيتك، أنتِ أنا، فتاة تشبهني ولكن أصغر سنًّا، أعرف ما تشعرين، ومن تحبين ومن تبغضين، هذا أمر بدهيّ، فضلًا عن كوني أمًّا، ويمكنني رؤية الكثير بأبنائي.

لم تكُن سها تهوى أن تُشَبَّه بوالدتها، و عندما كانت عائلتها تفعل بصغرها كانت تثور عليها، فهي تملك قلب والدها الحنون، ولكن بعد ما حدث معها وكل ما مرت به، فهي بالفعل تشبهها وتماثلها في كل شيءٍ.

❐❐❐

بعد أن أفاق مصطفى، وجد نفسه مستلقيًا على أريكة داخل مكتب سعيد، نظر إلى سعيد نظرة راجية وهو يتوسل إليه أن يخبره بأن ما حدث كان كابوسًا بشعًا، وأن محمد لم يُمت، ليضغط سعيد يد مصطفى، قائلًا:

- كان تَعِسًا جدًّا لأنه لم يمكنه التحدث معك بعد مغادرتك، كان يؤكد أنه لن يراك من جديد، وكان قلقًا عليك لا على نفسه، أخبرني قبل موته بيوم أنه يشعر أن رؤية كلٍّ منكما الآخر ستكون مستحيلة، وقتها لم أفهم ما يقصد، ولم أكُن سأفهم أبدًا، محمد شخص نقي، ولأنه نقي ذهب مثل كل الطيبين الذين يرحلون عن عالمنا بسلام.

بكى مصطفى وهو يستوي على الأريكة، وقال مسترسلًا:

- أدركت سيدي أن مِن أبناء سيناء طيبين، أرأيت من هو محمد ابن سيناء؟ سيناء التي وجه «المخلوع مبارك» لها التهم هو وأعوانه، لينالوا رضا الأنجاس،

الصهاينة نجحوا دومًا أن يشعلوا البلبلة داخل القلوب، وكان طاغوت الحكم يشجعهم، كم دولة فقدت التواصل مع شقيقتها نتيجة لاندساسهم بيننا، أليس من اليسير عليهم أن يشعلوا الفتنة، ليمنعوا أحدًا من الاقتراب من حدودهم، و يبثوا الذعر داخل النفوس الهشة؟!

ولكن العيب ليس في الحكام، اللوم كل اللوم على أبناءٍ باعوا أشقاءهم من أجل سمعة، تم تداولها قبل التحقق من صِحتها.

شعر سعيد بالسخط الخفي داخل مصطفى ولم يجارِهِ بحديثه، يخشى أن يستمع إليه أحد فيعاقب، طالبًا منه أن ينهض و يذهب إلى خدمته.

ذهب مصطفى والحزن يُشَتّت قلبه، ينظر إليه سعيد وهو يبتعد خائِر القوى، رؤيته بتلك الحالة متوقعة، فمحمد أثّر في كل فرد هنا وخصوصًا سعيد، رؤيته وهو يحتضن الإرهابي كانت مؤثرة جدًّا، لن ينسى ما فعله ورآه منه طوال عُمره.

عندما ذهب مصطفى إلى مكان النوم ليستعد لاستلام الخدمة، وجد فراش محمد خاليًا، تجمعت دموع غزيرة من جديد بعينيه، تخيله وهو مستلقٍ على الفراش و يبتسم له، اقترب متأمله:

- كنت أعلم أنك حيٌّ، وأن هذا كذب.

ولكن محمد أصبح سرابًا، اختفى ككل شيءٍ مبهج ورائع عن عينَي مصطفى هنا، فمحمد الشخص الوحيد الذي أَحبه بهذا المكان، وقال:

- ليتني ما تركتك وذهبت، لو أعلم أنه الوداع لكنت ضممتك بقوة أكبر، لو أعلم أنني لن أستطيع رؤيتك من جديد لكنت غبت بضمتك قليلًا بعد، صديقي محمد، كيف أتأقلم على غيابك.

عصير الكتب

ترك كل شيءٍ بيده وذهب إلى فراش محمد واستلقى عليه وهو يخبئ دموعه بوسادته.

□□□

جلست هاجر على مقعد صغير بجانب الفراش الذي تستلقي عليه شروق، تطيل النظر إليها وهي تستلقي بهذا الشكل الحزين والصامت كأنها مومياء ذهبت عنها الحياة، والدموع تنسكب كشلال ينهمر على وجنتيها، وتتذكر كم تمنت أن تعيش حياة مثل ما تعيشها شروق، وكأن المفقود حبيب قلبها هي! هي من كانت تشعر معهما ولهما وبهما، بالحُب الذي يحمله قلباهما، يومان لم تذهب هاجر فيهما إلى منزلها، ترتدي نفس الثياب، تنعزل عن عالمها كله.

تساند شروق بفجيعتها، ولكن من يساندها، فكل يوم تفقد الثقة بأن هناك حياة سعيدة، أمير وسمر فقدا ابنهما وأنصتت إليه يخبر والده قبل ليلة من وفاة محمد أن سمرتريد الطلاق منه وهو يوافق لأنه لا مجال للرجوع، وكأن الحُب رحل عنهما وإلى الأبد مع رحيل جنينهما، والآن محمد وفراقه عن شروق ونهاية السعادة الحقيقة التي ملأت فؤادها، كيف اختفى الحُب من حياة من تحبهم بهذا اليُسر، تشعر بفقدان كل جميل بحياتها.

أصغت إلى صوت أحد يناديها من الخارج، فربتت على جسد شروق برفق قائلة:

- سوف أرى ما تريد عمتي وأعود إليك عزيزتي.

هزت شروق رأسها بالإيجاب، وظلت تقرأ قرآنًا بصوت خافِت وهي تصبر قلبها، والدة محمد لا تقل تعاسة عن شروق، فقلبها ينفطر على أول أبناءها، ولكنها كانت ذات ثبات عجيب، عيناها تذرفان الدمع ولكن صلابتها وحديثها يؤكدان فخرها بعزيزها محمد، فهي أُم البطل، قائلة:

عصير الكتب

- هاجر يا بنيتي، اطلبي من أشقاء البطل أن يقوموا بالنزول والوقوف بجانب والدهم وأخيهم أمير، أريدهم مثل عزيزي محمد بكل شيءٍ.

وهربت دمعة صارخة من عينيها، وأردفت:

- ابني العزيز سوف أزورك قريبًا لن أتأخر عنك، ولكن يجب أن أربي داخل أشقائك ما فعلته معك أولًا، فأنا والدة البطل.

بكت هاجر من حديثها، لم تعُد تتحمل أكثر مما تشعُر به، الموضوع يزيد داخلها، فذهبت سريعًا بعيدًا عن عمتها كي لا تنهار أمامها وأمام حديثها.

❐❐❐

مر يومان آخران، أصبحت الحياة هادئة وروتينية من جديد، مصطفى يتأقلم على الخدمة دون محمد، وانضم إليه شاب يشبهُه إلى حدٍّ ما، لا يتحدثان معًا إلا إن اضطرا. تفكير مصطفى بهاجر وبما تشعر يزيد منذ الصباح، ففكر أن يطلب من سعيد أن يذهبا معًا لتقديم العزاء، ولكنه لم يعرف كيف؟!

انتظر إلى وقت الغداء، وذهب مباشرةً إلى غرفته، وقام بإلقاء التحية، ونظر بضياع دون التفوه بكلمة.

أدام سعيد النظر إليه، ولمح ذلك السؤال الخفي وراء تشتته، وعلم على الفور بأن الأمر يخص محمد، فتساءل:

- لا تفكر.. تحدث مباشرة ماذا هناك؟

- هل يمكننا الذهاب، و....

أحس سعيد بالامتنان لبصيرته البعيدة، وهو ينظر إلى مصطفى، قائلًا:

- كنت أظن أنك لن تسأل مطلقًا، اليوم سوف نذهب كنت سأطلب منك، ولكنني انتظرت أن آتي بالموافقة على اصطحابك معي.

لمعت الدموع بعيني مصطفى وهو يستطرد:

- ممتنٌ لوجود شخص مثلك بذلك المكان، ممتنٌ لظروف جمعتنا كنت أخشاها وأخشى الاقتراب منها، صِرت إنسانًا غير الذي كنته حين أتيت، كل سنة من سنين حياتي يضاف إليها شيءٌ، يعلمني أنني كنت أعيش لمجرد العيش وليس الحياة.

- وما الفرق؟!

فرت دمعة من عيني مصطفى الصلب رغمًا عنه، فمع موت محمد فقد مصطفى قدرته على ادعاء القوة ورسم جمود الملامح، مسترسلًا:

- العيش يعني أنك إنسان يأكل ويشرب، يمارس حياة روتينية إلى يوم الملتقى، أما الحياة فهي التنفس بحرية، المعرفة، التقدم، الانخراط بكل شيءٍ، التعلم، التعاطف، التسامح، التضحية، الموت، ماذا قدمت لتموت؟! ماذا ستخلف وراءك عند الموت؟!

بكى مصطفى كطفل صغير:

- الموت الذي يأخذ منا من نحب بدرجات، أخذ والدي ليترك عينين تتألمان وجسدًا هزيلًا، أخذني من عائلتي وتركهم هناك دوني فشعرت عند عودتي أنني رجل جديد ينتظرون الطمأنينة بضمته، حتى الأم عندما كانت تضمني كانت تطمئن بي، وهل هناك أقصى من رجفة جسد الأم بين يديك، وأنت تدرك أي النساء هي، وقدر ما تحمله من قوة بداخلها!

الموت أخذ مني صديقًا لم أطمح يومًا بالحصول عليه، لم أحلم بمثله صديقًا، ولكنه استولى عليَّ وجعلني أدرك أن أخاك ليس فقط من أنجبت أمك، ولكن من أنجبته الظروف والمحن أيضًا، الموت أخذ من داخلي خوفي الخفي من

عصير الكتب

الغد، وقلقي من هنا، زاد من وطنيتي وحبي لذلك البلد وسخطي الشديد عليه ومنه، عند معرفة كيف سمح لأولاده بالظلم والقهر، أنا شاب عاش حياةً قديمةً له، والآن يعيش حياةً لغيره، شاب بسن العشرين، وجد نفسه يصارع سن الأربعين بكل ما تحمله هذه السن من مسؤولية.

فَطِن سعيد لما يحمله صوت مصطفى من أسى، فطلب منه الجلوس أمامه والهدوء قليلًا، وأخذ الطعام إلى جانبه وطلب منه الانضمام إليه ليأكل شيئًا، فقد علم أنه لم يتناول شيئًا باليومين الماضيين، وقال:

- طلبت من والدتي أن تضاعف وجبتي لليوم، كي تأكل معي وكنت سأبعث بطلبك.

- ولكنني لا أستطيع سيدي، اعذرني.

- لن أقبل الاعتذار، فوالدتي من أعدت هذا الطعام، أتريد منها ألا تدخلني المنزل من جديد أم ماذا؟

بش وجه مصطفى من بين دموعه عندما لمح نبرة سعيد المازحة، متابعًا:

- لماذا؟

- لأنني أخبرها دومًا بأن طعامها ليس رائعًا، ولكنني أتناوله رغم ذلك، فأنت ستتناوله رغم ذلك معي وتشعر بالمعاناة التي أعانيها كل يوم.

- إلى هذه الدرجة، لا أُصدق! فطعام الأم لا يشبه طعامًا آخر.

- تذوق بنفسك وأخبرني.

أخذ مصطفى ملعقة من الطعام، وتأزمت ملامحه، وأردف:

- كنت أظن أنه لا يوجد أسوأ من الأكل المقدم بالخدمة.

- هاهاهاها، عسكري! أنت تتحدث عن والدتي.

- أعتذر سيدي، ولكن هذا الطعام ينقصه الملح، وأفرط بالنضج، وبدون طعم.

- أنت صريح إلى درجة الوقاحة.

أُحرج مصطفى من حديث سعيد، وخشي أن يحمل الحديث على محمل الجد، فحاول أن يكذب قليلًا قائلًا:

- أنا أمزح الطعام جيد صدقني.

- أنا أكذب على نفسي طيلة سنين عمري، مضطر، ليس أمامي غيره، أما أنت.. فلست مُجبرًا.

مضيفًا سعيد بسخرية:

- أمي ليست هنا ولن تسمعك، لا تقلق.

ظهر على وجه مصطفى ابتسامة صافية، بعثت بقلب سعيد الرضا عن محاولته التي تكللت بالنجاح، أنه استطاع انتشال مصطفى من بؤرة أحزانه ولو لبعض الوقت، وتابع تناول الطعام معه في سلام، وسط أجواء مرحة هادئة.

❐❐❐

يبدل كريم ثيابه بعد استيقاظه من النوم، على أمل لقاء هاجر اليوم، فمنذ رجوعه إلى سيناء لم يستطع التحدث معها بحرية ولو قليلًا، جلوسها بمنزل عمه، وحادثة محمد أفشلت جميع محاولاته بقضاء وقت جيد معها كما خطط، ونظر إلى حقيبة الهدايا الموجودة على أحد المقاعد بغرفته وعبس قائلًا:

- متى ستتزين بكم عزيزتي هاجر وأراها ترتديكم؟

عصير الكتب

دلفت والدته إلى الغرفة وابتسمت حين رؤيته مستعد وقالت:

- جيد أنك مستعد، أريدك معي للذهاب إلى عمتك، فوالدك لا يقبل، ويقول أنه يجب عليه أن يظل مع شقيقه يواسيه.

- وأنا أريد أيضًا الصعود إلى هاجر.

- ولكنها لم تعد بعد إلى منزلها، هل ستنضم إليهم في الأعلى؟!

- لا، ولكن كيف يعقل أن نكون مخطوبين ولا أملك لها رقم هاتف، كيف؟!

- أخبر نفسك، هيا الآن لنذهب.

- ولكن أريد رؤيتها.

- سوف تفعل غدًا.

- كيف؟

- سألت والدتها منذ قليل كنت اطمئن على أحوال العائلة وأخبرتني أن هاجر ستعود إلى المنزل غدًا، والدها غاضب بسبب مكوثها الطويل بمنزل عمها.

- أخيرًا، هذا جيد.

وصمت لثوانٍ وبدا عليه انشغال الفكر ثم أردف:

- هل تظنين يا أمي بأن عمي سيتمّ زواجي بهاجر، رغم حادثة موت محمد؟

- عمك هذا.. أتوقع منه كل شيءٍ.

❐❐❐

لأول مرة تخرج سمر من غرفتها منذ عودتها إليها منذ أكثر من خمسة أيام، بعد إلحاح من والديها بالانضمام إليهما بالحديقة الملتحقة بالمنزل، وعندما جلست على كرسي بجانب والدتها، أومأ الوالد برأسه إلى والدتها لتباشر معها

عصير الكتب

الحديث، فقالت الوالدة:

- سمر عزيزتي.

وجه سمر شاحب، عينان نافرتان تلاشت منهما السعادة والبراءة، تطلعت إلى والدتها بلا مبالاة قائلةً:

- نعم؟

- نريد التحدث إليكِ.

- أعلم، وأعلم بأنكما أمهلتماني كثيرًا.

- هل تستطيعين التحدث الآن؟

تَاق الوالد إلى سماع إجابة حازمة من ابنته، هو لم يضغط عليها من قبل في شيء، ولكن هذا الأمر يحدد مصير ابنتهما، ليس الطلاق بالشيء البسيط في مجتمع مثل مجتمعهم، وأيضًا ما الذي حدث معهما ليصلا إلى هذه الكلمة، أين الحب الذي كان الجميع يتحدث عنه؟ فحسمت تساؤلاته إجابة سمر وهي تؤكد أنها تحتاج إلى التحدث فتابع بظَمأ، وأردفت:

- هل يكفي أن أقول أنني لست سعيدة مع أمير وتعذبت معه، من أجل أن يكون هذا مبررًا للطلاق؟! وتشجعانني عليه، أم لا؟

رد الأب قائلًا:

- لا.

- حسنًا، أنا وُصفت بالخائنة، هل هذا كافٍ؟

فَجع الأب لكلمة ابنته، خائنة! خيانة ماذا التي تتحدث عنه؟! هل ما أنصت إليه حقيقي؟! واستوضح:

عصير الكتب

- ماذا تقولين؟!

- يبدو أن الأمر غير كافٍ، سأضيف، لقد سُجنت بغرفتي، دون التحدث إلى أحدٍ، ودون رؤية أحدٍ أيضًا، كنت أتعامل جسديًّا بعنف، ويقال لي أبشع الكلمات، وأقساها (خائنة).

استعطفتها والدتها وهي تتساءل بذعر، هل ما تسمعه منها حدث بالفعل؟! أم مجرد مزحة سخيفة تطرحها عليهما سمر؟ في حين ثار والدها وهو يقول:

- هذا الحقير، كيف له أن يفعل، كيف؟!

شعرت سمر بالألم للتجريح بأمير، لم تستطع تقبل أن يهان بهذا الشكل أمامها، فواصلت حديثها:

- كان على حق.

حُطم والدها من كلمتها، وهو يجلس من جديد على الكرسي بخزيٍ، غير مصدقٍ لما يسمع، ابنتهما خائنة، بالتأكيد لا، هما يعلمان كيف غرسا بها القيم والأخلاق والفضيلة، ابنتهما سمر لا تفعل، سيُكذّب أذنيه إن لزم الأمر، وعينيه إن رأتا، وظنونه إن زارته، لن يقبل بغير حقيقةِ أن ابنته لا تفعل ذلك، فنظر إليها باغيًا أن تستأنف حديثها.

أكملت سمر على نفس الوتيرة الهادئة بالحديث:

- عندما يجد قلادة تحمل صورةً لغيره.. فهو محق، عندما يظن بي السوء وتمنعه رجولته من محبتي.. فهو محق، عندما يعنف جسدي وقلبي إثر ما يعانيه من ظلم وقع عليه.. فهو محق، ولكن ما لا يحق له أن يعاقبني دون التقصي، لم يفكر أن يسألني يا أبي، لم يفعل يا أمي، لم يأتِ إليَّ ويخبرني أنه يشك فيَّ، ويطلب توضيح لتلك القلادة التي حملت صورة سامح، ظنَّ بي السوء ووضع

عصير الكتب

العقاب وقام بتنفيذه قبل مساءلتي، أيُّ ذنبٍ فعلت عند احتفاظي بشيءٍ لمجرد أنه يذكرني بماضٍ مؤلم، فآثرتُ بقاءه لشُكرِ حاضرٍ ومستقبلٍ أفضل، أي ذنب يجعلني أفقد محبة وحبيبًا إلى الأبد، لأن الظنون كانت بيننا.

الآن أدرك والد سمر ما حدث، الآن علم ما عنته مكالمة والد أمير له، يبدو أنه لم يخبره عن حقيقة الأمر، الآن أيقن كم يبلغ هذا الشاب روعة، عندما حدثه والده وأخبره بأنه يريد أن يعلم لمَ تريد سمر الانفصال عن ابنهما إلى الأبد! وبأنه يريد التشاور بالأمر من أجل العائلتين، وبأن أمير يستطيع الاعتذار عن أي خطأ قام بارتكابه بحقها، ولكنه لا يتمنى أن يقبل والدها بالأمر ويوافقها على الانفصال، شعور بالثورة يجعله يبتغي نهر ابنته وصفعها بقوة وطرحها بالأرض، ولكن صوتها الباكي الحزين الفاقد لكل معاني الحياة، والحزن الخفي وراء شحوب وجهها يجعله ينهض في ثبات، وهو ينظر بعيدًا:

- لن أفعل معكِ كل ما سيفعله والد في مثل موقفي، يكفيكِ ما خسرتِه، شاب مثل أمير، الطلاق سيحدث قريبًا وأنا من سيعمل عليه.

ذهب والد سمر للتحدث مع أمير وتحديد ميعاد يصحبه فيه إلى المأذون.

في حين انهمرت الدموع على وجنتي سمر، قائلة:

- الرجال، أبي أيضًا لم ينتظر ويسأل، سمع فحكَم فظلَم.

أخذتها والدتها بين ذراعيها وهي تبكي على بكائها، ولا تستطيع التحدث بشيءٍ، لا تعلم ما إن كانت تؤنبها أم يكفيها ما يحمله قلبها من خيبات وذل.

❐❐❐

في المساء فكرت سها في الاتصال بسمر لأنها لا تستطيع التواصل مع أمير، فأرادت معرفة ما يدور حولها حتى لا تُسحب المياه من تحت قدميها.

بعد اتصال أول ردت سمر بالثاني، بصوت متهدج ضعيف وقالت:

- مرحبًا يا سها.

- أهلًا بكِ عزيزتي، ما أخبارك؟

- جيدة.

- حقًّا، وأمير؟

- اليوم أخبرني والدي أن الطلاق بيننا سيتم خلال الأيام القادمة.

ابتسمت سها ابتسامة رضا، لم تستطع إخفاءها من صوتها، وقالت:

- هذا أفضل.

- أجل.

- ستكونين بخير وتتناسينه، صحيح؟

- أمير لا يُنسى، أنا فقدت روحي معه ومع ابننا، كنت أتمنى أن يكون المعبر إلى حياة مقبلة رائعة، ولكنه ذهب وأخذ معه كل أمل.

- لا تتحامقي يا سمر، وتحاولي استعطافه.

سخرت سمر من حديث سها:

- ما حدث بيننا، لا يحتاج إلى عطف، يحتاج إلى تسامح وثقة وحب، ولقد ودعناهم منذ زمن بعيد.

شعرت سها ببعض الخطر، صوت سمر متسامح، هادئ، فأرادت التحدث مع أمير بأي شكل من الأشكال، فأغلقت الهاتف مع سمر وبعثت إليه برسالة، أريد التحدث معك بأمر هام على الفور، الأمر حياة أو موت.

وكما توقعت ما هي إلا ثوانٍ وكان اتصال من أمير.. يتساءل بلهفة:

- سمر حدث لها شيءٌ؟

- لا بخير، وأنت؟

- ما الأمر الذي هو حياة أو موت.. إذًا؟

- سامح.

- .....

- ألا تريد أن تعرف؟

- لا يهمني.

- حسنًا، معذرةً من الإزعاج، سوف أغلق الخط.

وعندما كانت تنتظر الرد كما تمنت، وجدت اتصالًا آخر على هاتفها، حين تطلعت إلى الرقم المتصل اعتلى وجهها ابتسامة، وسمعت صوت أمير يقول:

- ماذا عن سامح؟

- تحدث مع سمر واتفقا بعد الانفصال بينكما على الزواج، ومن أجل هذا وافق عمي على الطلاق، لأن سمر أخبرته أنها تحب سامح، لا أنت.

أغلق أمير الهاتف وهو لا يريد سماع مزيد، طالبًا منها عدم التحدث معه بالأمر مرة أخرى، ولكنها ضغطت عليه لتراه وبعد إلحاح، وافق أن يراها غدًا، أمسكت هاتفها وهي تجري اتصالها الجديد بمنتهى الخُبث والدهاء.

❐❐❐

عصير الكتب

(13)

«الخيال هزم الواقع حين قرر الهزل، فلن تساعدك الدموع ولن تنجيك ضحكةٌ زائفة»

في أثناء صعود مصطفى وسعيد إلى منزل صديقه محمد، تمنى أن يلتقي بهاجر، كان يعلم أن الأمر مستحيلٌ، فكما أخبرته بأحد أحاديثهما أنها تسكن بمنزل آخر.

ولكن عندما طرقا الباب، وجدا المستقبل لهما هاجر، نظرة طويلة جمعت بينهما، لم تستطع هاجر التحكم بنظراتها كما فعل مصطفى، الاثنان كانت عيونهما تقول الكثير، فهمت هاجر ما أراد مصطفى قوله ووجوده بجانبها، وبأنه أتى ليواسيها، كما أدرك مصطفى اللهفة بنظراتها والخوف والحزن، فابتغى لو بإمكانه ضمها وطمأنتها داخل أحضانه.

واستيقظ الاثنان من شرودهما على صوت والدة محمد تسأل من الزائر، فأسرعت هاجر إليها قائلة:

- صديقا محمد يا عمتي.

رقت عينا الأم، وأسرعت إليهما وأخذتهما داخل أحضانها طالبةً منهما الدخول، وهي تقول:

عصير الكتب

- صديقا البطل، صديقا ابني محمد عزيزي.

شعر سعيد بالأسى على حالة والدة محمد كما فعل مصطفى، ولكن مصطفى وعينيه كانتا غائبتين بمكان آخر، مكان حيث تتأمله عينان خفيتان من بعيد، طلب سعيد من والدة محمد أن تخبرهما لو احتاجت إلى شيءٍ، وأضاف مصطفى:

- أجل يا أمي نحن مكان محمد، أعلم جيدًا أن لا أحد يشبهه ولكن نحن تحت أمرك بأي وقت.

- بارك الله فيكم يا بني، طبعًا أعلم ذلك، أنت مصطفى، صحيح؟!

❐❐❐

من غرفة أخرى عندما سمعت شروق اسم مصطفى نهضت عن السرير، وارتدت ملابس جديدة وأحكمت غطاء شعرها وسط ذهول والديها اللذين كانا يبكيان منذ قليل على حالها، وبأنها ستموت من قلة الطعام والبكاء المستمر هذا، فتساءل الأب بشيءٍ من القلق:

- إلى أين أنت ذاهبة يا عزيزتي؟!

لم تكن شروق تقوى على التحدث، ولكنها أخذت بقدميها وذهبت إلى الغرفة الجالس بها مصطفى، وقالت وهي تشير إليه:

- أنت مصطفى!

وتابعت وهي تبتلع ريقها بصعوبة وتجاهد لقول الكلمات:

- أنت من أحبك عزيزي محمد كثيرًا، أنت من شاركتني محبته، محمد كان يشعر بأنه لن يراك من جديد، لم أخجل من أن آتي إليك، لأراك، فمن خلال عيني سوف يراك عزيزي محمد.

عصير الكتب

وأخذت تبكي دموعًا غزيرة كانت ودعتها الأيام الماضية وجفت في عينيها، وقالت بحسرة:

- محمد لم يكن له أصدقاء وكنت أنت الشريك الوحيد الذي دخل بيننا، محمد عزيزي مات ويجب أن تأتي إليَّ بحقه، محمد لم يكن له أصدقاء وكنت أنت كل أصدقائه، حقه أمانة برقبتك.

ووقعت شروق على الأرض مغشيًّا عليها وسط ذهول عمها ووالدها ووالدتها مما فعلته وقالته، فكانوا يظنون أنهم لن يستمعوا إلى صوتها هذا من جديد أبدًا.

استأذن سعيد ومصطفى من والدة محمد في الذهاب، وأخبراها بأنهما سيسألان عنها دومًا، وذهبا إلى الخارج، لعدم تمكنهما من المكوث أكثر في ظل الظروف الراهنة.

في حين خرجت هاجر من غرفة شروق، ونظرات متبادلة سريعة بينها وبين مصطفى قبل أن يذهب.

❐❐❐

باليوم التالي ذهبت سها لتلتقي أمير بعد أن أذنت والدتها لها في الذهاب، لم تندهش سها من فعل والدتها ومعاملتها الجيدة لها منذ فترة، لم تساورها الشكوك حول التبدل الغريب الذي طرأ على شخصيتها، كل ما كان يشغل بالها أن ترى أمير وتنفذ خططها.

حين خرج أمير من مكان عمله.. فوجئ عندما وجد سها تنتظره بسيارتها، واقترب متسائلًا عن سبب الزيارة، فتحدثت سها بصوت مليء بالأنوثة:

- ألم نتفق معًا بالأمس أننا سنتقابل اليوم؟

عصير الكتب

- أجل أتذكر ولكننا لم نتفق أين؟! لا يليق بسيدة أن تقف أمام مقر عمل رجل غريب.

- ولكنك لست غريبًا بالنسبة إلي.

- حسنًا، الآن سوف أذهب إلى المنزل أريد الراحة.

- ولكن هناك أمر يجب أن أخبرك به.

- ما هو؟!

أشارت بعينيها إلى السيارة، طالبةً منه الصعود معها، كي تريه شيئًا هامًّا، لم يقبل الجلوس بجانبها، اعتذر وطلب منها هي الانضمام إليه بسيارته، فلا يفضل الجلوس بجانب أنثى وهي تقود السيارة ، صعدت بجانبه، وطلبت منه الذهاب، دون أن تعلمه الوجهة الحقيقية.

في أثناء القيادة كانت توجهه إلى حيث يذهب، وهي تقول:

- البارحة لم تعط لي المجال لأخبرك بشيءٍ هام.

تذكر أمير مكالمة البارحة واحمرَّ وجهه غيظًا ونظر طالبًا منها قول ما تريد والانتهاء، فقالت:

- حسنًا، اليوم سيتم الترتيب لكل شيءٍ بين سامح وسمر.

ضغط أمير مكابح السيارة بعصبية، مما أدى إلى ضَرب رأسه بعجلة القيادة، فزعت سها مما حدث وأمسكت به متسائلة:

- أنت بخير!

- أنتِ كاذبة.

تمالكت سها أعصابها وسحبت يدها من على ذراعه وقالت بثقة:

عصير الكتب

- لست كاذبة اليوم الساعة الثامنة مساءً سوف يذهب سامح لمحادثة والد سمر والتحدث معهم بكل شيءٍ.

- لا غير معقول لا أصدقك.

- نحن الآن الساعة الثامنة إلا عشر دقائق، اذهب إلى هناك وسوف تتأكد بعينيك.

- و إن كان لا يهمني، فليفعلوا.

- حقًّا لا يهمك؟!

- أجل نحن سننفصل نهائيًّا قريبًا، ولا يهمني أمر آخر.

شعرت سها بوجوب الضغط أكثر عليه، لا يجب أن تبوء كل مخططاتها بالفشل هكذا، فقالت:

- ولكن ألا تريد رؤية سامح، وتعرف كيف يبدو؟

ضغطت سها بمنتهى الحرفية على موطن الضعف داخل أمير، فالجزء الذي عشق سمر يشتهي رؤية ماذا بالرجل الآخر أفضل منه؟! ولمَ أحبت سامح؟! ولم تفعل ذلك معه؟! فلم يجبها، فقط أدار محرك السيارة وذهب.

❐❐❐

ذهب كريم محملًا بالهدايا إلى منزل هاجر، رائحته كرائحة الزهور، وملامحه جذابة، وملابسه أنيقة وعصرية مناسبة للذوق العام لأهل سيناء، مع إضافة الجاذبية الغربية.

طلب عمه منه أن يقص عليه أحواله، واعتذر إليه أنه لم يرحب به بالشكل اللائق:

عصير الكتب

- موت محمد صدم الجميع.

- بالفعل، لم أكن أتخيل بأنني لن أراه مرةً أخرى.

- محمد كان فتًى ساذجًا، من الجيد أنه مات شهيدًا، عن أن يموت غدرًا بثقته العمياء بالناس.

صعق كريم من حديث عمه، هو يعلم بأنه شخص صلب، والجمود أهم سمات شخصيته، ولكن ليس إلى تلك الدرجة، هذه قسوة وموت قلب وليست صلابة على الإطلاق، ورأف بحال هاجر، كيف تعيش مع هذا الوحش، هذه الفتاة الرقيقة، فأنصت إلى عمه يضيف:

- سوف تتزوج أنت وهاجر بعد أربعين محمد.

- حقًّا؟

- أجل. الأربعون سينتهي بنفس الوقت الذي حددنا به العُرس.

- ولكن ألن تحزن العائلة؟!

- لا لن تفعل، المتوفى ابننا والمتزوجان ابننا وابنتنا، لا تقلق أنا من يفصل في تلك الأمور.

❐❐❐

اليوم، لأول مرة منذ أسبوع تخطو قدما هاجر غرفتها، أخذت حمامًا باردًا، وارتدت ملابس جديدةً سوداء، ونزلت إلى الأسفل لترى كريم على مضضٍ.

❐❐❐

كانت سها تفكر في طريقة تجعل أمير يذهب بها إلى منزل سمر، لكن رؤيتها لحالة أمير ونظراته إليها جعلها توقِن داخلها بأن الأمر مستحيل، فأمير يبدو

عصير الكتب

عليه الغضب لن تستطيع التفوه بكلمة، و إغضابه أكثر، خائفة من بطشه وهو بتلك الحالة.

أوقف أمير السيارة مرة واحدة بكل حزم، تطلعت حولها لتبحث عن سيارتها فوجدت نفسها أمام منزل سمر، تطلعت حولها بانتصار لقد نجحت لم تذهب مخططاتها سدى كما خيل إليها، الآن سيرى أمير بعينيه خيانة سمر له.

تطلعت إلى ساعة يدها وجدتها الثامنة تمامًا .

يتطلع أمير إلى منزل سمر بجنون، يتمنى لو تكون سها كاذبة.

سها تنظر إلى الساعة تخطت الثامنة ودقيقتين، لقد تأخر، لماذا يا تُرى؟! حقًّا لو فشلت مخططاتها ولم يأتِ، جميعها تساؤلات تطرق برأسها، وصوت أمير من جانبها يقول:

- سوف أذهب.

وأدار محرك السيارة وسها لا تستطيع قول شيء، حاولت التفكير بقول شيءٍ يجعله ينتظر قليلًا ولم ينجدها تفكيرها، وفجأه وجدت وجه أمير يحتد وعروقه تبرز والحنق يعلو وجهه، ونظرت إلى حيث ينظر، لتدهش هي الأخرى.

❐❐❐

عندما خطت هاجر إلى داخل الغرفة وجدت كريم ووالدها يجلسان، وشعرت بالسخط والنفور عندما سمعت والدها يخبر كريم أنه سيرسل بهاجر ووالدتها لإكمال حاجاتها، ليتم الزفاف بموعده، وعندما لاحظا وجودها، قال والدها:

- هاجر خذي كريم واذهبا لتجلسا على انفراد بالغرفة المجاورة.

عندما رأى كريم هاجر خفق قلبه بشدة، متأملًا إياها في ولع، ينظر إلى

عصير الكتب

ملابسها السوداء التي زادت من جمالها، وعينيها والقلق الواضح فيهما، فأخذ الهدايا التي أتى بها إليها وذهب وراءها إلى الغرفة الأخرى مثلما طلب والدها.

عندما جلس بالقرب منها تمنى لو بإمكانه مصافتحها، فتحدث على الفور:

- هل يمكنني مصافحتك؟

لم تستوعب بعد ما طلبه كريم، لمَ يطلب مصافحتها، ولمَ عيناه بهما هذا الدفء الغريب؟! هل حقًّا أحبها وليس مرغمًا عليها؟! هل يراها أنثى يتمنى الزواج بها على عكس ما تفكر؟! ولكن كيف؟! هل يترك هؤلاء الفتيات الغربيات ويحبها هي، هي من تكبره عُمرًا؟! وإن لم يكن يبدو عليهما ظاهريًّا ولكن بداخله يعلم أنها تُكبره وأن والدها من طلب تلك الزيجة، هو لم يطلبها بإرادته، سمعته يطلب من جديد:

- هاجر هل يمكنني مصافحتك؟

- لماذا؟

- أريد الشعور بملامسة يدي ليدك، أشتهي هذا!

قربت يدها برجفة خفيفة تسري بها، وقالت وهي تنظر إليه:

- أهلًا بك.

أمسك كريم يدها ولم يرد أن يتركها، قائلًا:

- يا الله!

تورد وجه هاجر خجلًا، لأول مرة تلامس يدها يده، فقالت:

- أترك يدي.

عصير الكتب

- ولكني أريد الإمساك بها إلى الأبد.

- كريم من فضلك.

- حسنًا.

ونظر إليها نظرة خاطفة وابتسم قائلًا:

- هل تضعين مساحيق التجميل؟

- بالطبع لا.

- إذا كيف أصبحتِ بهذا الجمال؟! ما شاء الله!

كانت هاجر تشعر بسخونة وجهها ولكن حديثه الملاطف زاد من سخونتها، فعادت مرة أخرى إلى حيث تجلس وهي تبتعد قدر المستطاع عنه، نظرت إلى المكان حولها والغرفة البسيطة الهادئة وقالت:

- كان وقتًا عصيبًا، الفترة الماضية.

- أعلم، محمد -رحمة الله عليه- كان شخصًا جيدًا جدًّا.

تجمعت الدموع بعيني هاجر من جديد، وشعرت برغبة ملحة بإطلاق العنان لدموعها بالانهمار، ولكن وجود كريم لم يكن ليجعلها تفعل أبدًا، فتحاملت على نفسها:

- لقد ذهب وتركنا ورغم عدم قدرتي على التصديق إلا أنني أصبحت أعتاد الأمر، أما عزيزتي شروق فهي من لا تستطيع التغلب على ما يوجد داخلها، تمزق أعماقي رؤيتها بهذا الشكل.

- غريب.

- ماذا؟

عصير الكتب

- أتأملك! كيف لفتاة مِثلك أن يكون هذا الرجل في الغرفة المجاورة والدها؟! أنتِ رقيقة جدًّا، وحنونة، على عكس تبلد المشاعر الذي لاقيته منذ قليل! آلمنى حين رأيت هذا الجمود، وتخيلت فتاة مثلك كيف تعاني معه!

شعرت هاجر في حديث كريم بالخلاص، إحساسه صادق فلامس أوتار قلبها، لم يكُن كلامه يقل شأنًا عن حديثها إلى نفسها يوميًّا، فأدركت كم يشبه كلاهما الآخر، وَصِفة مشتركة بينهما هي الرفق.. الإنسانية.

تحدث كريم من جديد عندما أدرك صمتها، وقال:

- اليوم أدركت شيئًا مهمًّا جدًّا يا هاجر.

- ما هو؟!

- أنكِ أنثى لا تشبهين أحدًا، فعلمت كيف وقعت بغرامك منذ الصغر! ولم أكن أصدق بأن كلًّا منا سيكون للآخر.

- منذ الصغر؟!

ضحك كريم على حديثها فمن بين حديثه.. تلك الكلمة فقط ما انتبهت إليها، وأردف:

- نعم منذ الصغر، أنا أحببتك منذ كُنا صغارًا أحببت تلك الفتاة الخجولة، الطيبة البريئة، وكان يؤلمني انكسارك وعزمت عندما أكبر أن أجعلك قوية، وشامخة ولا تُقهرين أبدًا، سوف أبث إليكِ الثقة من خلال نظرتي إليك.

- هل هذا ممكن.

- سترين، لقد عُدت فقط من أجل هاجر.

تناست هاجر بُغضها لكريم، والحنق الذي حملته طيلة الأشهر الماضية، منذ

عصير الكتب

معرفتها بطلب والدها أن يقوم بخطبتها، الآن تراه، تستمتع بحديث عذب من شخصية لطيفة، كريم شاب لطيف مهما اختلفت درجة تقبلها له، ولكن هل يمكنها تقبله كشريك حياة؟!

□□□

عينا أمير ستقتلعان من مكانهما، عندما وجد سامح يركن سيارته على الجانب الآخر ويحمل بيده اليمنى الورد الأبيض الذي تُحبه سمر وعلبة أخرى حمراء بيده اليسرى.

ضُخت الدماء إلى رأسه وعزم على أن ينزل من السيارة ويقوم بلكم سامح حتى يقتله، ويذهب إلى والد سمر وابنته ويقوم بتعنيفهما. وحين أوشك على النزول أمسكت به سها جيدًا، قائلة:

- خطأ، تحكم بغضبك يا أمير، أم أنك تُغار على سمر، ومازلت تحبها رغم خيانتها لك؟

سَكَن أمير جراء حديث سها اللاذع، حقًّا بأي وجه سيواجههم؟! هو فقط من يستحق تلك اللكمة على وجهه لأنه صدق حبَّها الزائف، ووجد يد سها تتحسسه وتخبره، هيا يا أمير لنرحل من هنا أرجوك، هيا!

أدار أمير السيارة وأسرع بها بعيدًا عنهم، وذهب بسُها إلى جانب سيارتها وتركها ورحل، رغم توسلها لتبقى معه.

أخذ سيارته ورحل بعيدًا، ليجلس مهرولًا إلى شجرته الصغيرة لكي يستطيع التعري من كل ما يؤلمه أمامها، بكى كثيرًا وثار على شعوره بالغيرة الذي يشقه، رؤية سامح والورد بيده يمزق أوصال أمير، هل هذا ما أعجبها به وسامته؟ أناقته؟ ملامحه الجذابة؟ بنيته العريضة؟! ماذا جعلها تحبه أكثر من إخلاصها

عصير الكتب

إلى زوجها؟! كيف يمكنه التغاضي عن الأمر، يجب عليه الانتقام منها، سوف يعمل على أن يأخذ حقه.

❐❐❐

دلفت سها إلى داخل منزلها والسعادة تملأ فؤادها، لم تكُن لتعطي سعادتها إلى أحد، وعندما دلفت إلى الداخل وجدت أمامها والدتها ترمقها بنظرات حاقدة، وكأن عينيها نارٌ موقدة، قائلة:

- هناك زائر من أجلك بغرفة الضيافة.

- مَن؟!

- ادخلي الغرفة وستعلمين، أعتقد بأن تلك المفاجأة خاصةً، ستعجبك كثيرًا.

لم تحب سها طريقة تحدث والدتها، لكنها أسرعت بريبةٍ إلى الداخل وهي تستعلم عن من الزائر يا تُرى؟! تصنَّمت مكانها وهي تجد آخر شخص توقعت أن تراه هذه الفترة وبخاصة هنا، وقالت بتعجبٍ وخوف:

- عمرو؟!

- لقد اشتقت إليكِ عزيزتي.

ابتسامة هادئة تعلو وجه عمرو، وهدوء واضح على ملامحه، صادق في نظراته إليها التي تلتهمها شوقًا ولهفة، وبين نظراتها إليه ونظرات والدتها، طلبت منها والدتها الجلوس و إخبارها، من الصادق بهما، قائلة:

- عمرو يقول بأنكِ أتيت بزيارة ودية، ولم تنفصلا، ما رأيك؟!

❐❐❐

بعد أسبوعين كان هاجر وكريم قد تبادلا أرقام هاتفيهما وكان كريم يُحدثها

يوميًّا، شيءٌ غريبٌ يربط بينهما، يوم عن يوم يعلقها به وتنتظر محادثته، وتنجذب إليه، سمعته يقول:

- هل ارتديتِ الملابس التي أتيت بها إليكِ؟

- لا، أمي أخذتها لتضعها مع لوازم الزفاف.

- جيد، لأنني أردت رؤيتها عليكِ.

تورد وجه هاجر خجلًا ولكن شيئًا غريبًا كان ينقص من فرحتها، شيئًا مفقودًا يقبض قلبها ويؤكد لها أن ما يحدث معها ليس الخير.

ولكن كريم سحبها من بؤرة حيرتها وغضبها، عندما أخبرها بأنها غير مجبرة على الزواج به إن لم تكُن تريد هي أيضًا الزواج به، فتساءلت:

- حقًّا إن لم أرد الزواج بك، سوف تخبر أنت أبي؟

وضح على صوت كريم الشجن عندما وجد بصوتها الشغف بالانفصال، فهل تريد الابتعاد عنه وعدم الزواج بِه، وهو من ظن بأنها تبادله المشاعر نفسها؟، فقال وهو يتألم:

- سوف أفعل، إن كنتِ تريدين، سأفعل كل شيءٍ من أجل أن أراكِ سعيدة.

فكرت هاجر لبعض الوقت وسألت سؤالًا غريبًا قائلة:

- هل تصلي؟

دهش من سؤالها، خائفًا من إجابته عليه، وأيضًا هو يتمنى بداية جديدة معها بدون تعقيدات أو كذب، فاستطرد:

- لا.

- كُنت أعلم.

عصير الكتب

- هل وقعت من نظرك.

- لا، ولكن أريد منك أن تصلي.

- سوف أفعل أي شيءٍ من أجلك.

- لا، أريدك أن تفعل من أجل الله، وأن تحب العبادة لله، أريدك أن تُحب الله لأنه الله، أنا لست خالصةَ النقاء، إنما أنا فتاةٌ لي زلاتي وهفواتي، ولكني أُحب التائب النادم، المُحب لله، ليس خوفًا منه، بل حُبًّا له، تحبه فوقَ حبك لوالدك ووالدتك فأنت لا تحبهما مجبرًا أو خوفًا من العقاب، بل تحبهما وتريد رضاهما عليك، تحب الله وتريد الموت لتلقاه، من يتعامل من أجل الله لن يخطئ.

- أنتِ رائعة، كل يوم أزداد تعلقًا بكِ.

- ستصلي؟

- سأفعل حُبًّا لله.

- أحبك الله.

- وأحبتْني مخلوقته هاجر، اللهم آمين.

في أثناء تحدث هاجر مع كريم وانخراطها بالكلام، تذكرت اللاب توب، لم يكُن لديها الوقت الذي تطالع آخر الأخبار به، وقتها قسم بين شروق ومحادثات كريم، وشروق مرة أخرى، انتهى حديث كريم وهي تفتح حاسوبها، وقالت:

- يا تُرى تذكرني أحد؟!

فتحت مواقع التواصل الاجتماعي، وأخذت تنظر إليها، وعندما ذهبت إلى الرسائل وجدت الكثيرين من العائلة أرسلوا إليها الرسائل والكثير من المنشورات المعلقة تطلب إذنًا في الظهور على صفحتها يقدمون واجب العزاء

عصير الكتب

ومن بين الرسائل رسالة من مصطفى، فتحتها وهي تتذكر يوم أتى إلى زيارتهم بمنزل محمد ونظرته الطيبة المليئة بالعطف، تأملت حروف مصطفى وهو يقول:

«هاجر.. أول يوم، ثاني يوم... هاجر، وفي اليوم الثالث الساعة التاسعة مساءً كتب، هاجر شقيقة أخي محمد أخشى عليكِ كثيرًا و يقلقني غيابك هذا، أتمنى أن تكوني بخير، قلق كثيرًا عليكِ، اليوم سوف أذهب لأرى محمد وسأخبره بأننا نتحدث وبأنكِ أصبحتِ شقيقة ثالثة لي، أتمنى أن أستطيع الاطمئنان إليكِ منه، أتمنى ذلك».

قرأت الرسالة بدموعها وقالت: لم تجده لتخبره، فعزيزي محمد ذهب إلى حيث لقاء ربه، شعرت بالحنين إلى حديثه تمنت لو كان بإمكانه التحدث الآن، ولكنه بالتأكيد الآن يخدم هنا بسيناء، فبعثت إليه رسالة تقليدية:

- شكرًا مصطفى أنا بخير، البقاء لله.

وسرت نفس الرجفة التي تشعر بها كلما لمحت وجوده كتابةً أو رؤيةً، أومجرد تذكره، أخذت تبكي بشدة وهي لا تعلم ما الذي يحدث معها، قلبها يتألم بِشدة، فمحمد مات وأخذ كل جميل معه.

سمعت صوت رسالة يصدر فاستنتجت أنه أحد الأقرباء، رآها متصلة، ولكن عندما بصرت المرسل ذهلت.

❐❐❐

يجلس أمير وأمامه سمر ووالد أمير ووالد سمر وأمامهم المأذون، أمير حاول طيلة الأسبوعين الماضيين أن ينسى سمر وألا يجعل فكرة الانتقام تؤثر فيه، ولكن عند رؤيتها أمامه نقم عليها وشعر بالاشمئزاز منها ورغبة ملحة أن

يقوم بصفعها، لكمة تلو الأخرى، وأخرى تلو الأخرى حتى لا يبقى منها شيء، ولكن هل يفعل وينفث عن غضبه وجرحه العظيم منها؟

تختلس سمر النظر كل دقيقة إلى أمير، كم تشتاق إليه وتتمنى لو يتطلع إليها لمرةٍ واحدةٍ، وقتها من الممكن أن يرق قلبه لها ويعودا من جديد ولا ينفصلا. حقًّا، شعور الانفصال، مثل شعور خروج الروح من الجسد، تلك ميتة وتلك ميتة أيضًا، في كلا الحالتين هي شخص مفقود.

تتمنى لو يمكنها الذهاب إليه وأخذه بين ذراعيها وضمه، وبعد ذلك تقوم بصفعه على ما جعلهما يعانيانه، ولكن كيف لها أن تفعل، فهو يتهمها بالخيانة زورًا، يا لجرأته هو من فعل، لقد خانها، الآن هي من لا تريده ولن تستطيع مطلقًا أن تغفر له.

❐❐❐

انهمرت الدموع منها رغمًا عنها، فكرة أن تعيش دون أمير لا يمكنها تحملها! على من تكذب هنا؟

بالقلب به فراغ لن يملأه سوى حُبه، ومع توديع حبه ستودع هي دنياها إلى الأبد، خطف أمير نظرة إليها وعندما رأى الدموع على وجنتيها صعق، هل تبكي؟ من توهم هنا؟ ألا تشعر بالخجل على الإطلاق لتبكي في حضرته وكأنها المجني عليها، قائلًا دون الاهتمام إلى أحد حولهما:

- تبكين؟!

❐❐❐

تجلس والدة سها مع إحدى صديقاتها الثرثارات، فأخبرتها ما حدث وماذا يقول الناس عن عودة عمرو زوج ابنتها وعودتها معه إلى الخارج،

عصير الكتب

وبأن ما حدث أمر جيد، فالكل كان سعيد أنها فشلت بتربيتها لابنتها، مضيفة:

- سعيدة أن سها ذهبت، هل تعلمين من ستطلق اليوم؟

- من؟!

- سمر، صديقتها، لا أحد يعلم عن الأمر، ولكنني علمت من مصادري الخاصة.

خفق قلب الوالدة واختنق صدرها، فهي تعلم أن سها لها يد بطريقة ما بطلاق صديقتها، فقالت:

- هل أنتِ واثقة أنه اليوم؟

- صدقيني.

تعلّلت الأم بأنها متعبة ويجب عليها الراحة، لن تستطيع الجلوس معها ويجب عليها أن تستلقي على الفراش، لتذهب الصديقة، وتهرول الأم إلى زوجها وتخبره بما عَلِمت:

- أنا واثقة، بأن سها السبب.

- لماذا تقولين هذا؟

- سها فعلت الكثير وأنا أعلم مدى الحقد الذي تحمله داخلها على سمر وما فعلته معها، وأيضًا ما يجعلها تكذب علينا يجعلها تفعل أي شيءٍ.

- لا أفهمك!

شعرت الأم بضرورة إخبار زوجها ما حدث معهم الأيام الماضية، وما فعلته سها مع عمرو ومع الجميع، فبدأت تسرد وهي تتذكر يوم مجيء عمرو.

عصير الكتب

«عودة إلى الوراء»

وقفت وقتها سها مثل التمثال بمكانها لم تستطع التحرك في حين اقترب منها عمرو وقال:

- لماذا أخبرتِ الجميع بأننا على خلاف يا سها؟!

- لأنك أجبرتني على الزواج بك، أنا أريد الطلاق.

- لماذا، ما الذي فعلته بِك.

- لن أقول أمام أمي.

اقتربت منها والدتها وأخذت تعنفها، وتقوم بهزها كي تفعل وتتحدث.

حتى انهارت سها، وبكت وأضافت:

- هل تريد أن أقول لهم أنك قمت بسلبي أعز ما أملك قبل زفافنا؟ وتهديدك لي أن أفعل هذا دومًا و إلا تتركني دون زواج.

صعق عمرو مما تقول في حين لم تصدق الأم الأمر، فأغلقت الباب عليهم خشية أن يستمع إليهم أحد، ونظرت الأم إلي عمرو منتظرة الإجابات على ما تقول سها، فتعرق جبينه خجلًا وقال:

- لم يحدث، حقًّا لم أفعل، كل شيءٍ كان بمحض إرادتها، بل هي من كانت تشجعني، صدقيني.

لم تستوعب الأم ما يصدر عن كليهما، فجلست على المقعد وهي لا تستطيع أخذ الهواء بصدرها وأخذت تلهث:

- أخبراني أن هذا كذب، لا يمكنني التصديق.

- صدقيني يا أمي أنا من يقول الحقيقة، هو من يكذب، لقد فعل كل شيءٍ من

أجل إهانتي والتقليل مني ومن عائلتي، أخذني بالشقة الخاصة بنا وفعل فعلته تلك.

- بعد أن توددتْ إليَّ يا عمتي، صدقيني بعد أن توددتْ إليَّ، لم أفعل هذا أرجوك صدقيني، هي من أرادت ذلك وكان بمحض إرادتها.

- كاذب أنا كُنت الضحية.

- لماذا تفعلين ذلك لماذا، لقد أحببتك بصدق، ظننت أن كلًّا منا يحب الآخر؟!

- لم أفعل، ولن أفعل أبدًا أنت خائن.

وسط حديث الاثنين، سمعوا صوت الباب يطرق بشدة وبعد أن طلبت منهما الوالدة السكون بالغرفة، ذهبت بخطى بطيئة جدًّا لترى من الطارق.

شهقت عندما وجدت أمامها سامح، وعيناه، تطلقا شررًا، ويقول:

- أين سها؟ أخبريني.

أخذته الوالدة إلى الغرفة بهدوء، وقالت:

- لو سمحت لا تحدث صوتًا عاليًا، لا أريد لأحد سماعنا.

توجه سامح بعينين حمراوتين كـلون الدم، وقال:

- «تحبك أنت ياسامح، لقد تركت زوجها من أجلك، لم تتمن رجلًا غيرك»، وعندما ذهبت قام والدها بصفعي وتمزيق ملابسي (وهو يشير إلى عنق ثيابه) ولم تقصر سمر فلقد أهانتني، وقامت بطردي وعاملتني أسوأ معاملة! لماذا كذبتِ عليَّ وأخبرتِني بأنها طُلقت حبًا لي؟! لماذا جعلتِني أظن بأنني المذنب في كل ما حدث؟! ماذا كُنت تريدين أن تثبتي، أخبريني؟!

لم تستطع سها التفوه بكلمة في حين قامت والدتها بصفعها صفعةً قويةً على وجهها، قائلة:

عصير الكتب

- أولًا أخبرتِنا أنكِ تعذبين مع عمرو وأنه بشع، والآن تخبرينا بقصة جديدة تمامًا، وتحاولين تحطيم صديقتك، من أنتِ؟! ممَّ أنتِ مصنوعة؟! شيطان أنتِ شيطان رجيم؟!

واعتذرت إلى سامح، طالبة منه الذهاب، وابتغت منه أن لا يتحدث مع أحد عن الأمر وسوف تعلم ما الذي حدث وتحادثه قريبًا، راجية بشكل شخصي أن لا يخبر والدته وصديقاتها بالأمر حتى لا تصبح حديث الأصدقاء والمدينة.

بعد ذهاب سامح، نظرت الوالدة إلى عمرو وطلبت منه بأمومة، وصوت حنون باكٍ:

- أرجوك خذها من هنا ولا تجعلني أراها من جديد، أرجوك بنيَّ.

اقتربت سها من والدتها بكل ثباتٍ:

- لن أذهب إلى مكانٍ، سأبقى هنا.

- لن تفعلي، سترحلين بسلام، و إلا سأخبر سمر وعائلتها، وأمير وعائلته عنكِ.

- افعلي.

لم تشعر سها إلا ويد عمرو تصافح وجهها بكل قسوة، ومن شدة الصفعة وقعت على الأرض تبكي.

ذهبت والدتها إليه ترجوه أن يأخذها ويعود بها من جديد، توسلت إليه أن لا يتركها هنا.

ومن أجل والدتها والحب الذي مازال يحمله داخل قلبه من أجلها وافق.

«عودة إلى الواقع»

تابعت الوالدة وهي تبكي...

- من الممكن أنني أحب نفسي وعائلتي، وشكلي الاجتماعي جدًّا، ولكن لا يمكنني التغاضي عن أن هناك حياة ستدمر بسبب ابنتي، أعترف أن سوء أخلاقها سببه أنا، فشلت بحياتي واهتممت بتكوين صداقاتي ومركزي و شكل حياتنا الاجتماعية، أعلم كل ذلك ولكن ما ذنب تلك الفتاة بهذه الحياة.

سكون تام من قِبل الأب، كأنه رحل إلى عالم آخر، فقالت:

- أخبرني ماذا أفعل؟

- ابنتي أنا بتلك الوقاحة؟!

- لم أخبرك بالسابق خوفًا من تلك الصدمة، اعذرني عزيزي.

- أعرف ماذا يجب أن تفعلي، من أجل سمر وأمير.

❐❐❐

لم تصدق هاجر عينيها عندما رأت مصطفى يراسلها، حملقت إلى الحديث أمامها، تشاهد حروفه وهو يراسلها، وكأنه عينيها تحتضنان كلماته، قلبها يخفق بشدة لا تعلم ما هذا الاضطراب الذي يحدث معها كلما حادثته، انتبهت إلى كلماته وهو يراسلها، و شعرت بوجوب الرد.

- كيف حالك؟!.. هاجر.. هل أنتِ هنا؟!

- هل أنت بالزقازيق؟

- أجل.

- جيد، كيف حالك أنت؟

- أفكر في شيءٍ.

- ما هو؟

- قرأت أن أبناء سيناء لا يحق لهم دخول الكليات الحربية والشرطة، فضلًا عن كمِّ الاتهامات الموجهة إليهم.

- أعلم.

- ولم يثُر أحد من أبناء البلد على تلك القرارات؟

- علامَ سيثور الثوار لكي يثوروا، كفانا ثورات! أخذت من الأبناء أرواح وتركت كل شيءٍ كما هو زهيدًا ومباحًا.

- لن أصمت، لن يضيع حق محمد، لن يحدث.

- وفقك الله.

شعر مصطفى برغبة قوية أن يسألها عن أحوالها مرة أخرى، فقال:

- هل أنتِ بخير حقًّا؟

- كيف أنت؟

- بخير.

- إذًا أنا أيضًا.

- ولكني كاذب.

- وأنا أيضًا.

- هل أتى خطيبك؟

- هل سعيدٌ مع خطيبتك؟

- نعم يحبني.

- نعم تبادلنا المحابس اليوم.

❐❐❐

عصير الكتب

شعرت هاجر برغبة مُلحة في البكاء، لا تعلم على ماذا تحديدًا، ولكن شعورها بأن محمد لم يعد موجودًا هو الأكثر تأثيرًا في مشاعرها الآن، فأرسلت:

- أتى كريم وهو شخص جيد، وميعاد زواجنا كما هو، مثلما تحدد بالسابق، لم يتغير، بعد الأربعين لأخي محمد.

- هل تبكين؟

لم تصدق هاجر ما سمعته فقالت:

- كيف عرفت؟

- محمد يا هاجر، هذا محمد وكيف لا تفعلين.

احتياج القلب إلى ضمه أوجعُ من احتياج الشريان إلى سريان الدم، هذا كان شعور هاجر الذي اجتاحها بهذا الوقت، شعور بالغضب على ما تشهده حياتها بالفترة الأخيرة! يا للسخرية! من يخفق قلبها له ويشعر بها، ويفهمها من المستحيل مجرد التفكير بِه. وآخر رائع بكل شيءٍ، كل شيءٍ ولكنه ليس على قرب من ربِه، ولكن ماذا تفعل هي؟ أين تعاليم دينها من محادثة شاب أجنبي عنها والانجذاب إليه، بالإضافة إلى كونها مرتبطة بآخر فلا يحق لها التحدث معه على الإطلاق، أين أخلاق دينها التي تزعم؟!

ضغطت حروف الآلة الكاتبة أمامها بثبات، قائلة:

- أنا سوف أتزوج بعد شهرين، إنسان جيد، سوف أعيش معه بسعادة ولا أرى من اللائق محادثة آخر حتى إن كان أخاه، سعيدة بتلك الصدفة التي جمعتنا، أتمنى لك سعادة منقطعة النظير.

❐❐❐

لم يكن مصطفى بحاجة إلى معرفة أي شيء كل حرف يكتب يؤكد حقيقة

إحساسها، وكل نظرةٍ سابقة كانت تعلن عما يحمله قلبها له، فليس شعورها أقل مما يحمله بدوره لها ،فأرسل:

- أتمنى لكِ حياةً سعيدةً، أتمنى إيجاد ابتسامة طيبة على وجهك، أتمنى لكِ كل طيب، وداعًا.

- إلى اللقاء.

- اللقاء محتمل إذًا؟

- يبقى الأمل ما دمنا نتنفس.

قام كلًا منهما في الوقت ذاته بإزالة الآخر من الأصدقاء.

وعاد مصطفى من جديد يبحث عما يساعده بقضية أهل سيناء، ليطالب بكل حقوقهم والعمل على إبراز نبل أخلاقهم، وتحقيق العدل لهم، لن يذهب موت محمد هباءً، فكل شاب من سيناء يوجد داخل قلبه محمد، وسوف يعمل على أن يعيش كُل محمد بما يستحق من كرامة واعتزاز.

❐❐❐

فطنت سمر إلى التهكم الذي تحمله نظرات أمير ونبرة صوته، نظرت إليه من جديد، والجميع ينظر إليهما، ولم تجبه، تقدم أمامها بخطوات بطيئة وتساءل:

- أخبريني، هل تانك العينان لا تعرفان الخجل؟! علامَ تبكين؟! هل تريدين منهم التعاطف؟! الاعتقاد بأنكِ ملاك ولست مخطئة.

كان والد سمر يرى النظرة الحانية بعيني أمير على الرغم من كل ما حدث، ويعلم ما تحمله ابنته سمر تجاه زوجها بعد ما شاهده بعينيه من قِبَلها مع سامح، فتمنى أن يعود كل شيءٍ إلى طبيعته ولكن خشي مما سيصرح به أمير أمام والده بلحظة غضب، فهو مثله لا يريد لهما الانفصال، ويرى أن سمر

عصير الكتب

مخطئة بقرارها، يتمنى جمع شملهما، ولكن سمر تُصر على موقفها بكل حزم، نظر والد سمر إلى والد أمير والمأذون، وطلب منهما الانضمام إليه والذهاب إلى الغرفة الأخرى.

انتظر أمير ذهابهم، ونظر إليها قائلًا:

- عاقبك الله على خيانتك لي، لم أفعل سوى محبتك.

لم تستطع سمر تقبل ادعاءه البراءة أكثر من ذلك، وأخذت هاتفها وعيناها مليئتان بالدموع، وقالت:

- خيانتي لك، وأنت لم تفعل؟! لم تقم بخيانتي؟!

فجع أمير من هول الكلمة، وقام بالاقتراب منها وأمسك بذراعها:

- لن أسمح لكِ، لن أسمح أن تقللي من نقاء حبي وصدقه، أيتها الغبية.

أفلتت يدها من بين يديه وقامت بفتح رسالة، صغيرة مصورة، بها اسم أمير ورقم هاتفه، وقربتها من يده، وقالت:

- سها أحبك وأريد البقاء معكِ لباقي العُمر.

لقد أرسلتْها إلي سها قبل سفرها مع زوجها، وقالت لي أنك تطاردها وتريد الزواج بها، وبأنها تريد العودة إلى زوجها لأنها تُحبه ولا تريد أن تقوم بمضايقتها. صديقتي؟! ألم تجد بهذه الدنيا سوى صديقتي أنا؟

جَحَظت عينا أمير، لم يصدق ما يراه حقًّا هذا رقمه، كيف وصلت رسالة كتلك من هاتفه إلى سها، ولماذا فعلت سها هذا؟ ولماذا تخبرها بتلك الأكاذيب، وعودتها إلى زوجها كيف؟! ألم تخبره أنه يقوم بضربها واغتصبها وكان يهددها منذ اليوم الأول الذي تعرفت بِه إليه؟! ما الذي يحدث؟! ما هذه الحلقة المفرغة التي يعيش بها؟!

عصير الكتب

انفعلت سمر وهي تستجوبه:

- قل من الخائن! أنا لا أريد العيش معك، أنت ظلمتني وشككت فيَّ، لمجرد سوء ظنك، أما أنت....

لم يستطع سماعها وهي تقول ظلمتني، فالمجني عليه هو، لا هي، هي من أسرعت إلى أحضان حبها الأول عندما رحل هو، هي من كانت بأحضانه وكانت تفكر في آخر، هو من حطمت أماله بكل قسوة وبرود، فنهرها قائلًا:

- أنا؟! وأنتِ التي أسرعتِ إلى أحضان حبك الأول قبل حتى انتظار أن يتم الانفصال بيننا، لقد رأيته، رأيته بعينَيَّ وهو يأتي إليكِ بالورود البيضاء التي تحبين، رأيته ورأيت خيانتك لي.

وقفت سمر مندهشة لما تسمع، كيف رأى أمير سامح، وتساءلت:

- عندما رأيته.. لمَ لم تأت معه؟! كرجل غيور على زوجته أم كانت غيرتك علي لا تأتي إلى بمعاملتك العنيفة لي جسديًّا ونفسيًّا؟!

- سها من طلبت مني المجيء إليك.

أبصر الاثنان اتجاه الصوت ووالد سمر يصاحبه، ويقوم بإغلاق الباب وراءه خوفًا من أن يستمع إليهما أحد، فتصبح سمعة ابنته على كل لسان بالبلدة!

وقال الوالد:

- سامح اتصل بي، وأخبرني أنه يريد المجيء إلينا لأمر هام، يخص سمر وزواجها.

حدق أمير إلى سامح واقترب منه لكي يصفعه على وجهه ولكن والد سمر حال بين فعله، وقام بإيقاف أمير والإمساك به، راجيًا:

عصير الكتب

- استمع له يا بني، وبعد ذلك، قرر ما تفعل.

سكن أمير ووالد سمر يمسك به في حين تحدث سامح وهو يقول:

- منذ أكثر من خمسة عشر يومًا وجدت سها تبحث عني وتطلب التحدث إليَّ، ببادئ الأمر استغربت كثيرًا طلبها وبحثها عني هكذا، ولكن عندما تحدثت معها وجدتها تخبرني بأن سمر انفصلت عن زوجها وبأنها تحبني، وأنها لم تستطع نسياني وكل ما حدث معها ذنب برقبتي، استغربت في البداية حديث سها! ومعذرة على ما سأقول، فإنني ندمت كثيرًا بعد انفصالي عن سمر، كنت أعلم أنني لن أجد فتاة بأخلاقها، واحترامها، كنت أراها بعين الزوج الشرقي، أراها زوجة رائعة تملك الوفاء والإخلاص وأشياء أخرى لا داعيَ إلى ذكرها، ندمت مرارًا وتكرارًا على خيانتي لها وكسر قلبها، عندما أخبرتني سها أسرعت وقتها بالمجيء إلى هنا، ولكن رأيت وحشًا مستذئبًا ينهرني ويصفعني، يلومني على ما عانى بسبب وجودي يومًا بحياته، لم أرها يومًا بتلك الوحشية التي قابلتني بها، وعندما سمعتني أخبر عمي عن طلبي بالزواج بها، فتذكر منظر سمر وصوتها حين قالت وعيناها تطلقان شررًا:

- أيها الوقح.. كيف تطلب زوجة متزوجة؟! لن يتركني أمير لحقيرٍ مثلك لن يفعل أبدًا!

يستمع أمير إلى سامح ويشعر بالقهر، لوقوعه مثل الدمية بيد سها، وظنونه كانت تساعدها بكل يُسر جعلته يؤلم أكثر الناس براءةً، ولكن تلك القلادة.

أكمل سامح وهو يذهب باتجاه أمير الذي يتطلع إلى سمر غير مصدق ما يسمع، وأردف:

- سها كانت اليد الخفية بأشياء كثيرة هذا ما أكده لي رؤيتها بمنزل والدتها

وعمرو يقف هناك لا يفهم ما تفعله زوجته، حتى إنني دهشت جدًّا عندما علمت بأنه أخذها معه وسافر من جديد، زوجة كهذه الخلاص منها نجاة.

سأل أمير بضعف وكأنه يستنجد به، وكل ما يعنيه أمر واحد فقط:

- سمر نفثك عن حياتها إلى الأبد منذ انفصالكما الأول.

- سمر امرأة جيدة، يحبك الله إذ كافأك بحبها.

لم يشعر أمير بنفسه إلا وهو يذهب إلى سمر ويسأل بضياع:

- القلادة يا سمر، القلادة؟

بكت سمر وهي تتذكر صديقتها وخبثها معها، وتؤكد مثلما فعلت كثيرًا:

- بأنها ليست سوى تأكيد على الحاضر واعتزازها به، أنا لم أُحب غيرك، لم أكُن شاكرة على شيءٍ بحياتي سوى وجودك، لم أُحب سواك.

عندما أدرك والد سمر العتاب بين ابنته وأمير أخذ سامح وذهبا إلى الخارج وأغلق الباب عليهما، لإعطائهما المساحة، على أمل أن يصبح كل شيءٍ على ما يرام.

أمسكت سمر بيد أمير وهي تطلب منه أن يسامحها على تلك الغلطة الصغيرة التي جعلتهما يعانيان بتلك المدة:

- سامحني يا عزيزي، سامحني.

- لا يمكنني العودة إليكِ.

تعرق جبين سمر وبرزت عيناها هلعًا، أبعدت يديها عنه.

وأردف أمير حاملًا بصوته الانكسار والأسى:

- لن يمكنني مسامحة نفسي على ما فعلته بكِ، كيف سأنظر إليك بعد كل ما عانيته معي؟! لن أستطيع يا سمر!

عصير الكتب

ابتسمت سمر وهي تمسك بيديه وتحدثت من بين دموعها لهفة:

- وتستطيع أن تجعلني أعاني وأموت بابتعادك عني؟

- كيف سأتطلع إليك؟

- ستجدني داخلك، لن تحتاج إلى التطلع إلي.

- ولكنني جرحتك وعاملتك معاملة سيئة جدًّا، يا لي من نذل! لن أسامح نفسي أبدًا على ما سببته لكِ من أذًى، لقد اغتصبتك كما يفعل أي خسيس مع العاهرات، لقد آلمت زوجتي وشككت بها، لقد فعلت كل شيءٍ يؤلم قلبك.

عبست ملامح سمر وهي تمسك بيده وتجاهد للوصول إلى عينيه اللتين يجاهد أن يبتعد بهما عنها، وأردفت:

- لا أسمح لك بأن تخطئ بحق زوجي وحبيب الروح.

- حبيب الروح، هل بعد ما فعلتُه ما زلتُ حقًّا حبيب الروح؟

- ستظل حتى تترك الروح الجسد، وسوف يصاحب حبك ذهابها إلى الرفيق الأعلى.

- ولكنني.

- أمير.

- .....

- لقد اشتقت إلى قطعتي من الجنة كثيرًا.

- لن أستطيع يا سمر، لقد انكسر شيءٌ كبيرٌ بيننا، كيف لي التطلع إلى عينيكِ ولمسك دون الشعور بالخزي والحسرة مما فعلت بكِ؟!

- مثلما أفعل أنا، سوف نجد الحب والسلام من جديد، الحب يفعل كل شيءٍ، قادر على مسح ذاكرة وتخزين ذاكرة جديدة من أجل البقاء.

- والمشاعر يا سمر؟!

- ألا تريد الآن ضَمّي؟

- بلى.

- إذًا.. ضُمني وسوف ترى كيف للمشاعر أن تفعل الكثير.

❑❑❑

تجلس سها بمنزلها بالخارج لا يسمح لها عمرو برؤية أحد أو الظهور علنًا، تبقى حبيسة منزلها طيلة الوقت، لا يمكن لها التذمر أو التملل، فهي من أرسلت حياة رائعة سابقة بيديها إلى الجحيم، فبقاء عمرو بعد أن كان من أجل والدتها فقط الآن أصبح من أجل ما يخبرهما به الطبيب.

تستلقي سها على فراشها وأمامها الطبيب وعمرو زوجها، فتساءل عمرو بلهفة، عما حدث معها، ولماذا لازمت الفراش بالفترة الأخيرة، قائلًا:

- ماذا بها؟

تتحسس بطنها وهي تستمع للطبيب، والنبأ السعيد الذي يزفه إليهما:

- السيدة حامل بجنين عُمره ثلاثة أشهر.

تذكرت حينها..

عندما قامت بوضع بعض الزيت على الدرج، لتتسبب في وقوع سمر، وفقدانها الطفل الذي بأحشائها!

◇◇◇

تمت بحمد لله.